

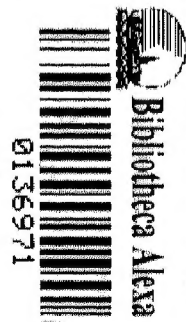
مكتبة جامعة تشرين

# مخوفهم جديد مُنصف للأدب الدول المتابعة وتاريخه

الجزء الثاني

نسيم الحمصي

طبع في  
الكتب والمطبوعات بجامعة حلب  
بأذن خاص من جامعة تشرين



مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



الجمهورية العربية السورية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة تشرين باللاذقية

٨٩٠٠  
٤١٣٣  
٧٢

مخوفهم جديد منصف  
للأدب الدول المتابعة وتاريخه

نسيم الحمصي

الجزء الثاني

مديرية الكتب والطبوعات الجامعية

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ

١٩٨١ - ١٩٨٢ م





## النشر

### مكانته وموضوعاته :

يخيل الى كثيرين أن النثر في هذه الحقبة ، بما حمل من أوزار الصناعتين البيانية والبديعية المتكلفتين تكلفاً شديداً ، قد عجز عن التعبير عن وصف الحالة السياسية ، وتطلعات الأمة ونزعاتها وأوضاعها وآلامها وأمراضها ، ولا سيما النثر الديواني منه . والواقع أنه قام بمهمته قياماً جيداً وتعدى القدرة على وصف الواقع الى القدرة على توجيه السياسة العليا وتقوية المعنويات والحث على الجهاد والاعداد للحرب في سبيل طرد المعتصمين . وذلك يتجلى في فنونه المختلفة ، من خطابة سياسية وحرية ودينية ، ومن رسائل سلطانية واخوانية ووجدانية ، ومن أدب وصفي مختلف الانواع ، وبما ألفت في الجهاد وفضائل المدن والسياسة والاخلاق والقصص والمقامات والتاريخ والسير والمناقب ووصف أحوال الأعداء .

وتناول الادب موضوعات من صميم الحياة ، لم يكن يتناولها الادب القديم ، كوصف الحمامات العامة وذم بعض العادات الشاذة في المجتمع ، والسخرية بالاوضاع المشينة ونقد موظفي الدولة كالعاملين في الدواوين والمكوس .

وألفت كتب في الادب منها ما دار حول موضوع واحد ومنها ما شمل عدة موضوعات ومنها ما شرح كتباً سابقة .

ونشأ أدب شعبي من صميم الشعب يتذوقه العامة والخاصة ، منه مقامات ومنه قصص ، ومنه ما يشبه التمثيليات ، وكان يعد بذرة صالحة لها لو ساعدت ظروف الحياة من سياسية واجتماعية وفنية ، كتمثيلات خيال الظل المسماة باللبابات .

## الخطابة

ازدهرت الخطابة في عهد النبي والخلفاء الراشدين والعهد الأموي وبداية العهد العباسي ، ويسكن أن نميز فيها النوع الديني والنوع الحربي والنوع السياسي . ولكل من هذه الانواع ميدانه ويسكن أن تلحق بهذه الانواع المناظرة

والمواعظ في المساجد والقصص الديني ، وإن كان لهذه الثلاث سمات تميزها عن الخطابة .

كانت الدولة الفاطمية تعنى بالخطابة . وكان الخليفة نفسه يخطب أحياناً في مساجد القاهرة والفسطاط من انشاءه أو مما يهيئه له ديوان الانشاء ، وكان يختار للخطابة في المساجد الكبيرة أشهر العلماء والقضاة ويمدح الرجل فيقال هو من بيت رياسة وخطابة ، واستمرت العناية بالخطابة في العهدين الايوبي والملوكي .

وكان يشترط في الخطيب أن يكون فصيحاً حافظاً للقرآن وكان الفاطميون يشترطون أحياناً أن يكون من الأشراف .

ومن النصوص الدالة على ما كان يراعى في الخطيب من صفات حين تعيينه ، التقليد الذي تعين فيه قاضي القضاة كمال الدين بن العديم ( ت ٦٦٠ هـ ) خطيباً لأحد الجوامع الكبرى وأرجح أنه جامع دمشق ، وقد جاء فيه :

« ... لأنه الإمام الذي لو تقدم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد والعارف الذي بلغ بولايته مريد الفضل غاية المراد ، والعالم الذي وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها في الخارج صالح العمل ، واتبع سنن الكتاب والسنة ، فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ، والمحقق الذي وجد الى الحقيقة أكمل مجاز ، والمفوه الذي بلغ من البلاغة في كلام البشر حدة الإعجاز ، إن خطب شئت بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغير فرائده الأسجاع ، واهتزت أعواد المناير طرباً لكلمه الطيب وروى أوام القلوب سحاً فضله الصيّب ... ولو نظر الملكان هاروت وماروت ما ملكه من كتابته الساحرة لأقرّا أنه السحر الحلال ... فليباشر هذه الخطابة مباشرة ترشف منها كؤوس كلمه الأسماع . وليكشف لها عن وجوه فضائله القناع ، ولينثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسامع ... وليطرب بمواصل أسجاعه القاطعة بفضائله المكملة ... ولينفق على الجمع يوم الجمعة بما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التي أخملت ذكر ( قس ) و ( سبحان وائل ) » .

« صبح الأعشى ٢ ص ١٤٤ و ٤٤٠ »

وقد يتوالى الخطباء من أسرة واحدة كما توالوا في أسرة ابن دقيق العيد<sup>(١)</sup> ( الطالع السعيد ص ٢٩٦ ) • وكان المسجد مكان الخطبة في أيام الجمع وقد يجمع الناس فيه حين يحدث أمر عظيم يستدعي الخطابة كما حدث حين سقطت دمياط في أيدي الفرنجة وتحرك الافرنج منها بعد موت الملك الصالح أيّوب يريدون الاستيلاء على مصر فألقيت خطبة ألهمت حماسة الناس ودفعتهم الى الجهاد • وهي مضمون كتاب أرسل اليهم بدىء بالآية الكريمة : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير » لكم إن كنتم تعلمون » •

« المقرئ ، ج ١ : ٣٥٦ »

وقد يخطب بعض العلماء الجريئين منتقداً أعمال الحاكم مصرحاً بمخالفتها للدين كما فعل عز الدين بن عبد السلام<sup>(٢)</sup> خطيب مسجد دمشق حين انتقد الملك الصالح لتسليمه صفد والشقيف للفرنج ولم يبال بالعزل والسجن •

« فوات الوفيات ١ : ٢٨٨ »

وكان يدعى لأولى الأمر في الخطبة الثانية من خطب الجمعة وفي خطب العيدين وغيرها من الخطب •

وفي العهد الفاطمي كان يدعى في خطبة الجمعة لوزير الحافظ الفاطمي أحمد ابن الفضل أمير الجيوش فيوصف بهذه الصفات : ناصر أمام الحق ، هادي العصاة الى اتباع الحق ، مولى الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم وكان يدعى لنور الدين محمود فيوصف بهذه الصفات :

« اللهم ... اصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي ابن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » •

وكان يدعى لصالح الدين فيوصف بهذه الصفات :

(١) اشتهرت في العهد المملوكي التركي ورأسها موسى بن علي ( ت ٦٨٥ هـ ) .

(٢) مخضرم بين المهديين الا وبي والمملوكي . وقد تحدثنا عنه بين نوابغ العلماء .

« اللهم وأكرم سلطان عبدك الخاضع لهيئتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك الالامع والمحمي عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان » (٢) .

وينبئ لنا من موازنة هذه الأدعية بعضها ببعض كيف اختلف الدعاء باختلاف حال المدعو له من الأمة ومن الأعداء . فقد دعي لوزير الخليفة الفاطمي على أنه ناصر مولى الأمم وناصر امام الحق وذلك يناسب الدعوة الفاطمية السياسية ، ودعي لنور الدين دعاء يناسب جهاده لطرد الأعداء وتفانيه في نصرة الدين في وقت لم ينل فيه المسلمون نصراً حاسماً على الصليبيين ، ودعي لصالح الدين دعاء يناسب انتصاره الحاسم عليهم فهو سيف الاسلام القاطع وشهابه الالامع .

وقد ألفت كثير من الخطباء في هذه الحقبة دواوين للخطب . منهم في العهد الفاطمي — الزنكي يحيى بن سلامة الحصكفي ( ت ٥٥١ هـ ) ، وفي العهد الأيوبي شميم الحلبي ( ٦٠١ هـ ) صاحب كتاب « نتائج الإخلاص » ، ويحيى بن معطي الزواوي ( ٦٢٨ هـ ) ومحمد بن هبة الله البرمكي ( ٦٢٨ هـ ) ؟ (٢) ، وأبو محمد الفاسم بن القاسم الواسطي ( ٦٢٦ هـ ) ومنهم في العهد المملوكي التركي أحمد بن المبارك بن نوفل ( ٦٦٤ هـ ) وابن المنير السكندري ( ٦٨٣ هـ ) ، وابن دقيق العيد ( ٦٨٥ هـ ) ، وقد ألفت هؤلاء كلهم دواوين خطب وقد سبقهم الى ذلك ابن نباتة معاصر المتنبي .

« عن الحياة الادبية ، د. بدوي ص ٣٨٠ »

وكان لخطب ابن نباتة المعاصر للمتنبي وسيف الدولة ، قيمة عظيمة حينئذ فقد كان الخطباء يسرون على غرارها حتى قال ابن الاثير « بأنها عكاز أهل هذا

---

(١) راجع بحث الخطابة في « الحركة الادبية زمن الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة » .

(٢) لعلته محمد بن هبة الله بن ابي جرادة الحلبي من بني العدم ، ( ت ٦٢٨ هـ ) ولكن من أين جاء لهذا لعب البرمكي ؟ ولعلته غيره .

الزمان » وكانت تميل الى السجع ، بل اننا نراه يلتزم حرف الباء في فواصل خطبة طويلة .

« الحياة الادبية ٣٣٥ وما بعدها »

ومن الخطب التي كانت تكتب خطبة الزواج . ومن ذلك خطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على بنت الامير قلاوون الألفي في العهد المملوكي التركي ومنها :

« الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن نسيته سلطانه ، وصهره ملكه ، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، ومميزاً أقدارهم باحتفاء تأهله حتى حازوا نعيماً ومثلها كبيراً ، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياءً ، وزاد قمرها نوراً .... »

« القلقشندي ، صبح الأعشى ١٤ : ٣٠٠ »

وظهرت في هذا العصر الخطب التدريسية وهي الخطب التي كان يلقيها العلماء ، والفقهاء منهم بخاصة ، في مفتتح مواسم الدراسة في المدارس أو المساجد التي يكلفون بالتدريس فيها .

وكان الخطباء فريقين : فريقاً يؤثر السجع على طريقه ابن نباتة ، وفريقاً يتجنبه ويؤثر الاسلوب الحر كعز الدين بن عبد السلام . ولم يصل الينا شيء من خطبه . وانما اتبع الاسلوب الحر لأن خطب السلف كانت خالية من السجع الا ما جاء عفو الخاطر وكان أسلوبه حراً كنفسه في عصر لم يستطع فيه أكثر الخطباء أن يتحرر تحرره . ومواقفه معروفة مشهودة .

اشتهر من خطباء هذه العهود ابراهيم بن منصور العراقي ( ت ٥٩٦ هـ ) امام الجامع العتيق وخطيبه ، وابنه محمد الذي ألّف ديوان خطب اشتهر ، من العهد الماطمي - الزنكي ، وابن زكي الدين صاحب الخطبة امام صلاح الدين حين فتح القدس وشيخ الدين بن أبي المغضاء الذي جعله صلاح الدين رسوله الى الخليفة ، من العهد الايوبي ، وبنو العديم الذين تعاقبوا على القضاء والخطابة .

ومنهم الكمال بن العديم وقد خطب في جامع دمشق ، وابن دقيق العيد العالم  
الاديب الصوفي ، وابن المنير الاسكندري عالم الاسكندرية وخطيبها • وعز الدين  
ابن عبد السلام ، الذي كان جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، والذي استن  
في خطابه سنناً غير ترك السجع ، منها انه اجتنب الثناء على الملوك واستبدل به  
الدعاء لهم ، ومنها أنه أبطل دق السيف على المنبر<sup>(١)</sup> • وهؤلاء الآخرون من  
العهد المملوكي التركي • ولم نعرف بعد خطباء مشهورين في العهد المملوكي  
الجزركسي •

### مثال من الخطب الدينية ذات الطابع النصالي :

كان خطباء المساجد في هذه الحقبة يحضّون الناس على الجهاد ويبينون لهم  
ضرورته وواجباتهم في دفع الاعداء من حيث بذل النفس والولد والمال والتضحية  
بكل شيء في سبيل النصر وطرده الاعداء •

وكان صلاح الدين يتوخى أن تحدث معاركه في وقت الصلاة من أيام الجمع  
تبرءاً كإبداء الخطباء وتفاؤلاً بالنصر ( النوادر السلطانية ابن شداد ص ٦١ ) •  
ولعله كان يستفيد حين يبدأ الهجوم في هذا الوقت من تذكير الجند بواجبهم  
المقدس في الجهاد ، وانهم في يوم الجمعة ولولا العدو الغاصب لكانوا يؤدون الصلاة  
في الجوامع بين أهلهم •

وللخطبة الدينية نظام مأثور فالخطيب يبدؤها بحمد الله ثم يلقي خطبته الاولى  
في الموضوع الذي يريده ويجلس جلسة قصيرة ثم يقوم فيخطب الخطبة الثانية  
فيدعو فيها للخليفة ثم للملك والسلطان ثم لسائر المسلمين •

ومن أشهر الخطباء زمن صلاح الدين محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق  
وهو الذي اختاره صلاح الدين من بين خطباء عدّة رغبوا في أن يلقوا خطبة  
الجمعة بالمسجد الأقصى في ذلك اليوم الخالد • وهو أبو المعالي محيي الدين  
محمد بن علي القرشي ( ٥٥٠ - ٥٩٨ هـ ) •

---

(١) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١١٩ في المتن والحاشية .  
د. احمد أحمد بدوي .

صعد المنبر وهو متشح بالزيّ العباسي الاسود شعار بني العباس ، وبدأ خطبته بآيات يبتات في حمد الله حمداً مطولاً ثم ألقى خطبته الأولى التي دارت حول الفتح ، وشكر الله عليه ، وواجبات الجند ...

وفي الخطبة الثانية دعا للخليفة الناصر لدين الله ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وقد أعجب القدامى بها إعجاباً شديداً .

ونكتفي من هذه الخطبة بما يلي :

« أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » (١) .

أليس هو البيت الذي عظمته الليل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟

أليس هو البيت أمسك الله عز وجل ، فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد من خطواتها ليتيسر فتحها ويقرب ؟

أليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلاً ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل ، وقد فضّلهم على العالمين ، ووفّقكم لما خذل فيه من قبلكم من الأمم الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم ، بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم ، جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم الى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحيد ، وما أمطّتم فيه عن طرقه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات ويصلي عليكم الصلوات المباركات .

(١) الاسراء ١٧ ، ١٠ .

فاحفظوا ، رحمكم الله ، هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تستسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُرْوَتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقف الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدا . وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، واجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ ، وبيعوا أنفسكم عبادَ الله ، في رضاه ، إذْ جعلكم من خير عباده وإيَّاكم أن يستذلَّكم الشيطانُ ، وأن يتداخلكم الطغيانُ ، فيخيِّل اليكم أن هذا النصرَ بسيفكم الجِدَاد ، وبخيولكم الجِيَاد ، وبجِلَادكم في مواضع الجِلَاد ، لا ، والله ، « ما النصرُ إلَّا من عند الله ، إنَّ الله عزيز حكيم » (١) واحذروا ، عبادَ الله ، بعد أن شرَّقكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصَّكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيدِيكم بحبلِهِ المتين ، أن تقترفوا كبراً من مَنَاهيه ، وأن تأتوا عظيماً من مَعَاصيه ، فتكونوا « كالتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » (٢) و « الذي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ، فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ » (٣) .

والجهادُ الجهادُ ، فهو أفضلُ عبادَاتِكُمْ ، وأشرفُ عاداتِكُمْ ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا الله كثيراً يذكرْكم ، اشكروا الله يزيِدْكم ، ويشكرْكم ، جِدُّوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقيَّة الأرض التي أغضبتِ اللهَ ورسوله واقطعوا فروعَ الكفر ، واجتثوا أصوله ، فقد نادى الأيامُ بالثاراتِ الإسلامية والملكَّة المحمدية . الله أكبر . ففتحَ الله ونصرَ ، وغلبَ وقهرَ ، وأذلَّ الله مَن كفر ، واعلموا ، رحمكم الله ، أن هذه فرصة فاتتْزوها ، وفريسة فَنَاجِزوها ومُهَمَّة فَاُخْرِجُوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيَّزوا إليها سرايا عَزَمَاتِكُمْ وجهَّزوها فالأُمُور بأواخرها ، والمكاسبُ بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدوِّ المخدول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحدٍ منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » .

(١) الأنفال ٨ ، ١٠

(٢) النحل ١٦ ، ٩٢

(٣) الأعراف ٧ ، ١٧٥



أعانتنا الله وإيتاكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجه ، وأيتدنا ، معشر المسلمين ، بنصر من عنده « إن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » .

« ابن واصل ، مفرج الكرب ٢ : ٢١٨ - ٢٢٨ ، وأبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ : ١١٠ ، ووفيات الاعيان ٣ : ٣٦٥ - ٣٧١ »

هذا وقد حطب الخطيب يومئذ على المنبر الذي أنشأه نور الدين زنكي لبيت المقدس قبل فتحه بعشرين سنة ، وعده ذلك كرامة لنور الدين الذي كان قد صمم على فتح القدس وسائر المدن المحتلة ، ولكن الموت لم يمهل ، وكان قد رأى بفراسته أن النصر قريب وأن القدس ستفتح وقد دعا الناس يومئذ له بالرحمة ولصلاح الدين بالنصر .

**كلمة في هذه الخطبة كاملة لتعطي صورة عما حذفناه منها :**

هذه الخطبة دينية قومية ، ونعني بقومية هنا أنها تمثل نضال الامة ضد أعدائها الغاصبين . وهي تنقسم شكلا الى قسمين كجميع الخطب الدينية : الخطبة الاولى والخطبة الثانية وبينهما قعدة استراحة قصيرة .

والخطبة الاولى تنقسم الى مقدمة ، وعرض ، وخاتمة .

**أ - المقدمة :**

١ - بدأ المقدمة بعدة آيات من القرآن الكريم في حمد الله على نعمه وهدايته وبينها آية تنذر من يقولون بأن الله قد اتخذ ولدا ، وانما جعل الآيات في بداية المقدمة ، موافقة لأصول الخطابة الديية من إيراد الآيات فيها ، ولخلق جو من الخشوع والقداسة بين المستمعين ، ولشق الطرق الى ما يريد قوله بعد .

٢ - ثم يحمد الله بجمل من صياغته على ما وهب من نصر على الاعداء وقهر لهم واعزاز لدينه وأنصاره وتطهير بيت المقدس من أوضاره . وهو يمهّد بذلك لما سيفصل فيه الكلام بعد .

٣ - ثم يأتي بالشهادة على وحدانية الله ورسالة النبي ذاكراً عروجه الى السماء من بيت القدس ، مشيراً بذلك الى كرامة هذا البلد في الدين الاسلامي ولدى المسلمين وهو يمهّد بذلك لما سيفيض فيه بعدُ حول هذا المعنى .

٤ - ثم يصلي على النبي والخلفاء الراشدين مشيراً بذلك الى قيمة الانتصار على الشرك والى أنّ عمر هو أول من أزال من البيت المقدس شعار الصليبان والى أن صلاح الدين فعل مثله فهو يقاس اليه .

وكانت غاية الخطيب من هذه المقدمة اعداد أذهان المستمعين لما سيأتي في عرض الخطبة .

#### ب - عرض الخطبة :

١ - ينتقل الخطيب بعد المقدمة الى تهنئة الناس بهذا النصر الذي رجع فيه البيت المنشود الى أهله من أيدي الصليبيين الضالين بعد مئة سنة من الاحتلال ، وتظهر من رجسهم .

٢ - ثم يشيد الخطيب بمكارم بيت المقدس ومكاته لدى الأديان كلها مبيّناً أن المسيح نبي وليس إلهاً وأنه عبد لله وليس ولده .

٣ - ثم يشيد بالفاتحين ذاكراً بأن الله كرّمهم بهذا الفتح واختصهم به تشریفاً لهم . ويقارن الفتح بأعظم الفتوحات الاسلامية السابقة ، تاركاً للفكر أن يستوحى أن صلاح الدين ندّ لهؤلاء الفاتحين الاوائل .

٤ - ثم يعتدّ الفتح نعمة على الفاتحين وليس فضلاً لهم . لإيثار الله إياهم بمكرمه . وهذه لفظة بارعة من الخطيب فيها فطنة يمهّد بها لما سينصحهم به بعد من عدم الغرور .

ومن خلال كلامه نراه يخلع القداسة على الفتح ويجعل الفرحة به تعم السماء والارض والملائكة والنبين .

٥ - ثم يعود الى الاشارة بفضاء بيت المقدس معتمداً الى حوادث من تاريخ الاديان السماوية الثلاثة ، مشيراً بذلك الى قيمة هذه المدينة عندها .

٦ - ثم يوازن بين اقدام صلاح الدين وجنده ونكوص غيرهم مختصاً بني اسرائيل الذين عصوا ربهم ونبيهم ونكصوا عن الجهاد فعوقبوا بالتيه .

٧ - ثم يهنئ الجند بأنهم أصبحوا جند الله بتحريرهم بيت المقدس وتطهيره بعد أن كانوا جنداً لأهوائهم .

٨ - ثم ينصحهم ألا يغتروا بهذا النصر فيتقاعسوا عن تحرير بقية البلاد وفي ذلك توجيه جيد الى متابعة النضال وإتمام تنفيذ الخطة الجهادية وينصحهم كذلك ألا يفسدهم النصر فيظنوا أنهم انتصروا بسيوفهم وخيولهم وجهادهم فما النصر الا من عند الله . وهو لا يريد بذلك أن ينكر عليهم جهدهم الطيب وجهادهم المقدس ، وانما يريد أن يجنبهم الغرور .

٩ - ثم يحذرهم من الادلال بنصرهم وأستثماره في المعاصي واغضاب الله فانهم حينئذ يهدمون ما قد بنوا من مجد .

١٠ - ثم يعود فيحثهم على الجهاد واستئصال شأفة الاعداء والأخذ بالثأر ، فهذه فكرة تشغله لذلك يلح عليها ، ثم يكبر الله بحماسة على هذا النصر ويستحثهم الى انتصارات قادمة ، فقد انتصروا والعدو أكثر منهم أو مثلهم عدداً فالآن قد أصبحوا عشرين ضعفاً منه فما عليهم الا أن ينتصروا وقد وعد الله الصابرين بأن تغلب المئة منهم مئتين من عدوهم .

والاقسام من الخامس حتى العاشر تكون الجزء الذي أوردناه من الخطبة .

#### ج - خاتمة الخطبة :

ثم يأتي بخاتمة الخطبة الاولى فيدعو للجميع بالتوفيق الى طاعة الله والنصر فان الناصر والخاذل هو الله وحده .

#### د - الخطبة الثانية بعد الاستراحة :

نستطيع أن نعد الخطبة الثانية تلخيصاً للأولى بطريق الدعاء الى الله . فهو بعد أن يدعو بالصلاة على النبي والصحابة والتابعين وللخليفة العباسي في بغداد - وهذا القسم غير مذكور فيما بين أيدينا من الخطبة - يدعو لصلاح الدين

البهاء مثيلاً بجهاده وأعماله الباهرة ، بأن ييسط الله دولته ويقوي حوزته وينشر  
تسميته تم يدعو له بأن يفتح أداني الارض وأقاصيها لخلصها من الشرك وفي هذا  
الدعاء حث وتوجه الى اتمام الخطه الجهادية الحربية ، ثم يدعو على الكفار  
الذلل ، ثم يدعو لصلاح الدين بحفظ الملك في دريته وأهله ثم بأن يكون ثوابه الجنة  
فهو الملك الابدی الذي لا ينفد .

هذه الخطبة موفوره المشاعر صادقتها يعبر عنها الخطيب في أكثر من مكان من  
خطبته فهو فرح بالنصر واسترداد بيت المقدس معتزّ بصلاح الدين والجند وعز  
الدين والأمة . شامت بما أصاب الاعداء ، خائف على المنتصرين من الغرور  
والاهمال ، متطلع الى فنوحات جديدة ، لأنه لا يزال شاعراً بالخطر .

وهو غني بالافكار فقد استوفى ما يجب ان يقال بهذه المناسبة ، ولم ينس  
التوجيه والاعداد للمستقبل . وقد رتب خطبته جيداً في قسميها وجعل لها مقدمة  
وعرضاً وخاتمة وأعاد عنصرين من الافكار الرئيسية مرتين وهما الاشادة ببيت  
المقدس ، والدعوة الى متابعة الجهاد لتحرير بقية البلاد ، وكانت الاعادة :

١ - لأن الفكرتين تلحّان عليه فهما أهم ما في الخطبة ولا سيما الفكرة  
الثانية .

٢ - ثم لأن طبيعة تتابع الكلام قد استدعت منه الإعادة . ونلاحظ أنه  
مدّد صباغة الفكرتين حين أعادهما . وقد لخص الافكار جسيماً وعلّقنا عليها .  
ولم يلجأ الخطيب الى الخبال البياني فلم يكتر مرّ شائيه والاستعارات والكنيات  
والمجازات ، واعتمد على الحقيقة لأنها في ذاتها رائعة مثيرة وقد عوض الشاعر  
عن الخيال بالاكثار من الاشارات التاريخية الدينية المستمدة من الاديان السماوية  
الثلاثة ولا سيما الاسلام .

ونلاحظ ان الخطيب قد أكثر من اقتباس الآيات القرآنية وذلك طبعاً لأن  
المناسبة دينية . ثم نرى أن السجع يأتي في كلامه كثيراً ولكننا لا نشعر فيه بأيّ  
نكلف ، وذلك راجع الى تمكّن الخطيب من مادته ولغته ولكثرة اعتياده هذه

المواقف ، وما جاء عنده من بقية الفنون البديعة كان عفواً لا استكراه فيه •  
ولم يستشهد الخطيب بالحديث النبوي فقد أغنت عنه الآيات •

### الخطب الحربية :

كانت الاحداث تطلب أن يخطب القائد في جنده فيحثهم للقتال أو للدفاع  
والثبات وكانت هذه الخطب طبيعية الاسلوب خالية من التكلف مرتجلة •

١ - روى ابن شداد أن السلطان صلاح الدين أمر جنده بالانتقال الى  
الحرّوبة ، وكان ابن شداد بينهم ، فخطب فيهم فقال :

« باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله  
وعدوئنا ، وقد نزل بلدنا ، ووطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم ،  
إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام  
بقلمه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأتمتع تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءها  
نجدة " تنتظرها سوى الملك العادل ، وهو راحل • وهذا العدو ، وإن بقي وطال  
أمره الى أن يفتح البحر ، جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ،  
فلنخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك » •

« ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ : ٣٠٤ ، وأبو شامة ، الروضتين ٢ : ١٤٦ »

وهذه الخطبة موجزة تناسب المقتضى ، اهتم صلاح الدين فيها بالمعنى ولم  
بتكلف في المبني وخلا أسلوبه من الصناعة تماماً • فهو يبين للجنود أن العدو هو  
عدو الله وعدوهم ، وأن من واجبه حربهم ويستحثهم مبيناً لهم أن النصر  
قريب وأن العدو قد تضعف فيجب استئصاله قبل أن يستريح ويأتيه المدد فيعاود  
الكرة ويحذرهم من عاقبة ذلك •

وينبئ من الخطبة إيمان الخطيب بما يقوله وحماسه لحرب الأعداء وقدرته  
على الإقناع مع الإيجاز ، وعدم مبالغته في اظهار العاطفه •

والمهم عنده ما يمكن أن يقدمه كل من قواده وجنوده في سبيل النصر ، وهو  
الغاية التي تتوجه اليها الخطبة •

٢ - خطب الملك المظفر قُطُز في أمراءه ، وهو في الصالحية ( من مصر ) حين خرج لحرب التتار خطبة قصيرة قال فيها :

« يا أمراء المسلمين ، لكم زمان " تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » .  
« السلوك ، ج ١ ، ٤٢٩ »

وفي غزة جمع قُطُز الأمراء مرة أخرى ، وحرّضهم على القتال وذكرهم بما أحدث التتار من القتل والسبي والحريق وحشّتهم على استخلاص الشام منهم وحذّرهم عقوبة الله .

وكان لخطبته فعلها في نفوسهم ، فقد ضجّوا بالبكاء وتعاهدوا على الثبات وصدّ الاعداء .

نستشف من الخطبة في الصالحية ، ثم من تكرار الخطيب الخطابة في غزة (١) ، أن القواد والجند كانوا يستشعرون الرهبة من لقاء المغول بعد أن بطش هؤلاء ببغداد والشام ونالوا انتصارات عظيمة في قسم كبير من آسيا ، فهو لذلك يذكرهم بأن بيت المال لم يكن ليحِلَّ لهم لولا هذا اليوم الذي يجب أن يدافعوا فيه عن الدين والبلاد .

وهو يضع القواد والجند أمام الموقف الحار الذي لا تردّد فيه ، فأبى منهم لا يستطيع أن ينسحب من مجابهة المعركة حينئذٍ إلا أقرّ على نفسه بالجبن والخسة وسرقة أموال المسلمين وضعف الإيمان .

وقد استطاع الخطيب بكلماته القليلة البسيطة الخالية من الكلفة أن يتلمس موضع التأثير من قلوبهم . ولذلك نراهم يضجّون بالبكاء ويتفائسون في القتال حتى يقلبوا صفحة المعركة لصالح المسلمين .

ولم نجد بعد خطباً دينيةً فضالية أو خطباً حربية في العهد الجركسي .

(١) السلوك للمقريزي ١ : ٤٣٠

## الكتابة السلطانية

الكتابة السلطانية تتناول شؤون الدولة الداخلية والخارجية • وهي تشمل :

أ - بيعات الخلفاء ، وتقانيد الملوك وولاية العهود ، ومراسيم إسناد الوزارة والنيابة والقيادة والقضاء والتعليم والخطابة •

ب - التوقيعات وبلغات القصر والمنشورات السياسية والاقتصادية ••

ج - نسخ الأمان والمعاهدات والهدن والأيمان ، وشؤون السفارات ، بين ملوك المسلمين ، وبينهم وبين الملوك الأعاجم •

د - الرسائل الديوانية وكتابة التقارير •

وكان الذي يتولى هذه الامور كلها كتابة وجواباً واصداراً واستلاماً ديوان الانشاء ، فلا بدّ من إيضاح مهماته •

### ديوان الانشاء :

اهتمت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء فعنه كانت تصدر رسائلها والدعوة لها وما فيه إجلالها وتقديسها وسمواً رئيسه بالشيخ الأجل وبكاتب الدست الشريف • وهو أقرب الناس الى الخليفة وقد يلازمه ، ويسر اليه هذا بما يكتمه عن وزرائه وأهله وولده ، وكان يحمل دواته أحد خدم الخليفة المقربين ، ويعطى الكسوة والرسوم والملاطقات<sup>(١)</sup> ويعدّ أول أرباب الاقطاعات •

وكان يلقب أحياناً بكاتب الدشرج ، واستمر شأنه كذلك الى أوائل أيام المماليك • وفي زمن الظاهر بيبرس كان يلي الديوان ثلاثة لا واحد ولكن كان أعلاهم درجة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر • وفي زمن المنصور قلاوون تولى الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ولتقّب بكاتب السر ونقل لقب كاتب الدست الى الطبقة التي تليه من كتاب الديوان •

وكانت أعمال رئيس ديوان الانشاء خطيرة كثيرة متشعبة فهو الذي يتولى

(١) الملاطقات : الهدايا .

عن السلطان المراسلات الداخلية والخارجية وأمور المظالم وهو الذي ينظر في الكتب الواردة الى السلطان ويعرضها عليه ويدقق في الكتب الصادرة لتكون كاملة لغة ومعنى وأسلوباً وخطاً وعراباً وألقاباً ، إذ لا يجوز أن يزداد أو ينقص أو يغير في الألقاب • وهو يدير أمر البريد ورجاله وأمر أبراج الحمام وملحقاته وأمر المخبرات ( العيون والجواسيس ) وسائر ما يتعلق بالمملكة •

ولم يكن يقوم بهذه الأمور كلها وحده فكان يساعده في كل ناحية منها كاتب مختص ماهر في ما يكلف به •

ومن هؤلاء الكتاب كتّاب عملهم الترجمة من اللغات الأجنبية واليهما وأكثر ما كان يحتاج اليه من اللغات : الفارسية والرومية والفرنجة ، أما التركية فكان يعرفها كثيرون •

وقد أدرك القلقشندي ما للديوان من شأن فقال : « لو جمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل » •

وكان الديوان بمثابة معهد علي يتخرج به من سيعمل فيه في المستقبل بعد أن يتشقق بما يحتاج اليه ، وهو كثير ، وبعد أن يمتلك ناصية الكتابة •

وقد وليه طائفة من أشهر الكتاب في مصر والشام منذ أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية دولة المماليك •

منهم في الدولة الفاطمية ابن الصيرفي علي بن منجب ( ت ٥٥٠ هـ ) وابن قادوس ويوسف بن محمد الخلال ( ت ٥٦٦ هـ ) • ومنهم في الدولة الايوبية القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير وعبد المحسن الحلبي وبهاء الدين زهير والصاحب بن لqsان • ومنهم في دولة المماليك محيي الدين بن عبد الظاهر والشرف الانصاري والشهاب محمود واحمد بن الاثير •

ومن الذين اشتهروا في مصر والشام غير هؤلاء ابن الشحنة الحسن بن محمد ( ت ٤٨٢ هـ ) • وعبد العزيز بن الحسين الاغلبي الصقلي المشهور بالقاضي الجليس ( ٥٦١ هـ ) وأبو الحسن يحيى بن أبي علي المشهور بابن الجراح ( ٦١٦ هـ ) • وجمال الدين عبد الرحيم بن شيث ( ت ٦٢٥ هـ ) •



ومن أشهر من كتب الدولة السلجوقية في المشرق جلال الدين أبو الحسن ( ٥٥٤ هـ ) وابن حمدون ( ٥٦٢ هـ ) ، ورتيد الدين الوطواط المؤلف المترسل بالعربية والفارسية ( ت ٥٧٣ هـ ) ، وقوام الدين بن زبارة ( ت ٥٩٤ هـ ) ، ومنهم ابن الاصبغاني وزير السلطان محمد خوارزم شاه ( ت ٦٠٠ هـ ) وكان بليغاً أديباً ، والمدائني نصر بن نصير بن لبث ( ٦٠٥ هـ ) .

ويغلب على كتابات المشرق الطابع العقلي لاهتمامهم بالفلسفة والمنطق والعلوم العقلية .

وفد ألفت كتب فيما يجب أن يوافر في هذا الديوان من نظم وما يجب أن يصف به كتابه .

ومن هذه الكتب في العهد الفاطمي « قانون ديوان الرسائل » لأبي القاسم ابن الصيرفي . وفي العهد الايوبي « المفتاح المنسا في حديقة الإنشا » لابن الاثير . و « فوائد الدواوين » لابن ممتاتي ( ت ٦٠٦ هـ ) . وقد تحدث فيه عن مكانة الكتابه وصفات الكاتب ولكه أولى عنايته العظسى لديواني الخراج والمال لأنها اختصاصه .

ومن أشهر الكتب التي ألفت في العهد المملوكي « التوسل في صناعة الترسل » للشهاب محسود ، وفي العهد المملوكي الثاني كتاب « صبحي الاعشى في صناعة الإنشا » للفلقشندي . وسندرسه بشيء من التفصيل : « راجع الحياة الادبية ، بدوي ٣٣٢ - ٣٣٤ و ٣٣٩ ، وكتاب العقد الفريد للملك السعيد لمحمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، ص ١٤٨ » .

### ثقافة الكتاب :

كان الكاتب في ديوان الانشاء يحتاج الى ثقافة واسعة ولا سيما اذا كان يطمح لأن يصبح رئيساً لهذا الديوان الذي كان يسمى رئيسه كاتب الدست أو كاتب الدرج ثم أصبح اسمه أمن السر .

فهو بطبيعة عمله يحتاج الى أن يردّ على كل فضله من قضايا الدولة أو قضايا الأمة عامة أو خاصة ، داخلية أو خارجيه ، فهو لسان الدولة ومدبّر أمورها ورأسها

المفكر وعلى صوابه وخطئه يبنى أحياناً فوز الدولة أو انكسارها أو انهيارها •  
لذلك كان عليه أن يكون ضليعاً بالعلوم الشرعية السياسية والعلوم اللغوية وما  
يتصل بها من أدب شعراً وثوراً ومن بلاغة ونحو وصرف ، كما كان يجب عليه أن يلم  
بالعلوم العقلية والكونية التي ترجمت عن الأمم الأخرى أو خاض بها العرب  
وابتكروها كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والطب والصيدلة  
وعلمي الحيوان والنبات والكيمياء لا إمام المختص ولكن إمام المثقف الذي يفهم  
مبادئها وما لا يجوز للمثقف الواسع الثقافة أن يجهره منها •

وأصبح عليه في عهد المماليك بخاصة أن يحسن اللغة التي كانت لغة الحكام  
الذين لم تكن أصولهم عربية وهي التركية أو الكردية وأن يحسن معها الفارسية •  
وقد وُصف ابن الأثير بأنه كان يحسن التركية والفارسية الى جانب العربية •

وعلى كاتب الديوان أن يكون عنده الاستعداد الفطري من البلاغة والفصاحة  
والقدرة على التعبير وان ينمي بالمران على فهم النصوص البليغة كالقرآن والحديث  
والشعر الجيد والحكم المختارة ، وبقراءة ما يكتب في الديوان من نصوص بليغة  
في جميع الموضوعات وان يحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث والقصائد والأمثال  
وكتابات البلغاء وروائع الحكم المترجمة •

قيل إن القاضي الفاضل أرسله أبوه الى ابن الخلال الذي كان رئيس ديوان  
الانشاء في الدولة الفاطمية ليعمل لديه فلما سأل عن مؤهلاته أجابه بأنه يحفظ  
القرآن وديوان الحماسة لأبي تمام فأجابه بأن ذلك كاف له • ونلاحظ أنه يعني  
كفاية ذلك في ابتداء العمل •

ثم كلّفه أن ينشر ديوان الحماسة فنشره ، ثم كلّفه أن ينشره مرة أخرى ليُسلم  
بعبائه ولتحسن صياغته •

« الوشي المرقوم لابن الاثير ( ضياء الدين ) ص ٩ ،  
وثمرات الاوراق لابن حجة ص ٥٣ »

كان نشر الشعر وسيلة المران على الصياغة القوية الجميلة وعلى فهم المعاني  
وتشقيقها • وكانت الثقافة الادبية القوية عمدة الكاتب ولكنها لم تكن كل  
عُدته كما ذكرنا •

وكان الكتّاب المشهورون في هذه الحقبة قلّة بالنسبة الى العدد الهائل من الشعراء وذلك لأنّ مناصب الديوان كانت قليلة في عاصمتي مصر والشام ولم يكن يتاح للكتاب ما يتاح للشاعر من اذاعة أدبه على الناس خاصتهم وعامتهم اذا لم يكن موظفاً رسمياً في الديوان . فأمام الشاعر مناسبات كثيرة خاصة وعامة يلقي فيها شعره .

ويلاحظ ان جميع كتّاب الدواوين كانوا تلاميذ ابن العميد الذي كان يعنى بالسجع وبالجناس وسائر أنواع الصناعة البديعية والبيانية وكانوا يرون مثلهم الاعلى طريقة الحريري . وقد أكّده القاضي الفاضل هذه الطريقة وبالحق فيها وأكثر حتى سميت بالطريقة الفاضلية . وبديهي أن يتفاوت كتّاب هذا العصر فيما بينهم سواء في قوة الاسلوب أم في غزارة الانتاج ، ولقد كان انتاج بعضهم كالقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني كبيراً جداً . ولكن انتاج الادباء لم يصل اليها كما وصل انتاج الشعراء . فلم يصل اليها الا عدد قليل من رسائل القاضي الفاضل والحصكفي وابن عبد الظاهر وابن سناء الملك .

وكان العماد الكاتب أوفر حظاً من القاضي الفاضل في بقاء كثير من رسائله الى اليوم بفضل مؤلفاته التاريخية والادبية .

وكان ديوان القاهرة يأتي في المرتبة الاولى ، لأنها العاصمة ، وديوان دمشق يأتي في المرتبة الثانية ، لأنها مركز نيابة السلطان وحصن الدفاع الاول ضد المغيرين .

### النشر الديواني :

كانت الحروب الصليبية والتتارية وسائر الاحداث الكبرى التي ألت بالأمة من كوارث وزلازل ومجاعات وانتصارات وأفراح مدعاة لازدهار هذا النوع من الكتابة . وربما بلغ الكاتب منزلة الوزير وربما ارتفع عنها الى منزلة نائب السلطان .

ويشمل هذا النشر أنواعاً كثيرة منها :

## أ - العهود والتقاليد والتوافيع والمناسير :

وقد ذكر القلقشندي أن التقليد زمن الأيوبيين كان على ثلاث مراتب :

المرتبة الاولى - ان يفنح كتاب التعيين ( الولاية ) بخطبة تبدأ بحمد الله تعالى ثم تأتي البعدية ثم ما سنح من حال الولاية والمولّى ويوصى المولّى بما يلق بولايته ثم يقال وسبيل كل واقف من النواب العمل به \*

والثانية - تختلف عن الاولى فقط بأنها تبدأ بقله : أما بعد حمد الله وباقي الاقسام تجري كالاولى \*

الثالثة - تفتح فيها الولاية بلفظ رسم ثم تأتي سائر الاقسام كما في الاولى والثانية ما عدا النصائح فانها لا نرد ...

أما زمن الممالك فقد كان التقليد بولايه أو سلطنة أو وزاره أو قضاء ، له طرّة ومتمن ، كما يذكر القلقشندي \*

ويقصد بالطرّة تلخيص الموضوع المكتوب فيه في مطلع التقليد ، وهذا ما قاله القلقشندي في صورة الطرة :

« أن يكتب : تقليد شريف بأن يفوض الى المفرّ الكريم أو الجناح العالي الكريم أو الى الجناح العالي الإميري الكبير ، الكفيلي الفلاني أعز الله تعالى أنصاره أو نصرته أو ضاعف الله نعمته ، نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أو بحلب المحروسة أو بطرابلس المحروسة أو نحوها على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ما شرح فيه » \*

ويدلّ ذلك على أن الصورة العامة لكتابه التقليد واحدة وان اختلفت من حيث العبارات والالفاظ \* وكل تقليد يفتح بالحمد لله ثم بأما بعد ثم يذكر حال الولاية وحال المولّى ، وانه بعد التفكير كان أحقّ من يتولى هذا الأمر \* ثم يقال رسم الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني ( ويدعى له ) ان بقلد كذا ، أو أن يفوض اليه كذا ثم يوصي بما يناسب تلك الولاية للمولّى ثم يقال وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه \*

ولكبار الكتاب أساليب وتفتن كثير في ذلك ، والنهاية في التقاليد ليست واحدة وهي تتعدد تبعاً لاختلاف الكتاب ولتعدد من يوجهه اليه الخطاب .

ويتباين الكتاب ويتفاوتون في صلب الموضوع تبعاً لنباين القدرة على تخيير اللفظ وتباين مدى العناية بتكلف المحسنات والزخارف . وكان من أثر الحروب الصليبية أن العهود أصبحت تتضمن التوصية بالجهاد . وقد جاء في العهد الذي كتبه الخليفة الفاطمي الفائز لوزيره طلائع بن رزيك :

فيما يتعلق بالجند « أشياع الدين وأعضاء دولة أمير المؤمنين ... والقائمون بمدافعة الأعداء عن حوزة الدولة العلوية والمدّخرون لكفاح المبائين للمملكة الفاطمية ... والمُعَدّثون للذبّ عن بيضة المسلمين ، المصطلون نيران الحرب والكفاح في المواقف التي تهتزّ فيها السيوف وتضطرب كُثُوبُ الرماح » .

« حسن المحاضرة ٢ : ١٢٣ » .

وجاء في التقليد الذي أرسل به الخليفة العباسي المستضيء الى صلاح الدين بتوليته مصر والشام :

« وقد علمت ان العدو وهو جارك الأدنى والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولا تكون للإسلام نعيم الجار ، حتى تكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك ، اذا قامت لغيرك الأعذار . وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً أو تطرق أرضه مُماسياً ، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده ، قصد المسنبر<sup>(١)</sup> لا قصد المغير<sup>(٢)</sup> وأن تحكم فيه بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير . وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلد الاسلام القديم ، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم ، والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته ... ومع هذا لا بد له من أسطول يُكثّر عدده ويُقوّي مدده ... » ( حسن المحاضرة ٢ ، ٢٣ ) .

(١) من الفجرة .

(٢) من الفارة .

وجاء في العهد الذي كتبه بييرس لابنه بولاية العهد ، وهو بقلم ابن لقمان  
سنة ٦٦٧ هـ :

« ومن شيمته الاقتداء في بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سنتنا مما  
يُضفيه على الأولياء من ملابس الفضل ، واقتفاء آثارنا في غزو بلاد الكفار ،  
والمجاهد التي تطول بها أيدي الكمأة بالسيوف القصار ... »

« حسن المحاضرة ، ٢ ، ٣١ ، والسلوك ١ : ٩٧١ »

فهذه العهود تهتم بالجهد اهتماماً كبيراً وتبين أن "هم" عظماء تلك العهود  
الاول كان طرد الغاصبين وأنهم كانوا مدركين حقيقة الخطر الذي تتعرض له  
بلادهم . وكانت هذه الأنواع من الكتب تنتشر بين أيدي الناس لما فيها من صلة  
بين الحاكم والمحكوم وقد بين الشهاب محمود في كتابه « حسن التوسل ص  
١١٠ » ما يجب أن يكون عليه انشاؤها : « الاحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر  
كثرته وقلته بحسب الرتب » ويجب أن يتوافر فيها براعة الاستهلال ومراعاة  
المناسبة وما تقتضيه الحال واختيار الكلام والمعاني ، فانه مما يشيع ويذيع ،  
ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت .

يفهم مما تقدم أن المقصود بالتقليد هو ما نعينه نحن اليوم بالمرسوم أو  
القرار الذي يكلف فيه موظف بعمل كالوزارة أو القضاء أو الولاية على اقليم  
أو قيادة جيش ...

وكان التقليد يقسم الى أربعة أقسام متقاربة الطول يخصص الربع الاول  
لخطبة التقليد وفيها يحمد الله على إنعامه ، ويخصص الربع الثاني لمكانة الرتبة  
المقلدة وذكر نوعها وتفضيم أمرها ، ويخصص الربع الثالث لوصاف المقلد وذكر  
ما يمتاز به من صفات تناسب الرتبة التي يتقلدها ونوعها ، كالعدل والمهابة للقاضي ،  
والشجاعة وحسن تدبير الجيوش للقائد ، والعدل وحسن الرأي والتدبير والمعرفة  
بعبارة البلاد واصلاح الفساد للوزير ، وهكذا . ويخصص الربع الباقي للوصايا  
التي يوصى بها المقلد . ( حسن التوسل للشهاب محمود ص ١٠١ ) .

وكانت كتب التقاليد تعمّم بالصيغة نفسها على البلاد كلّها في نسخ كثيرة .  
وهذه الكتب تصور نواحي الحياة العامة في عصرها وهي لون من الادب  
وثيق الصلة بالحياة السياسية قليل الحظ من العاطفة لطابعه الرسمي العام ، ولكن  
فيه الصور المثالية التي يجب أن يكون عليها الموظفون الكبار في ذلك العهد بما  
يقدم فيها اليهم من نصائح ، وبما يخلع عليهم فيها من صفات ، بغضّ النظر عن  
السلوك الذي يسلكونه بعد أن يتولوا مهامّ أمورهم . وإليك جزءاً من التقليد  
الذي كتبه الخليفة العباسي في القاهرة للملك الظاهر بيبرس وعظم فيه من شأنه  
لأنّه هو الذي جعله يتولّى الخلافة : « ... وبعدُ فإن أولى الاولياء بتقديم  
ذكره ، وأحقّهم أن يصبح القلم ساجداً وراكعاً في تسطير مَناقبه وبرّه ، من  
سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدّماً ، ودعا الى طاعته فأجاب من كان متجنّداً  
ومتّهماً ، وما بدت يد من المكرمات الا كان لها زَنداً ومعصماً ، ولا استباح  
بسيفه حرمي وغى إلاّ أضرمه ناراً ، وأجراه دماً .... وقد أقام الدولة العباسية  
بعد أنْ أفعدها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان » .

« صبح الاعشى ٩ ، ١١١ »

ومن مرسوم بتولية أحد القواد ثغر عسقلان :

« ... وكانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى ، ثغر الإسلام الذي لا ثغر  
له في الشام سواه ، والرباط الذي من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه  
وحواه . وهو في عيون الكفار - خذلهم الله - نكتة . وأسباب طمعهم فيه منقطعة  
بمحاماته منبئة ، ونحن نوفّر اهتمامنا عليه رعايةً لمكانه المكين ، ونتنضي الكفافة  
لِتتولّى توصلنا الى النكاية في المشركين ، وهو معقل للمسلمين المجاهدين وردّ ،  
ومجاوروه قوم لدّ ، وأمرهم أمرٌ إدّ ، فيجب ان يترتاد لضبطه التّدب الذي  
لا تهتبل غرّته ، ويُسّام لحفظه العَضْب الذي لا تتقى ضربته ، ويختار  
لصونه الشهم الذي تقف على المصالح همّته ، وتنقذ فيها عزمته ، فتقلد  
هذه الخدمة عارفاً قدرَ ما حوّلت منها وعاملاً بتقوى الله وخيفته في جميع  
ما تأمر به وتنهى . »

وهذا الثغر لمحلّه وسموّ مقدارّه ، وقرب العدو منه ودنوّ داره لا يتنفع له بمركزيته ، ولا يكتفى في حقّه بمرابطيته وقراريّته ، فنحن نسيّر اليه العساكر المظفّرة دفعتين في كل سنة على حكم البدل ، فيردّه عسكر جديد مزاح العلة ، كتيف العدة وافرّ العدة ، يؤثّر أن يظهر أثره ويحافظ على ما يطيب به ذكره وخبره ، فبثّ السرايا وشنّ الغارات وضيق على العدو فسيح النواحي والجهات وجهّز اليه من يخيفه في مآمنه ، وابعث عليه من يطرقة في أحرز أماكنه ، واندب من يطالعك بخفي أخباره ويظهر لك باطن أموره ومستور أسرارّه ، لتتنهز فيه الفرصة اذا لاحت مخايلها ، وتبادر الغفلة منه اذا ظهرت دلائلها ، واجعل للمتطوعين من الكنائين نصيباً من ثواب الجهاد ، واحملهم على استنراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد ، وافعل في هذا الباب ما تتضاعف به موادّ الأجر ، وتتنسخ به الأوزار كما يتنسخ الظلام بضياء الفجر » .

« صبح الأعشى ج ١١ : ٦٣ - ٦٥ »

ويتبين من هذا المرسوم عظم الاهتمام بالدفاع عن الثغور والمحافظة على الحدود والعناية باختيار الأكفاء لذلك ، كما يتبين منه مشاركة القبائل العربية في المعارك حول عسقلان .

ومن تقليد حربي كتبه الشهاب محمود على لسان الظاهر بيبرس الى ابنه محمود سلامش بمملكة الروم ردّاً على كتابه الذي أرسله قبل حضوره :

« وليعلم أن جيوشنا في المسير اليه ، متى قصد عدواً ، سابت خيولنا خيالها ، وجارت جيادنا ظلالها ، وأبت سنايكها أن تجعل غير سنايك الاعداء نعالها ، وها هي قد تقدّمت وأقدمت ، ونهضت لإنجاده فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت » .

« حسن التوسّل ص ١١٤ »

يتضح من هذا التقليد اهتمام الظاهر بيبرس بسرعة نجدة قواده واعتماده على حسن نظامها وطاعتها .



**والتوقيع** هو ما يعلق به الخليفة أو السلطان أو أحد المؤمنين الكبار على ما يرفع اليه من كتب وطلبات .

ولم نحمل كتب الادب بايراد توقعات العهد الفاطمي ، وما وصل اليها منها قليل ، منه توقيع للخليفة الفاطمي لدين الله ( خطط المفريزي ٢ ، ٢٣٨ ) على كتب برواتب المستخدمين .

« أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثر الإعطاء ، ولا بكدره بالتأخير له والتسويق والإبطاء ، ولما انتهى اليه ما أرباب الرواتب عليه تملكهم برحمته ورأفته ، وأمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده . تأكيداً للإعانة والمن ، وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن ، فليعتمد في ديوان الجيوش المنصورة إجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وإيجاباً على سياقها لكافتهم ، من غير تأوُّل ، ولا تعنت ، ولا استدراك ولا تعقب ، وليجروا في نسياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مبرماً ولا ينسخ من رسمهم ما كان مُحْكَمًا ، كرمًا من أمير المؤمنين وفعلاً مبروراً وعملاً بما أخبر به عز وجل في قوله تعالى :

« إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » ولينسخ في جميع الدواوين بالحضرة إن شاء الله تعالى » .

يتبين من هذا التوقيع حرص الخليفة الفاطمي على وصول الرواتب الى موظفيه ومحافظة على مقاديرها ، فهو يعدهم وعداً ضمناً بأنها سنبقى كما كانت من قبل .

#### ومن توقعات العهد الزكي :

كتب أحدهم في حلب الى نور الدين بأن تاجراً موسراً قد توفي عن ولد عمره عشر سنين وعن عشرين ألف دينار ، وهو يشير عليه بأن يصادر المال لخزانة الدولة ريثما يكبر الصغير فينق معه على شيء ، ويحفظ بالباقي للدولة ، فوقع نور الدين :

« أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فشمّره الله ،  
وأما الساعي فلعنه الله » \* « الروضتين ١ : ١٣ »

#### ومن توقيعات المهد الأيوبي :

كتب أمير من أمراء الجيوش الى صلاح الدين ، وكانت الرسل تتواتر بينه  
وبين الأعداء بالصلح ، أن يأذن له بالعودة مع جنده الى بلاده ، فوقّع صلاح  
الدين :

« من ضيّع مثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ؟ » \*

« النوادر السلطانية : ١٣١ »

وكتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين يستأذنه في الحج ، فوقّع  
صلاح الدين :

« على خيرة الله تعالى ، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً كبيراً » \*

« الروضتين ٢ : ٧ »

يتبين من هذه التوقيعات أن موقعها قد حافظوا على صفتي التوقيعات  
الرئيسيتين في العهود السابقة وهما : الإيجاز الشديد والوضوح \*  
وأطولها ، كما رأينا ، التوقيع الفاطمي \*

#### ب - الرسائل :

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين يهنئه بالنصر في حطين ، وكان غائباً  
بدمشق حين المعركة :

« ليهنّ المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وانه كما قيل : أصبحت  
مولاي ومولى كل مسلم ، وانه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنة والظاهرة ،  
وأورثه الملكين : ملك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ،  
والرؤوس الى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من  
خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان »

الذي كان يُقال فيه : إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ ، يقال اليومَ فيه : إِنَّهُ الْوَاحِدُ ، جَدَّدَ اللَّهُ شُكْرًا تَارَةً يَفِيضُ مِنْ لِسَانِهِ ، وَتَارَةً يَفِيضُ مِنْ جَفْنِهِ .... تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانُ مِنْ لَبَنٍ ، وَذَلِكَ الْفَتْحُ لَا عُثْمَانُ وَالْبَسْمُ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ لَا سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ .... » .

« الروضتين ج ٢ ، ص ٨٢ »

يعبر القاضي الفاضل في هذه الرسالة عن فرحه بالنصر ، وعن عاطفته الدينية وسروره بأن شعائر الدين الاسلامي قد عادت الى المسجد الاقصى وسائر مرابع القدس وأزالت شعائر المعتصيين ، ويبيِّن فضل صلاح الدين بهذا النصر في خدمة الإسلام والمسلمين وإنعام الله عليه وعليهم .

وهو يستعمل السجع والجناس والطباق ولكنها لا تغطي على المعنى والعاطفة ووضوح الأسلوب وقوّته ، ويضمّن كتابه شطراً من الشعر : تلك المكارم لا قعبان من لبن ، ويشير الى بعض معتقدات الصليبيين .

ولم تكن رسائل القاضي الفاضل كلها في درجة الرسالة السابقة من تكلف فنون البلاغة فمنها رسائل أقلّ حظاً من التكلف وأقرب الى الأسلوب الطبيعي ، ومنها الرسائل التي أرسلها الى صلاح الدين في أوقات المحنة وضيقه النفسي بالمعضلات ، وكان القاضي يبرز في إرسالها اليه ليُسّرّي عنه ما به من الهمّ تمليها عليه الضرورة لا التآق والمتعة . أرسل اليه رسالة حين حاصر العدو عكا وطلب المقاتلون المسلمون منه دستوراً أي اجازة موقتة من القتال ليستريحوا ولم يكن عنده مال ، على حين كانت الأمداد تتوالى للصليبيين فأتّر فيه الحزن وكاد يذهب بصبره وحلمه وقواه .

« الروضتين ٢ : ١٠٢ »

وأرسل اليه رسالة أخرى حين نزلت به هزيمة كبيرة وهو يحاول فك الحصار عن عكا ، واشتدّ المرض والوباء والجوع بالمسلمين المحاصرين وأجهزت سيوف الاعداء على بقية المقاتلة منهم ، فضجّ السلطان من الحزن والألم وصاح من فوره وهو في مخيمه :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فجعل القاضي الفاضل برسائله اليه تفعل فعل السحر فردّه الى الطمأنينة  
التي به ، وقد رأينا أن نختار تنقاً من احدى هذه الرسائل لنتبين منها مدى ما يفعله  
القاضي في نصره السبب وتباته ونفهم منها ما رمى اليه صلاح الدين حين قال ما  
« هذا إنّه نُصر بقلم القاضي الفاضل أكثر ما نُصر بسيف المقاتلين :

« يا مولانا ، ألبس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهّل ،  
ولم يستصلح ، ولم سهّل ، ولم يسهّل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه واعلاء  
كلمته ، وتبديد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه إلا أنت ؟ »

« هذا وفي الأرض من هو للتبوء قرابة ، ومن له المملكة وراثة ، ومن له  
الملك ، ومن له العدد ثروة : فأقدمهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وفبضهم  
بسلطتك ، وجبب الدينار إليهم وبغضه إليك ... نعم وأخرى أهم من الاولى :  
آله الملك اجنعت كلمة الكفر من أقطار الارض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ...  
كذب يا مولانا كما قيل أبقاك الله :

واستأ بكلك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم  
عذا ولبس لك من المسلمين مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا  
بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة ...

والمشورات تنوع بمجلسك : فقائل ليم لا تتباعد عن المنازلة ؟ وآخر  
ليم لا نميل الى المصالحة ... فألهمك الله قتال الكافر وخلاف المخذل ،  
والله لئلا وتحت قدمك الجمر ، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر :

ولكن مولانا صحيفة وجهه  
كضوء شهاب القابض المتنوير  
قليل التشكي للشهم يصيبه  
كثير الهوى شتى النوى والمسالك  
« فالشدة نذهب ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفج ويبقى أجرها ، وكما

لم يَحْدِبِ استِمرارُ النِّعمِ لمولانا ، عزَّ نصره ، بَطْراً ، فلا تَحْدِثْ له ساعاتُ  
الامتحانِ صَجَراً ، والمسلوكُ سَحْسَنَ بَتي حاتم ، ومولانا ، أبقاه الله وخلد  
سلطانَه ومملكه ، يحفظهما :

شربنا كَأْسَ الْفَقْرِ يوماً وبالغنى  
وما منهما الا سَقانا به الدهرُ  
فما زادنا بغيّاً على ذي قرابه  
غِنانا ولا أَرى بأحسابنا الْفَقْرُ »

« الروضتين ٢ حوالي ص ١٠٢ »

إننا نتساءل حفاً ماذا كانت حال صلاح الدين في هذه الفترة العصية لولا  
الفاضي الفاضل الذي قوَّى إيمانه بالنصر ، وبقينه بأن العاقبة للمتقين ، وردَّ  
إليه نفسه التي كادت تهيم في بداء الخيبة واليأس ، وكان الى جانبه بالروح ،  
وإن كان بعداً عنه في المكان ، فلم يكن يقطع عنه رسائله ، ولم يكن ينقطع عن  
أخباره •

ولقد نسي القاضي في غمره العاطفة والحساسة كلَّ صناعته البلاغية وانصرف  
الى أداء المعاني والمشاعر •

ومن رسالة أرسلها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الى صاحب بهاء  
الدين بن حنا وصف فتح الملك الظاهر لقيساريّة من بلاد الروم وأخذها من  
التتار :

« ولا بقنْدَسَحْ من غير سَنابك الخيل نار » ، ولا نمُرَّ على مدينة إلا مرورَ  
الرياح على الخُمائل في الأمائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزَيَّدُ الزائر  
من الأُهْبَةِ أو يتزوَّدُ الطائرُ من الثَّغْبَةِ ، نسبق وفدَ الريح من حيث تنتحي ،  
ونكاد مواطئ خيلنا بما نسجبه أذيالُ الصوافن تمتحي ، تحل هممنا الخيلُ  
العناق ، وبكبو البرق خلِّقنا اذا حاول بنا اللحاق ، وكل يقول لسلطاننا  
نصره الله :

أين أزمعت أبشدا الهام

نحن نبت الربا وأنت الغمام

ومرّ يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهة الا عمه ، ولا جبل الا طاقه ، تسير السواري والغواذي ، ولا بنفك الغبث من انساب في كل نادٍ ووادٍ . . . »

« صبح الاعشى ١٤ : ١٤٠ »

لا يترك الكاتب السجع في هذه الرسالة ولا تفارقه صناعته البيانية والبديعية ولكنّه يضيف الى ذلك القدرة على الوصفين المادي والمعنوي فهو يصف الخيل وسرعة الرحيل ، وهطول المطر كما يصف التلف الى لقاء الاعداء ومتابعتهم .

رسالتان متبادلتان بين تيمور وبرقوق تمثلان الكتابة الديوانية

في العهد المملوكي الثاني

كتب تيمور لك الى الملك الظاهر برقوق يتهدده وكان هذا يتعدّد العدّة للقاءه ، بعد أن اصطدم جيش حلب المملوكي مع طلائع تيمور وهزمها وقتل منها خلقاً كثيراً :

« قلّ اللهم مالك الملك ، فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلّموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من شاء ، فنبه عليه ، لا نرقّ لشاكٍ ولا نرحم عبّرة بالك ، قد نزع الله الرحمة من حوبنا ، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا ! قد خرّبتنا البلاد وأيتمتنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزّتها ، وملكتنا بالشوكة أزمّتها ، فإنّ خيّل ذلك على السامع وأشكل ، وقال : إنّ فيه عليه مشكلاً ، فقلّ : ( إنّ الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ) ، وذلك لكثرة عددنا ، وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق ، وأسنتها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملكتنا

لا يرام ، وجارنا لا يثضام ، وعزنا أبدا لسؤدد منقام ، فمن سالمنا سليم ، ومن حاربنا نديم ، ومن تكلمنا فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم إن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيركم تماديتم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فالحصون منا مع تشييدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا فلا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام ، وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددتهم لكم النار وبئس المصير : ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ) فيما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك ، وقد قتلتم العلماء ، وعصيتهم رب الأرض والسماء ، وأرقت دم الأشراف ، وهذا والله هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادى عليكم : ( فالיום تجزؤون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ) فأبشروا بالمدكة والهوان ، يا أهل البغي والعُدوان ، وقد غلب عندكم أثنا كفر ، وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة ، وأحكام محررة ، فعزركم عندنا ذليل ، وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكننا الأرض شرقا وغربا ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف العطاء ، وتضرر الحرب نارها ، وتضع أوزارها ، وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق : هل ترى لهم من باقية ، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزا ، ( هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ) وقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، فلا تقتلوا المرسلين ، كما فعلتم بالاولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين ، وتعضوا رب العالمين ، ( فما على الرسول إلا البلاغ المبين ) ، وقد أوضحنا لكم الكلام ، فأرسلوا برد الجواب والسلام .

« عن النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٤٩ »

## ١ - يتلخص مضمون هذه الرسالة بما يلي :

- ١ - البدء ببداية دينية وباستخدام بعض الآيات الكريمة : « عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » .
  - ٢ - استخدام نظرية الحكم الإلهي في الغلبة والتسلط : « هم جند الله ، مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حلّ غضبه عليه » .
  - ٣ - التهديد بالغلظة وعدم الرحمة وذكر ما فعلوه قبل من تخريب وتيتيم وفساد واذلال ، وقوة وكثرة عدد ( والاستشهاد بآية : إن الملوك اذا ... ) والإفاضة بوصف قوة الجيش وكثرته وحسن عدته وبتعوده النصر المؤكد .
  - ٤ - الدعوة الى الطاعة فلا يمنع منهم حصن ولا سور .
  - ٥ - ان دعاء المخاطبين لا يسع لبغهم وظلمهم وقتلهم الأشراف والعلاء ، واستحقاقهم العذاب بالنار وإيراد آية ( فاليوم تجزّوْن عذاب ... ) .
  - ٦ - اتهامهم فريقَ المرسل بالكفر وهو يتهمهم بأنهم هم الكفرة ولذلك يستجيز قتلهم .
  - ٧ - طلب الإسراع في الردّ قبل أن يحلّ بهم الويل فيصبحوا كأن لم يكونوا ( هل تحسّس منهم من أحد ... الآية ) .
  - ٨ - ينذرهم بالألّا يقتلوا المرسلين حاملي إنذاره ( فما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ) .
  - ٩ - بختتم الكتاب بتكرار طلب ردّ الجواب .
- بعت نبور لك بهذه الرسالة الى السلطان برقوق في غمار انتصاراته في الشرق العربي وبعد أن رُدّت طلائعه في حلب ، إرهاباً لاعدائه وتحطيماً لاعصابهم ومعنوياتهم لنوب مناب جيش من الرعب في حربهم .
- وود رتت معانها ترتيباً منطقيّاً لتؤدي الغاية التي كتبت من أجلها بحيث تفتح ناطق قلوب الضعفاء لما فيها من تهديد صارم لم يستعمل معه اللين مطلقاً وهي مخاطبة الاعداء مخاطبة الأعلى للأدنى .



ب - وينسعر القارىء أن كاتبها سدد السخط على من يخاطبهم كثير البغض لهم والحقن عليهم فآذد صفة الرحمة في حربهم وأنه يستمر الشعور الديني المعادي ضدّهم فهو يهيم بهم بأنهم قتلوا العلماء والأشراف مريداً بهم آل بيت النبي ومتميراً مناصر الشيعة ضد السنة في تحقيق مآربه التوسعية .

ولس المخاطبون هم الذين قتلوا من يعيهم من العلماء والأشراف ولكنه يُحسّل الأبناء نبعه ما فعله الآباء والأجداد ليُحكّم سيده في رقابهم .

ج - لم يعسد الكاتب على الصور البائنة في أداء أفكاره ولكنه استخدم التصوير الواقعي لإرهاب الأعداء وذلك بعرض ما فعله فريسه فبن سبقتهم من المحاربين ضدّه .

د - استخدم الكاتب السجع وأكثر من اقتباس الآيات الكريسه وإيرادها شواهد لسجدها حجة على أعدائه ولكنه لم يشرط في استخدام الصنن البديعية الأخرى .

هـ - الأسلوب واضح متين متماسك خال من الأخطاء .

**كتب الملك الظاهر برفوق في الجواب على بيمورلنك بعد البسملة الشريفة :**

( قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من نشاء ، وتنزع الملك ممن نشاء ، وتُعزّز من شاء ، وتذلّ من شاء ) ، وحصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية . ونزعاتكم الشيطانية وكنابكم يحبرنا عن الحضرة الخانية ، وسيرة الكفره الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سُخْطِ الله ومسلطون على من حلّ عليه غضب الله ، وأنكم لا ترفشون لساك ، ولا نرحسون عبدة بالك . وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذاك أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشباطين ، لا من سييم السلاطين ، ونكفكم هذه الشهادة الكافية ، وبنا وصفتم به أنفسكم ناهية ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما عبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دنسكم ولي دين ) . ففي كل كتاب لعتنتم وعلى لسان كل مرسل نعتنتم . وبكل فبجح وُصفتم ، وعندنا حبركم من حين خرجتم ، أنكم كفره ، ألا لعنة الله

على الكافرين ، مَنْ تَمَسَّكَ بِالْأَصُولِ ، فَلَا يَبَالِي بِالْفُرُوعِ ، نحن المؤمنون حقاً ، لا يدخل علينا عيبٌ ، ولا يضرُّنا ريبٌ ، القرآنُ علينا نزلٌ ، وهو سبحانه رحيمٌ لم يزل ، فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنارُ لكم خُلِقَتْ ، ولجلودكم أُضْرمَتْ ، ( إذا السماء انفطرت ) ، ومن أعجب العجَب تهديدُ الرِّشَوتِ بالتوتِ والسباعِ بالضباعِ والكُفَّةِ بالكراعِ ، نحن خيولنا برقية ، وسهامنا عريية ، وسيوفنا يمانية ، ولبوسنا مصرية ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعيم البضاعة ، وإن قتل منا أحد فيبينه وبين الجنة ساعة ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلقتهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ) \*

وأما قولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالقصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب ينفيه الضرم ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ) \* الفارث الفارث من الزوايا ، وطول البلايا ، واعلموا أن هجوم المنيَّة عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء ، ألا إن حزب الله هم الغالبون ، أبعد أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، تطلبون منا طاعة ، لا سمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، ففي نظمه تركيك ، وفي سلكه تلبيك ، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان ، أكفرتم بعد إيمان ، أم اتخذتم إلهاً ثانياً ، وطلبتم من معلوم رأيكم ، أن تتبع دينكم ( لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ ) ، قتل لكاتبك الذي وضع رسالته ، ووصف مقاتلته ، وصل كتابك كضرب رباب ، أو كطين ذباب ، ( كلا سنكتب ما يقول وننشد له من العذاب مدداً ، ونرثه ما يقول ) إن شاء الله تعالى \* لقد لبكتهم ، في الذي أرسلتم ، والسلام » انتهى \*

« عن النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٥١ »

## ١ - يتلخص جواب الظاهر برقوق بالأفكار التالية :

١ - البدء بآية تجعل نصر كل جيش أو هزيمته بيد الله ( قل اللهم مالك الملك ... ) وهذه البداية الدينية تقابل بداية خصمه وتوافق أسلوب ذلك العصر .

٢ - يعدّد ما يفخر به خصمه من القسوة والغلظة عيباً من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، ويتخذ منه شاهداً على كفر الخصم ، ويؤيد ذلك بسورة قصيرة قرآنية يبيّن فيها أن نهجه غير نهج الخصم ، ( قل يا أيّها الكافرون ... ) .

٣ - يبيّن تشبّهه لتحركهم واعتقاده بكفرهم ويصرّح بأن فريقه هو المؤمن حقاً وأن النار خلقت لخصمه .

٤ - يفخر بما لديه من عدّة ومن تجربة وكفاءة في الحرب ومن انتظار الشهادة أو النصر مستشهداً بالآية الكريمة ( ولا تحسبن الذين ... ) .

٥ - يسخر باعتدادهم بعددهم وعددهم ويرى أن النصر حليف المؤمنين الصابرين ويستشهد بالآية ( كم من فئة قليلة ... ) ويفخر بأنه يطلب مع جنده فرحة النصر أو سعادة الشهادة ويُلَمِّح إلى أن حزبه حزب الله .

٦ - يصرّح بالأطاعة لهم بعد أن قتلوا الخليفة العباسي أمير المؤمنين وبدا بذلك أنّهم وإن ادّعوا الاسلام فهم أحفاد أولئك المغول المشركين الذين قتلوا الخليفة وكأنه بذلك يحمّل الابناء تبعة أعمال الآباء كما فعل خصمه ، ويفيد من ذلك أن حربهم واجبة لأنهم في نظره مجرمون كأجدادهم .

٧ - يعيبهم بسوء البيان في الكتابة ويؤزري بطلبهم منه الطاعة ويستعظم جرمهم في ذلك مستخدماً الآية : ( لقد جئتم شيئاً إدّاً ... ) .

٨ - يسخر مرة ثانية بالمرسل وكاتبه ويعدّد كتابته طنين ذباب ويهدّد ويوعد ويتنظر لعدوه الخيبة .

وقد رتب الكتاب ترتيباً منطقياً يؤدي فكرته العامة أداء جيداً وهي تتلخص بأنّ وعيد خصه لم يؤثر فيه •

ب — يستشعر قارئ الكتاب بأن المرسل رابط الجأش قوي الأعصاب ، نأقّم على خصه يهدد ويتوعد ويستخدم العاطفة الدينية مثله ؛ ولكنّ أثر المدنية أوضح في عباراته ومفاسده لأثّه لا يرمي نفسه بالغلظة مثله ولكنه يصنف نفسه بالثبات وأنه على حق في الدفاع ويزيد على خصه بالتعبير عن عاطفة السخرية أكثر من مرة •

ج — الكاتب لا يستخدم التصوير الواقعي نتيجة لعدم وصف نفسه بالغلظة كخصه ولكنه يستخدم الصور البيانية في غير مبالغة ، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت ، والسباع بالضباع والكمأة بالكراع ( فالفصّاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكبير الحطب يعنيه الضرم ، كضرب رباب ، أو كطين ذباب •

ويلاحظ أن هذه التشابيه موفقة جيدة واقعة مواقعها بالإضافة الى أن الكاتب قد استخدم الآيات أحياناً في تشبيهات تمثيلية : ( كم من فئة قليلة ، لقد جئتم تبيئاً إدّاً ، كلا سنكتب ما يقول ... ) •

د — أكثر الكاتب من اقتباس الآيات القرآنية وكان أحسن استخداماً لها من خصه ، واستخدم من الفنون البيانية السجع والطباق بالإضافة الى الاقتباس • ولكنه لم يفسد أسلوبه بالمبالغة فيها •

هـ — أسلوبه واضح ولكنه أكثر صنعة وتلويناً من أسلوب خصه • وهو صحيح الأداء ، فصيح الالفاظ •

## النثر الذاتي والوجداني

كان النثر الدبواني هو الذي يحتل الصدارة والى جانبه كان بعض النثر الذاتي الذي يعبر عن مساعر أصحابه من الكتّاب •

وقد اشترط له ابن الاثير شروطاً ( المثل السائر ج ١ ، ص ٨٦ ) • منها ما جاء في قوله : « فأما الكتب الإخوانية والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وفوعه ، لاحتسالى أن يقع ، أو فيما تمتحن به قوه القريحه ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن ، ويعلم به استعداد الفكر ، فان الكاتب في ذلك مطلق العنان ، محلى يسه وبين قوته فيه أو ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه » •

وفد حاول الكتاب أن يعبروا بحرية عن خلجات نفوسهم ولكنهم لم يستطيعوا التخلص من الاسلوب المتكلف الذي ألفوه في النثر الديواني •

كتب السهاب محمود في رياضة الخاطر كتاباً الى إنسان تخيله يتضمن مخاطبته بتزويج أمه ، وكتاباً الى من هزم مع جيتسه يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده وحسه على الاخذ بتأره ، وكتاباً في ذم المهزوم وتقريعه ، وكتاباً على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ووصف الاحتفال بأخذ التار ، ومما قاله فيه :

« الى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا من العدو بما يسره ، وبلغه عنا من الانصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما نحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلغها ، وان سرار القمر لا يضره » •

« حسن التوسل ص ١١٦ »

وبدور موضوع الرسائل الإخوانية حول الصداقة والصلة بين الاخوان والاقرباء والاصدقاء وتتخللها مشاعر العتاب والاعتذار والحب ، ويحاول الكاتب فيها الاعراب عما في نفسه وازالة جفوة صديقه •

وقد أكرر كتاب هذه الحفبة من الرسائل الإخوانية ، وفيها عاطفة صادقة ، وشعور اساني سام على الرغم مما فيها من تكلف أسلوبى كان يحجبها بعض الحجب •

وبين من موضوعاتها أنها موضوعات السعر الغنائى نفسها ولذلك نراها تكثر الاقتباس منه لتوافقها فيها •

وهذا مثال منها مشفوع بالاعتباس من الشعر :  
كتب القاضي الفاضل الى أحد اخوانه يعبر عن شوقه ويعاتب ( نهاية الأرب ،  
ج ٨ ، ص ٢٢ ) :

أكذا كل غائب غاب عمّن يحبّه  
غاب عنه بشخصه وسبلا عنه قلبه

لو أنّ لي يداً تكتب ، أو لساناً يسهب ، أو خاطراً يستهلّ ، أو فؤاداً  
يستدلّ ، لو صفت اليه شوقاً ان استمسك بالجنون نثر عقدها ، أو نزل  
بالجوانح أشعر وقدها ، أو تنفس مشتاق أعان على نفسه ، وظنه استعاره من  
قبسه ، أو ذكر محب حبيباً خاله خطر في خلده ، وتفادى من أن يخطر به ذكر  
جلكه .

حتى كأن حبيباً قبل فرقة  
لا عن أحبته ينأى ولا بلده  
بالله لا ترحموا قلبي وان بلغت  
به الهموم فهذا ما جنى ييده

ولولا رجاؤه أنّ أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح وزيارة طيف  
يخلعها الصباح ، لاستطار فؤاده كمداً ، ولم يجد ليوم مسرته أمداً ولكنه يتعلل  
بميعاد لقياه ، ويدافع ما أعلته بلعته أو عساه .

غنى في يد الاحلام لا أستفيده  
ودين على الأيام لا أتقاضاه

ومن غرائب هذه الفرقة وعوارض هذه الشقة أنّ مولاي قد بخل بكتابه  
وهو الذي يثدوي به أخوه قليل اكتتابه ، ويستعدي به على طارق الهم إذا لجّ  
في اتتبابه .

كمِثل يعقوبَ ضلَّ يوسفَ

فاعتاض عنه بشمَّ أثوابه

وهبَّ أنَّ فلاناً عاقه عن الكتب عائق ، واختدع ناظره كمن هو في ناضر  
عيش رائق فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهر وُدّه عرضاً ، وجعل قلبي  
لسهام إعراضه غرضاً .

بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت

من المكاره أو للبرق ما ومضا

وما عهده أدام الله سعادته إلا وقد استراحت عواذله ؛ وعثري به أفراسُ  
الصَّبَا ورواحله . الا أن يكون قد عاد الى تلك اللشجج ومرض قلبه فما على  
المريض من حرج ، وأياً ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا  
أضيّعها ، ونفسي أسيرة غلّة لا أطيعها بل أطيعها .

واني لمشتاق اليك وعاتب

عليك ولكن عتبة لا أذيعها

والأخُ النِّظام ، أدام الله انتظام السعد ببقائه وأعداني على الوجد ببقائه ،  
مخصوص بالتحية إثر التحية ، ووالهني على تلك السجية السخية ، وردتُ  
منها البابليّ معتقاً ، وظلّمت من أسر الهموم ببقائها معتقاً .

خلائق إما ماءً مژن بشهده

أغادى بها ، أو ماءً كرم مصفّقاً

وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجراني ، ونسوا كل عهد غير عهد نسياني :

وما كنتم تعرفون الجفّا فبالله ممّن تعلمتم . »

يلاحظ أن أسلوب القاضي الفاضل في رسالته الاخوانية هذه هو أسلوبه  
نفسه في الرسائل السلطانية غير أنه هنا يتحدث عن عاطفته ولذلك كان كلامه

في سموره وعساعته قريبا من الشعر لا ينقصه عنه الا الوزن ، كثير التكلف للسجع  
وسائر فنون البدع . كثير الصور ، يورد الشعر حلال نثره مستشهداً به وكأنه  
من كلامه . وهو هنا يصف شوقه الشديد وجفوة صديقه بعد الصفاء وطول  
انقطاعه عنه دون سبب ، ويتفاءل برجوع الصلة كما كانت ويمدح أخلاق صاحبه  
ويتمدح هو ببقائه على عهده .

ويتسم كلامه بطابع المبالغة ولا سيما في أوله حين يصف شوقه الى صديقه .  
ونعتقد أن التكلف فيه قد أساء الى المعاني وقلل من وضوحها .

وكتب شرف الدين عيسى بن حجاج العالية الى الوزير الكاتب فخر الدين  
ابن مكافس ، أحد شعراء القرن الثامن وكتابه ، رسالة اخوانية يستوهمه فيها  
شاشاً :

« يقبل الارض التي شاق ترابها المواطىء الفخرية ، فزاد اعجاباً ، وقال  
المسك يا ليتني كتب تراباً ، ويُنهي أنه أقبل على المطالعة ، والباقي من العشر الى  
ليال خمس ، واستهدى بنجوم فوائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس ،  
واستدعى أعوانا من السهر ، فتخاذلت عنه أعوانه وخشي من غلبة النوم فتغلّب  
عليه سلطانه ، ولما أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة بلسانها وناولت طرف  
شاشه بين نيرانها ، فهبّ المملوك ، وأخمد منها ما تصاعد من الأتفاس وقابلها على  
حرق الشاش بقطع الرأس :

إنني جلست بشمعة موقودة  
لأطالع الأسفار للتسييح  
فتناولت شاشي أوائل نارها  
ونمكنت منه بمرّ الربح  
من قبل حرق الشاش كنت مطالعاً  
في الكتب صرت مطالعاً في الروح

وقد توسلت بهذه الرسالة المدوّنة في باب المنظوم والمنثور ، ومددت بد



سؤلي الى طلي شاشاً مقصوراً ، وأرجو أن بجمّع لي بين المدود والمقصود  
أبفاك الله للأولياء الذين يحبّون وجودك ويستمتعون كرمك وجودك » \*

« مطالع البدور ١ : ٨٦ »

يلاحظ هنا أن الرسالة تقوم مقام القصيدة في المادح والاستنحاح وأنها قد  
اتسمت بالسجع ، واستخدمت فنون البديع الأخرى ، وتضمنت الشعر ؛ ولكنه من  
نظم كاتبها وليس مقتبساً من غيره \* وبصور كاتبها حاله من السهر والمطالعة وكيف  
عفا فأحرقت الشمعة شاش عمامته فهو يطلب من الممدوح أن يعوّضه عنه بأسلوب  
وصفي خفيف الروح \*

وفد تناولت الرسائل الأخوانية الرثاء كما تناولت الشعر \* ومن رسائل  
الرثاء رسالة ابن الوردي في رثاء الإمام البارزي الشافعي وقد أرسل بها الى ابنه :  
( تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٣٢١ ) \*

« ... وينهي انه بلغ المملوك وفاة الحبير الراسخ ، بل انهداد الطود  
الشامخ ، وزوال الجبل الباذخ ، الذي بكته السماء والارض ، وقابلت فيه المكروه  
بالثدب ، وذلك فرض ، فشرفت أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين  
الضلوع ، وساواه في الحزن الصادر والوارد ، واجتسعت القلوب لما تمّ لمآلهم  
واحد ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزّي فيه ، والبرّ ينعاه ، والحكم يتفداه ،  
والأقلام تشي على الرؤوس لفده ، والمصنّفات تلبس حديد المديد من بعده » \*

نسجم الرسالة بالمبالغة والسجع والجناس والطباق وسائر فنون البديع وفيها  
تشايبه واستعارات وكنيات كثيرة ويأني الكاتب بصفات مناسبة لصنعة المنوفا  
تتعلق بالعلم والكتابة \*

وتناولت الرسائل الأخوانية الوصف كما تناولت الشعر ، ومن ذلك وصف  
الآثار \*

وتناولت الرسائل وصف عدد الحرب وآلاتها برأ وبجرأ \*

قال العماد الكاتب في وصف الاساطيل التي استقدمها صلاح الدين من مصر  
( ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ ) :

« فجاءت كالفتح بالفئلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج "تلاطم أمواج ،  
وأفواج" تراحم أفواج ، تدب على البحر عقاربها ، وتَجِف كقِطْع الليل  
سحائبها • والحاجب لؤلؤ "مقدمتها ومقدمها ، وضِرغام" غايتها وهماها ،  
فطفق يكسر ويكسب ، ويسل ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو  
ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه » •

يشمل الوصف كثرة السفن وعظمتها ومجيئها زمراً ويذكر قائدين من قوادها  
ويذكر فعلها في الاعداء وسفنهم ذكراً مجملًا لا يتعرض فيه الى تفاصيل المعارك  
وجزئياتها • ويغلب على أسلوبها السجع والجناس •

ووصف القاضي الفاضل في إحدى رسائله حصن الكرك الحصين الذي كان  
بأيدي الصليبيين يقطع طريق الحج ، على المسلمين ، فقال :  
« هو شجى في الحناجر وقذى في المحتاجر ، قد أخذ من الآمال بمخنتها ،  
وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار رئيساً للدهر في ذلك الفج ، وعذراً  
لتارك فريضة الله من الحج ، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر ، كبيت  
الواصف للأسديين :

ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دماً

« الروضتين ٢ : ٥٥ »

اهتم القاضي الفاضل حين وصف هذا الحصن بوصف خطره على الناس  
والحجاج منهم بخاصة وعلى الجند ولذلك نراه فرحاً بالاستيلاء عليه يرجو أن  
يستولي صلاح الدين على نظيره في الخطر وهو حصن الشوبك فنرى أن الرسالة  
تقوم بدورها من التوجيه المعنوي والكفاح في سبيل التخلص من الاعداء ،  
وأسلوبها متكلف •

وتناولت الرسائل الاخوانية الى جانب الجد حديثاً كثيراً عن اللهو • كتب

بدر الدين بن الصاحب الى الصاحب فخر الدين بن مكائس<sup>(١)</sup> يصف مجلساً للخمر :

« هل لك ، بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك ، في عذراء مَصُونَةٍ كالدرّة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأنّ على خدّها فوق ورده ياسمينه ، مخدّرة تدهش العقول لمُجْتَلَاهَا وتعشى العيون لضوء سَنَاهَا ، مظلومة الريق في تشبيهه بالضرب ، وفي اللّثات وفي أنيابها شنب ، لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير ، بلقيسيّة الجمال ، لها صرح ممرّد من قوارير ، ضرة للشمس ، تلبس زيّ البدور ، ليكن ويَطْرِبَ بها عيش السرور ، ليلها من حسننها نهار ، وضوء وجهها ليد لامِسها سوار ، عجوز الاسم ، صبيّة الاستمتاع ، بكر تستخفّ الحليم بكشف القناع ، تعصّب بالدجى طيبا ، وتلثت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، كريمة الأصل والفعال ، حسنة المعاني والخصال ، أديمها كلّما تعتق يغلو ووردها كلّما مرّ يحلو ، يخلع الوقور في حبّها العذار ، ويطيعها بالسعد فلك اللهو الدوّار ، ثمة المعاطف ، تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنما خلقت نشوانة من الطيّنة ويزداد ثغرها طيباً في ساعة السحر ، وتعرف عينها المخفيّة بحسن الأثر ، حديثها السحر الحلال ، وعتيقها خلّع الدلال ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والاكباد ، تطيب عيش الجلّاس ، وتترك أذنّ الوَسْوَاس ، من القاصرات الطّرف في كل قصّر ، وهي على الإطلاق ذهبيّة العصر ، رومية لها بالكيمياء معرفة ، مع أثّها بادرالك المعارف متصفّة ، فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرة تكتال لك الذهب أقداحا ، نديمها يجد في تخاييلها الملكة ، ويكاد أن يمدّ على الدنيا من لؤلؤ جنّاتها شبكة ، قينة كأنما غنّت المَلَكَ فنقّطها بالنجوم ، فارسية تخلّقت بعد أن قمصت بياض الغيوم ، تجمع شمل الأحباب وتهذب الأخلاق الصعاب ، لو خالطها جبلّ لباس ، أو قابلها جماد لّقيّل إثمّه ناس ، أو قتلت ثدّماءها لما نُسبت الى إياس ، ولقال لسان حالهم : وفيها منافع للناس ، وتلطّفت حتى كأنّ رأييها

(١) الاثنان من اواخر العهد المملوكي التركي واوائل الجركسي .

سماح نطاب، ونطرب . وحتى بكاد بأكل بالضمير ونشرب . عايرت  
الاستقصاءات علي نكلم النوراني ، وما نهت في خلقها الجنائي الروحاني ،  
دلم يجد الطين<sup>١٢</sup> له بها مدخلا ، لكن منع منها بالنلطخ نطشلا ، على أنه وارثها  
بالنصب وقل جدها للأمة بلا ترب . أناسها مسكبة وطبائعها برمكة ،  
«سكارمها حاسبه وأنسامها فبصرية ، بكر بخاتم ربها ، وهي نرضع أباهها من  
حليبها فتعد التسخ صبيًا . والمشعول خليًا ، فكأثها استعارت الإرضاع من  
أمها التي لها شدي كالنجوم عدده ، ونعكت منها المكارم ، لما رأت أكفها بالندى  
مسندة . غائبة ، طعم الجبابة في ريقها ، وضيق الموت في مباينتها وتطليفا ،  
لا يزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حراء  
نخلع توبها على النشدمن ، بل نكاد تنطبق عينها على الإنسان ، لا ينهض السليخ  
بوسمها ، فالعجز عن إدراك لظفها إدراك لظفها » .

« مطالع البدور للغزولي ١ : ١٥٣ »

الرسالة نكاد تكون شعراً وهي شعر منثور بكثرة صورها وتشخيصها  
الجماد والوصف ونصوير مساعر المعمر بالخبر ، ثم بما ينشره الكاتب من  
أبدان الشعر العديدة والمستحدثه في عهده ، وبظاهر أن الشاعر استنصر في دهنه  
وهو بكتبتها جميع ما يحفظ من الشعر الجيد في الخبر . وأسلوبها مستعوج  
منكالف .

واستخدمت الرسائل في أوصاف الرباضيات واليات ويشمل هذا النوع من  
الوصف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب المختلفة ولعب الكرة ورمي  
البندق الذي أصبح شغل حيزاً مرموقاً في أدب هذا العصر .

وقد بين الشهاب محمود ما يجب أن يكون عليه هذا النثر الذاني من سفاف  
بشكل موجز فقال : انه « مسا بحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب  
مطلق العنان . يخلي به وبين فداخته ، موكولا الى اطلاعه وبلاغته » .  
( حسن التوسل ، ص ٩٩ ) .

(١) في الاصل المظنوع الطير . وقد اصلحناها باجتهادنا .

وقد تناول هذا الموضوع الكتاب كما تناول الشعراء . وألف الكتاب  
محسود رسالة في البندق ذكر أنها « تشتمل على أنواع من الاوصاف ، وفنون  
من النثر والنظم . يسعين بها الكاتب على ما يساء من إنشاء قدمه<sup>(١)</sup> في أي  
نوع أراد من الطير الواجب »<sup>(٢)</sup> .

ويقول في مقدمتها « الرياضة نبعت النفس على مجازة الدعة والسكون ،  
وتصونها عن مشابهة الحسائم في الركود ، وبخضتها على أحد حظتها من كل فن  
حسن ، ونحتها على اضافة الادوات الكاملة اللسن ، وتأخذ بها طورا في الجِدِّ  
وطورا في اللعب ، ونصرفها عن ملاذ السمو في المشاق التي يستروح إليها  
النصب » .

ثم يتحدث عن خروجه الى الصيد وقت الاصيل يصف الطبيعة والجداول  
والطيور والنسائم ، ثم يصف مجبوعه من الطيور المصادة بعد أن « أصبحت  
أنسلاؤها على وجه الارض كقرايد خانها النظام » ( حسن التوسل ص ١٠٣ -  
١٠٤ ) .

عني كتاب هذه الحمبة بوصف أماكن الصيد ورحاب الطبيعة التي يصطاد  
فيها ووصف حيوان الصيد وعدده وآلاته ومجالس الطعام والشراب بعد  
الانتهاء منه .

وأكثر من عثوا به من كانوا في صحبة سلاطين الممالك وأمرائهم الذين  
كانوا بعدون الصيد ضربا من الفروسة ومراناً على القتال واستعداداً له ولذلك  
رى السهاب محسود في رسالته هذه ثغنى به وبفضله على سائر أنواع الرياضة  
والنسبة . . .

ومن عثوا بوصف الصيد أيضا ابن حبيب الحلبي في كتابه ( نسيم الصبا )

- (١) المقدمة : فدوم نوع من الطير الذي يهاجر عادة من بلد الى اخرى .  
والسبر الى سده . والماله او المفامة الى سحدرت عنه وعن صيده .  
(٢) الطير الواجب : الطير المرعوب في اصطاده والسموح به ، على مختلف  
انواعه .

وهو مجموعة مقامات تزيد على الثلاثين \* وسرى انه لا يوجد كبير فرق بين الرسائل والمقامات في العهد المملوكي \*

## المقامة

المقامات في الاصل معناها الجالس ( المبرز في شرح مخطوط الحريري \* و : ٤٥ ) \*

كانت المقامة تلي الرسالة في المكانة وفي درجة الاهتمام بها ، بل فضلها بعض الأدباء عليها قالباً لإنتاجهم ، وقد اختلفت عما كانت عليه زمن الهمداني من اختيار بطل خيالي لها وراوية يروي أخباره ، وأصبح الأدباء ينسبونها الى أنفسهم مباشرة ويعبرون بها عن مشاعرهم الخاصة من أفراح وآلام في ثوب قصصي واستغلّوها كذلك في الوعظ الديني وفي الإضحك واللهو وفي نقد المجتمع والسخرية ببعض الاشخاص \*

وقد قامت المقامة بدور الشعر في الحقب السابقة فتناولت شتى موضوعاته وشاركت بذلك الرسالة وقامت معها بدور المقالة في عصرنا \*

ويرى « نيكلسون » أن المقامة كانت خطوة نحو الفن القصصي الذي لم يكن ، في رأيه ، موجوداً عند الساميين \* ( نيكلسون ، تاريخ الادب العربي ص ٣٢٨ بالانجليزية ) وقد وافقه بروكلمان في ذلك ( تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ١٣٥ ) وخالفه كاتب المقال عن المقامة في دائرة المعارف الاسلامية \* وقد اعتبرت أحياناً في المكانة بعد القرآن لدى المثقفين ، لرجع نفسه ص ٣٣٦ ) \*

وقد قلّد بعضهم المقامات لغرامهم بأسلوبها \* ومنهم الحسن بن صافي<sup>(١)</sup> الذي كان يقول : « مقاماتي جد وصدق ومقامات الحريري هزل وكذب » ( ارشاد الأريب ٣ : ٧٥ ) \*

وعلق على ذلك صاحب النجوم الزاهرة ( ج ٦ ص ٦٨ ) بقوله :  
« ولكن دون ذلك أهوال » \* ومنهم محمد بن يوسف بن تحرير<sup>(٢)</sup>

(١) لقب نفسه بـ « ملك النحاة » ( ٤٨٩ - ٥٦٨ ) فهو من العهد الزنكي .

(٢) توفي سنة ٦٦١ هـ .

الذي وضع مقامه لاحد الامراء وصف فيها الجوارح والخيول والحروج الى الصيد وكتباً من كلابه وغير ذلك \*

ومهم محمد بن الحسن بن سبّاع المصري ( ت ٧٢٠ هـ )<sup>(١)</sup> الذي وضع المقامه الشهائيه ( بعبه الوعاء للسبوطي ، ص ٣٤ ) \*

ومهم أحمد بن علي بن الزبير الغساني ( ت ٥٦٣ هـ )<sup>(٢)</sup> الذي ألف كتابه ( المقامات ) \*

ومهم الشاب الظريف ( ٦٧٢ هـ ) الذي ألف مقامات العشاق ووصف فيها حبه وخروجه الى الرماض والنقاء بعاشقين وحديثه معهما \*

وجرى على نهجه الشهاب محسود ( ٧٢٥ هـ ) فألف « مقامه العشاق » \*

وكثر التأليف في شرح مقامات الحريري ومنه « المطول » في شرح المقامات لابن ظفر ( محمد بن عبد الله ب ٥٦٥ هـ ) \* و « التنقيب عما في المقامات من العريب » له أيضا \* ومنه شرح عبد الكريم البعلبكي ( ت ٦٠٠ هـ ) \*

وهذا مقطع من معامه أحمد بن يوسف بن تحرير

( ت ٦٦٥ هـ ) قال :

« خرج يوماً مع أناس ، فدواصلوا برهم بإيناس ، كل منهم يهتز للأكرومه ويأوي الى سرف أكرومه ، على خيل مسوّمه ، متقفّه مقوّمه ، ما بين حوّنٍ أدهم ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سنان ، أو انعطف لعنان ، ظننه عند مواصله ، أو انفصل عن مواصله ، واستقرّ كالطّراف ، عبّل الاطراف ، وأشهبَ كربم ، له سالمةٌ رهم ، كأننا خلق من عمق ، أو تردّي برداء من

(١) اشهر بـ « ابن الصائع » ( ٦٤٥ - ٧٢٠ هـ ) وهو محمد بن حسن بن سباع بن ابي بكر الحزامي ، ابو عبد الله ، شمس الدين ادب عالم بالعربيه مصرى الاصل ، دمشقى المولد والوفاة . له ايضا قصيدة نحو الفى بب فى الصنائع والفنون وله ديوان شعر .

(٢) اشهر بلف : الفاضى الرشيد . دعا لنفسه بالحلافة . حارب مع صلاح الدين فى الاسكندرية وقتله شاور .

شقيق ، ان أوردته الطراد أوردك المثراد ، وكُميت كالطود ، ذي وظيف  
 كذراع العود ، يلطم الارض بزبر ، وينزل من السماء بخبر ، وهملاج  
 أشهب ، ان زجرته ألهب ، أديمه روضة بهار ، بنظر في ليل من نهار ، ينساب  
 اسباب الأيم ، ويمرّ مرور الغيم لا ينبّه النائم اذا عبّر به ، ولا يحرك  
 الهواء في سربه ، أخفّ وطاً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف ، قال :  
 فلم يزل بنا المسير ، وكلّ منا في طاعة صاحبه أسير ، الى أن قصدنا وادياً كان  
 لعيوننا بادياً ، فما قطعنا منه عرّضاً حتى أتينا أرضاً كأننا فرّش قرارها زبرجد  
 وصيغت ألوانها من لجين وعسجد ، قد رقرقت فيها السحاب دمعها ،  
 وأحسنت في قيعانها جمعها . نسبمها سقيم ، وماؤها مقبم ، فهي تهدي  
 للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

وجاء في هذه المقامة وصف للكلب :

« دو خَطم مخطوف ، ومِخلب كصدغٍ معطوف ، غائب الخصر ، حاضر  
 البصر ، له طاعة التهذيب ، واختلاس الذيب ، وتلفشت مريب ، وصداقة  
 قريب . له من الطرف أوراكه ، ومن الطرف إدراكه ، ومن الأسد صولته  
 وعِراكه ، اذا طَلَب فهو مَنون واذا انطوى فهو نون » .

« الطالع السعيد ٦٤٣ ، والادب المملوكي ٢ : ١٩ »

هذا الجزء من المقامة يبيّن ان المقامة التي أخذ منها لم تحتفظ من مقومات  
 المقامات الا بالاسلوب المرصّع بالصور البيانية والزخارف البديعية ، وانها  
 ليست قصة محبوكة وليس فيها بطل أسطوري ولا راوية ولكنها أسهل من ألفاظ  
 الحريري وأرقّ وأقرب فهماً ، على أن نصيبها من الخيال أقلّ .  
 وقد استخدمت المقامة في وصف الكوارث كما استخدمت في وصف  
 الطبيعة .

قال ابن الوردي ( عمر بن مظفر ، ت ٧٤٩ هـ ) يصف الطاعون ، من مقامة :

« اللهم صلّ على سبدنا محمد وسلّم ، ونجّنا بجاهه من طغيان الطاعون  
 وسلّم ، طاعون روّع وأمان ، وابتدأ خبره من الظلمات ، فواهاً له من زائرٍ



مِنْ خَمْسٍ عَشْرَةَ سَنَةً دَائِرَ ، مَا حَيَّنَ عَنْهُ الصَّيْنِ ، وَلَا مَنَعَ حِصْنِ حَصِينِ ،  
 سَلَّ هِنْدِيًّا فِي الْهِنْدِ ، وَاسْتَدَّ عَلَى السِّنْدِ ، وَقَبِضَ بِكَفَيْهِ وَشَبَّكَ عَلَى بِلَادِ  
 أَرْنَكَ ٠٠٠ وَقَهَرَ خُلُقًا بِالْقَاهِرَةِ ، وَتَبَهَّتْ عَيْنُهُ لِمَصْرِ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ  
 وَأَسْكَنَ حَرَكَةَ الْإِسْكَانِيَّةِ ، فَعَمِلَ سُغْلَ الْفُقَرَاءِ مَعَ الْحَرِيرِيَّةِ :

اسْكَنْدَرِيَّةُ ذَا الْوَبَا سَبْعَ سِدِّ إِلَيْكَ ضَبْعُهُ

صَبْرًا لِقِسْمَتِهِ الَّتِي تَرَكْتَ مِنَ السَّبْعِينَ سَبْعَهُ ٥

« الادب المملوكي ج ٢ : ٢١ »

وهو هنا يصف ما أحلّه الطاعون من بلاء في ستي البلاد ويصف نقله فيها .

وقد استخدم الادب العامي المفامة كما استخدمها الادب الفصيح .

ومن النثر العامي مفامته هزليه لسرف الدين بن اسد ( ت ٧٣٨ هـ ) رواها  
 الصفدي<sup>(١)</sup> . وهي من مفاماته الطريفة . وكان شرف الدين عامياً مطبوعاً قليل  
 اللحن منها : « اجتاز بعض الحجا ببعص الأساكفه ، فقال أبتَ اللعن ، واللحنُ  
 يَأْبَاكَ وَرَحِمَ اللَّهُ أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، وَهَذِهِ نَحْيُهُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنْ  
 عَلَيْكَ أَفْضَلُ السَّلَامِ ، وَالسَّلَامُ ، وَمَتْلُكَ مِنْ بَعْزٍ وَيُكْرَمُ ٠٠٠ » ثم يسرد  
 عليه قراءاته في كتب العلم واللغة والنحو وينتهي الى الغرض الذي جاء من أجله  
 الى الاسكاف فنقول : « وقد دعني الضرورة اليك ، ونمثلت بين يديك لعلك  
 تتحفني من بعض حكمتك وحسن صنعتك بنعل يفني الحر ويدفع عني القُرَّ ،  
 وأعرب لك عن اسمه حقيقةً لأتخذك رفقاءً ، فبه لغات مؤلفة ، على لسان الجمهور  
 مختلفه ، ففي الناس من كناه بالمداس ، وفي عامة الأمم من لقبه بالقَدَمِ ، وأهل  
 سِرِّ تَوَزَةٍ سَمَّوْهُ بِالشَّرْمُوزِ ، واني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثمَ في  
 ذلك ولا لَوَمٍ ، والثالثة به أولى ، وأسألك أيّها المولى أن تحفني بِشَّرْمُوزَةٍ ،  
 أَنْعَمَ مِنَ الْمَوْزَةِ ، وَأَفْوَى مِنَ الصَّوَانِ ، وَأَطْوَلَ مِنْطَقَةٍ ، ثَابِتَةٍ فِي الْأَرْضِ الزَلِيقَةِ ،

(١) وأوردها ابن شاكِر في « فَوَابِ الْوَفَايَاتِ » . وهو يترجم لكاتبها .

علتها من جلد الأفيلة الحسير لا المطير ، أطولَ عمراً من الزمان ، خالية  
البواشي ، مطبقة الحواشي لا يغير وشيها •

فلما أمسك النحوي عن كلامه ، وتب الإسكافي على أقدامه ، ونمشي  
ونبخر ، واطرق ساعة وتفكر ، وتندد وتشسر ، وتحرب وتنمر ، ودخل حانوته  
وخرج ، وفد داخله الحنق والحرَج • فقال له النحوي : جئت بما طلبته ؟ قال لا ،  
بل بجواب ما قلتَه • فقال : قلْ وأوجز وسجّع ورجّز • فقال : « أخبرك  
أبها النحوي ، أن البسر سنجوري سبطاب المتفوقل ، والمتعيب من  
جانب السرّ شكل ، والدبوك تصهل كنهق زفازيق الصولجانات ، الخ » •

« ويورد كلاماً مسجوعاً لا معنى له على تلك الصورة حتى يقول :  
« أعبذك بالزحزح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأرقيك برقوات  
مرقات قرقرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون •

ونزل من دكانه مستعباً بجبرانه ، وقبض لحة النحوي بكفّسه ، وخنقه  
بإصبعه ، حنى خراً مغتساً عليه ، وبربر في وجهه وزمجر ، وثأى بجانبه واستكبر ،  
وتشخر ونخر ، وتقدّم وتأخر • فقال النحوي الله أكبر الله أكبر ، ويلك ما هذا  
الغتيان ، قال من هذا الهدان ، والسلام » •

بنقد شرف الدين بن أسد في هذه المقامة تقعر النحويين في استخدام اللغة  
العويصة والصناعة البديعة البيانية في غير مكانها على ما لا يوافق مقتضى الحال ،  
وبستخدم أسلوب النحاة نفسه مبالغاً فيه مجسّساً عبوبه باستعمال ألفاظ مخترعة  
لا معنى لها ، واختيار موضوع لمقامه هو تصليح حذاء • والنقد خفيف الروح  
يصلح أن يكون لحة نسيئة للإضحاك القائم على اللفظ والحركة والشجار  
والسباب •

## خيال الظل

ومن الفنون الأدبية التي راجب أو وجدت في هذه الحقبة خيال الظل •  
( يحدث عن خيال الظل في العصر الحاضر الدكتور فؤاد حسن في كتابه .

« الفصص الشعبي » وأحمد تبسور باشا في كتابه « خيال الظل » والمستشرق جورج بعقوب في بحثه عن خيال الظل وكتاب :

( Studies in the Arab Theatre and Cinema 1958. England, London Jacob M. ) •

عرف هذا الفن في الشرق العربي ، وبخاصة مصر ، منذ العهد الفاطمي • ولكن الذي وصل إلينا من نصوصه يرجع إلى عهد المماليك الاتراك وهو بابات ( أو مسرحيات اذا صحت التسمية ) لابن دانيال ( ت ٧٤٠ هـ ) تنوع في فوالبها بين الشجر والنثر والزجل • وخيال الظل هو ما يسمى اليوم في الشام بـ ( قره غوز ) خطأ<sup>(١)</sup> ومما يدل على أنه كان معروفا لدى الأيوبيين ما ذكره ابن حجة ( في ثمرات الاوراق ، ص ٣٠ ) من ان صلاح الدين أحب أن بري القاضي الفاضل خيال الظل فأتاه من القصر ( الفاطمي سابقا ) بمن يعالجه ، فقام القاضي عند الشروع فيه ثم قعد مسaire للسلطان فلما انقضى سأله عن رأيه فيه ، فقال :

« رأيت موعظة عظيمة ، رأيت دولا نصبي ودولا تأتي ، ولما طوي الستار اذا المحرك واحد » •

وفي هذه الرواية نظر لأن القاضي الفاضل أسبق من صلاح الدين وجودا في مصر واختلاطا بالفاطميين فكيف لم يعرف خيال الظل من قبل ، الا ان يكون النظر إليه في زمنهم كان مقصورا على الملوك أو انه كان شائعا معروفا لدى الناس ، ولكن القاضي الفاضل كان يورع عن مشاهدته ، أو انه لم يجب ان ينصرف السلطان لمثل تلك الحال من اللهو والعدو رابض في البلاد •

وكان يستخدم فيه ما يسمى بالبابات وهي عرائس من الورق المقوى أو الجلد بحرّكها مدربون عليها ، وربما دربوا الجوّاري على تحريكها يدل ذلك على قول أحدهم :

(١) قره غوز هو ما يسمى اليوم بالفصحى « مسرح العرائس » لانه يتكون من دمي وبمايل من خشب أو جصّ يحرك بخيوط لا يرى النظارة محرّكها . وقد اطلق العامة في الشام اسم قره غوز على الصور المقصودة من الورق المقوى أو الجلد المضغوط والى تقع خيالنها بواسطة نور وراءها على الشاشة أمامها . ( مسرح عربي قديم » كراكور « عادل ابى شنب • ص ٣١ و ٣٢ ) •

أرتنا خيال الظل والستر دونها  
 فأبدى خيال الشمس خلف غمام  
 تلَّعَّبَ بالاشخاص من خلف سنرها  
 كما لعبت أطرافها بأنام  
 « مطالع البدور للغزولي ١ : ٣٦١ »

وقد وصل إلينا من مسرحيات ابن دانيال العرائس ثلث هي طيف الخيال ،  
 وعجيب وغريب ، والمتيم . وتدل موضوعاتها على أنه وضعها زمن الملك الظاهر  
 بيبرس بعد أن حرّم هذا شرب الخمر وناول الحثيئة وعاقب عليهما بالقتل  
 والصلب . وهي عقوبة تجاوزت الحدّ الشرعي المعروف .

#### طيف الخيال :

تتلخص هذه المسرحية في أن أميراً من أمراء الجند ، اسمه وصال ، يرغب  
 في أن يتزوج امرأة من ذوات الحسب والجمال . وبلغاً الى الخاطبة أم رشيد ،  
 فبفاجأ حين الزفاف بفتح العروس ، وتشور ثأثرته ، ويهدد أم رشيد وزوجها بالقتل ،  
 ولكنه يعود فبرى أن ما حصل تكفير عما ارتكبه من المعاصي سابقاً ، ويصم على  
 التوبة والحج لبتطهر من ذنوبه .

ويورد ابن دانيال قبل بدء المسرحية مقدمة بمهد بها لها ، تتلخص في أنه  
 جاء من الموصل فوجد أن الخمر والحشيشة وسائر الفواحش قد حرمت وأن ابن  
 الكازروني قد وجد مخموراً فشنق ، وأن صديقه المضيف قد اعتذر عن تقديم  
 الخمر اليه بسبب ذلك وذكر له أن أبا مرذ أي إبليس قد مات ودعاه الى رثائه  
 فرثاه بسينية طويلة منها :

مات يا قوم شيخنا إبليس	وخلا منه ربه المأنوس
ما لنا يبعد ذلك الشيخ إلّف	وسمير ومؤنس وأنيس
ما لنا لا نرى فنى ضاحك السن	وكلّ يبدو له تعيس

وفي هذه المقدمة نقد واضح لمرسوم الملك الظاهر ، اتخذ شكل الاضحاك  
والسخرية .

يقدم ابن دانيال شخصيته الاولى ، وصال ، فجلع عليه كل أنواع المصاد  
المعروفة في العصر من مألوفة وشاذة : يفرس أكثر من السبع ، وينرب أكثر  
من الرمل ، وانه أظهر من كوكب وأدور من لولب . وبعلق طيف الخيال على  
ذلك ساخرًا ( إنَّ من يترك تلك الآثار لا يموت ) .

ويتداخل الراوية الذي هو أيضا طيف الخيال فيعلق بين الحين والحين .  
أو يناجي ، أو يقدم الاشخاص ، أو يحدث خلال تسلسل المشاهد التي يلتقي  
فيها البطل مع أشخاص آخرين ويتحدث معهم .  
ويمزج ابن دانيال بين النثر والشعر في هذه المسرحية . وهذا مقطع  
صغير منها :

« تلمي أم رشيد نداء طيف الخيال فتأتي ليقول لها :

بقول طيف الخيال : طلبك الامير وصال .

فتقول أم رشيد : ونعم من الامير وصال ، الذي ربّي في النعيم وفي  
الدلال ، رحم الله أباه ، ورحم أمّه ومن ربّاه .

فيقول الامير وصال : يا خالني أم رشيد ، كيف نعم الله عليك ، ولقد كنت ،  
قسما بالله ، مشتاقا اليك وما طلبتك الا لتزوجيني ، والى غيرك فلا تحوجيني ،  
وأريد هذه العروس تكون دريّة اللون ، حسنة الكون ، ملفوفة اليدين ، لا رقيقة ،  
ولا مفرطة في السمن ، أسيلة الخد ، قائمة النهدي :

بيضاء مصقولة الخدين ناعمة كأنها لؤلؤ في الخدر مكنون  
حسن "جرى قلم" الباري فأبدعه خطأ تحار لمراه الدواوين » .

\* \* \*

ومن المنون الأدبية التي ظهرت خلال هذه الحقبة :

## فن المقامات الادبية

الفضل في ظهور فن المقامات الادبية لمحمد بن محرز الوهراني الذي رحل الى الشرق وزار الشام زمن نور الدين ، ومصر زمن صلاح الدين ، واستقر أخيراً في داريا خطيباً لمسجدها حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ . ومناماته مطبوعة (١) .

ذكر ابن خلكان ان الوهراني حين جاء الى الشرف شعر أنه ليس من طبقه القاضي الفاضل والعماد الكاتب فعدل عن طريق الجد الى الهزل .

وأهم ما في مقاماته المنام الكبير الذي أعجب به ابن خلكان فقال : « لو لم يكن فيها الا المنام الكبير لكفاء » ( وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٥١٨ ) .

سلك في هذا المنام مسلك أبي العلاء في رسالة العيران ولكنه كان أبعد عن التكلف وأوضح مفصداً وجمع فيه مثله بين الهزل والجد .

تحيل الوهراني أنه نفخ في الصور وأنّ الصيامة قامت وقام العرض أمام الله وقام هو ملهم في ذلك الهول العظيم واستطاع أن يعرف على كثيرين مسنّ عاصروه وأن يتحدث عما يحاسبون عليه يومئذ ساخرا بهم .

وفي « رقعته » عن مساجد دمشق يتخيل ذهاب مساجد دمشق كلها الى مسجدها الكبير واحضاعها تحت قبته شاكية ، وهناك يتحدث كل منها عما أصابه من ضياع وإهمال ونهب وخراب وهكذا .

فسنير عليها مسجد دمشق الكبير بالتسكوى الى قاضي القضاء ابن أبي عسرون فتشكى اليه حالها ونعائه فإن لم يستجب لها فالسلطان أمامها . . . ونقابل القاضي فبغضب من هذه الرقعة وينتقم المسجد الجامع فيرفع هذا أمره الى نور الدين فيلبسه ويصلح أحوال المساجد وينحّي تاضي الفصاد عنه ويمرأ عليه ( ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ) . والسلام .

(١) برحم له كيرون . مهم : ابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٥١٨ . والرد على في الاعلام ج ٧ ص ٢٤١ .

النقد على لسان المساجد حبه والاسلوب طريف وهذا البزل الشاعر الذي  
تأثيراً وفتكاً من الجدة • وهو نقد اجتماعي يسوجه به صاحبه ضد عامل من أكبر  
عمال الدولة • وقد سار على غرار الوهراني في هذا النقد الشاعر الدمشقي ابن  
عنين في « مفراض الاعراض » • والحق أن الوهراني نجح شتعا جديدا في الشعر  
العربي • وقد قدم الدكتور عبد العزيز الأهواني لكتاب « منامات الوهراني »  
بمقدمة مفيدة يجدر الرجوع اليها كما نحدث عنه الدكتور صلاح الدين المنجد  
في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد الاربعين ج ١ ، ص ٢٤٣ حديثاً قبيماً نحسن  
مطالعة •

ومن حسنات الوهراني أنه نجب الصناعة في كتابته •

## مميزات الشعر

كان الادب الذي قبل في الحروب الصليبية بمتاز بأمرين : القوة والصدق •  
وهو بذلك يستثير الاعجاب •

فقد عبّر عن عواطف العامة والخاصة ، ورسم للفائدة خططهم وصرّح الآمال  
والآلام وعبر عن الرأي العام الإسلامي في عصره • ولم تكن الزينة أهمّ ما في هذا  
الادب ، كان الأهم منها قدرته على الايحاء والتأثير • ونصوير الوقائع والتغني  
بالبطولة والاعجاب بالقوة والشعور بها ، وإلهاب العواطف ضد الاعداء • وتخصيف  
حده الهزينة حين وفوعها ، وبعث الامل وطرد الفئوط ، واذاثة الفرح والبشرى  
حين النصر وذف الحسرة في قلوب الاعداء •

وفد سائر الادب الاحداث منذ نجاح الحملة الصليبية الاولى في الاسكندرية  
على الساحل فاستنار اليهم وصور أبعاد المعركة رأيت في الفلوب •

ثم سار مع الابطال عساد الدين ونور الدين ، الإسلام إلى  
والاشرف خليل بفرح للانصاراب ونواصي في السجبات وبسبي لخصافات •  
ذلك كله مصطرم العاطفة عبق الحب • وكان السمر منه يضيء أمام السامع

وعلى مِلاٍ من الناس • ويداع في المحافل ، أما النثر فلم يكن يكتب للناس جميعهم وانما كان يكتب لخاصة الخاصة من طبقة الحكام فقد كان الكتاب مشاركين في تدبير الدولة والاعداد للحرب فاستطاعوا أن يطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم وأن يصفوه ، ولكن دائرة ذبوع أدبهم كانت محدودة •

كان الشعر يقوم مقام الصحف اليومية في أيامنا • أما النثر فكان يقوم مقام الوثائق والتقارير الرسمية السياسية والحربية التي يرسلها الحكام والقواد الى الخليفة أو غيره من أولي الشأن •

ولما كان هذا النثر قد كتب للخاصة فانه كان من حيث الاسلوب أعقد من الشعر في كثير من الاحيان • ولقد أصبح تكلف الاسلوب عادة لدى كتّاب الدواوين حتى إن التاريخ نفسه لم يسلم حين يكتبه أحد هؤلاء من تعقيد الاسلوب • كما رأينا في كتابي العماد الاصفهاني : « الفيح القسي في الفتح القدسي » و « البرق الشامي » • وقد رأينا كيف نقد أسلوبهما ابن شامة وخلص أسلوبه مما فيهما من الصناعة المملّّة •

وقد ألفت في هذه الحفبة كتب كثيرة مختلفة الاساليب في عدة موضوعات ، لتذكّر الأمة بمجدها وتستثير هممها وتجعلها تتلمس مواطن القوة من نفسها لتوجهها ضد أعدائها • ومنها كتب التاريخ ، والشيم والمناقب ، وفصائل البلدان ، وكتب الجهاد والفروسية • وشاركت الخطابة في تكملة وعيها وتدعيم ارادتها وتنظيم قوتها وتحسين اعدادها وتمتين تعلقها بالاهداف السامية التي تؤمن بها •

وقد فعلت هذه الكتب في النفوس ، معتمدة على القرآن والحديث والتاريخ ، ما تحاول أن تفعله الصحافة والاذاعة اليوم ، في حروبنا ضد أعدائنا • وقد استطاعت هذه الكتب أن تحل المسلمين على الصبر حتى النصر • وقد عرف السلاطين المخلصون الواعون للكتابة حقّها فقال صلاح الدين ، على سبيل المثال ، لقوّاده : « لا تظنّوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل » • « مرآة الزمان ٨ : ٤٧٣ »

كانت ثقافة العصر دينية ، وكانت منصرفة في أغلبها عن الفلسفة ولذلك لم



يظهر غير الأثر الديني في أدب هذا العصر الا قليلا . ولم يستطع الأشياء أن تسلطوا  
كما فعل أبو تمام من حيث تحويله عناصر ثقافته الى فن شعري مسنساغ .

وفد أضفى البديع على الشعر والنثر في هذه الحقبة طابع الفن المفسر .  
وأساء الى معاني الادب في هذه الحقبة أحبابا فجعلها غامضة .

ويظهر أن بساطة المعاني وهدوء العاطفة هما اللذان أنابا للكاتب أن يهنئ  
بالصناعة البديعية . فقد رأينا القاضي الفاضل نفسه حين تشغل فكره بأمر اتى  
يهمل الصناعة اهمالا يكاد يكون كلياً ولا يورد منها الا ما باتمه عمو التناهي .  
فالقاضي الفاضل هو الذي أمسك صلاح الدين عن الانهيار . ولو انهيار صلاح  
الدين لما أفادت تلك السيوف والرماح . لقد كان القاضي الفاضل مقسماً غالباً  
في مصر يباشر أمورها ويرسل الى صلاح الدين بما يجد فيها ويصح ويحذر  
ويشتر وينبئ وبصّر . وكان صلاح الدين يستمع الى قوله الذي يظهر عليه  
دائماً نبرة الاخلاص والصدق .

فلا يجوز لنا أن نتهم الادب في تلك الحقبة بأنه لم يؤد مهنته ، ولكن  
الادباء كلهم لا يمكن أن يكونوا القاضي الفاضل في جميع لحظاتهم ، كما أن  
القاضي الفاضل نفسه لا يمكن أن يكون دائماً على مستوى نفسه في بعض  
لحظاته .

وفد كسبت الأمة الحرب على أعدائها بالسلحين المادي والمعنوي .

لقد كان الاسلوب في الدواوين عبد الصناعة البيانية والبديعية . ولكننا  
نستشف من بين ألفاظه وتعايره مشاعر مكبوتة تريد لنفسها الانطلاق ، فاداً تركنا  
الجو الديواني المقيّد الى الجو الشعبي . ظهر لنا أدب شعبي فصصي وغظي جديد  
بعيد عن القصور والدواوين استمدّ وجوده من الشعب الذي أقبل عليه لانه  
منه وإليه واستطاع أن يتخلّى عن التصنع في الاسلوب الذي عجز بعض كتاب  
الدواوين عن التخلي عنه . ولكنه فارب العامة في سهولة ألفاظه ووفوع بعض  
الخطأ النحوي فيه في أواخر العهد الايوبي ، وصار أقرب اليها في العهد  
المملوكي الاول ، وأشدّ قرباً في العهد المملوكي الثاني .

وظهر لنا كذاك في المناطات الادبيه على يد الخطيب الوهراني ذي الاسلوب  
الحر ، وذلك في اواخر العهد الزنكي .

### خصائص الكتابة في هذه الحقبة :

كان التطويل من سبب كتاب هذا العصر وقد أخذه عليهم أبو سامة صاحب  
كتاب الروضين الذي رأى أن البلاغة الابجاز كما فهمها العرب الأقدمون .  
وكان من سماته ولا سيما في فن الرسائل الاكثار من عبارات المديح والإطراء  
والذلة والخضوع مثل : « الخادم يقبل الارض بين يدي المولى ، أو المملوك يرى  
كذا أو الخادم يقول كذا » .

ومثله ألقاب الفخامة التي كانوا يطلقونها على الملوك فيقولون : الملك المرابط  
معز الإسلام مذل الشرك محطّم الطغيان ناصر النوحيد سيف الله حامي  
الملتة ... الخ .

وقد أكثر الناس من الاسماء التي تضاف الى الدين مثل نور الدين وشمس  
الدين وعزّ الدين ... الخ .

وأطلق على العلماء والشعراء ألقاب تضاف الى الدين أو الى الاسلام مثل :  
حجة الاسلام أو الدين وضبائه وتاجه وسراجة وجماله وشرفه ...

وأطلق على الفواد ألقاب مناسبة تضاف كذلك الى الاسلام أو الدين مثل :  
سيف الاسلام وحسامه وركنه وسهمه ودفعه .

وكانت الكتابة الدبوانية تتفاوت قوة وضعفاً وحرية في الاسلوب وتكلفاً  
بحسب الموضوع الذي يعالجه وبحسب الكاتب أو المترجم .

وكان همّ الكتاب أحياناً أن يظهروا للسلطين وأولي الامر براعتهم الإنشائية  
وبلاغتهم لسالوا إعجابهم ويتعروهم بمكاتتهم في دولتهم وأنهم لا يسكنهم  
الاستعناء عنهم .

وبسكن أن نبر في هذه الحقبة ثلاث طرق . طريقة القاضي الفاضل المعرفة

في الصاعه التي بمتلها الخطيب الحصكفي في الشام ، وطريقه ابن الأنير المعدله  
التي سار عليها في مصر أكثر الكتاب باستثناء القاضي الفاضل وابن سناء الملك .  
وطريقه ابن ظفر الصقلّي في الشام وقد اتبعها كثرون . وهي أقل صناعه وأكثر  
اعتماداً على الصور وعلى إيراد الشعر المنشهد به من نظم الكاتب وعبره .

لم نأث القاضي الفاضل بطريقة جديدة في الكتابه ، وإنما سار على طريقة  
الحريري التي كانت معتمده في الدوله الفاطميه التي نسا في ظلها . وإنما نسبت  
هذه الطريقه إليه لمكاته في الدوله جبئد وبالغتة في التكلف البباني والزخرفة  
البديعية ولكثرة ما كتب في الموضوعات السلطانية وغيرها . وقد فله كثير من  
الكتاب فشملت الصناعة البلاغة أكثر ما يكتب حتى الفصص<sup>(١)</sup> والمناشير الموجهة  
الى العامة ، وبعض عقود الزواج الخاصة بالعظماء وأولادهم . والإجازات العلية  
التي تمنح للطلبة .

وكان السجع هو الفن البديعي السائد ولكن بعض الأدباء نقدوا المبالغة  
فيه ومهم السبكي الذي أورد بعض النوادر عن النحويين المتفكرين المتكلفين .  
ودكر ابن حجة افتتان الناس بالنورة وأنها تسمى بأسماء كثيرة كالإيهام والتوجيه  
والخيير ولكن اسم التورية أحسنها لأنه يدل على معناها ، وأن القاضي الفاضل  
هو الذي عصر لأهل عصره سلافة التورية وأن القاضي ابن سناء الملك تابعه فيها .

ويظهر أن صلاح الدين الصفدي كان أكثر ولعاً بالجناس ولم يرض ذلك  
أسناده ابن نباتة الذي حرّف اسم كتابه من «جنان الجناس» الى «جنان الخناس»  
نقداً له وعبيراً عن الاسبناء منه .

واهتم أدباء العصر بالاقتراس من القرآن والحديث وتصيين الشعر القديم  
والمثل السائر والنوادر وفصص العرب وحكايهم وأخبارهم . وأحياناً كانوا  
يوردون الكلام كما هو ، وأحياناً كانوا يكتبون بالإشارة إليه .

---

(١) المراد بالفصص في لعمه ذلك العصر العرائض .

## من الموسوعات (١) كتاب «صبح الاعشى للقلقشندي»

ألفه القلقشندي والموسوعات :

كانت مصر والشام يستقطبان معا الحركة العلمية الادبية فلما خربت ديار الشام في عهده مسور لك التتارية الثانية تركز الاستقطاب في مصر واصبح هم العلماء انماذ الثقافة العربية الاسلامية عامدين الى ذلك أو منجهين بما تحت الشعور • وكان من محاولات الانقاذ تأليف كتب كبيرة أو دوائر معارف في شتى العلوم وكان لها دور الحفظ الثقافي والإحياء العلمي الادبي •

وكان هنالك حافر آخر لتأليف الموسوعات وهو حاجة كتاب الدواوين الى ثقافة عامة واسعة ليلتموا بكل شيء يتعرضون الى الكتابة فيه ، ولرفع مستوى الدواوين المكتوبة فقد كان هذا الديوان الدماغ المفكر للحكم المملوكي كما كان كتابات لجميع أدوار الحكم قبله ، ولكن جهل الملوك المماليك جعل قيمته في عهدهم أكبر •

كان من سعى أهل المثقفين أن يعملوا في هذا الديوان أو في بعض المناصب الادبية او الدنيوية الكبيرة كالقضاء والحطابة والتدريس •

ولقد نجح النطران مصر والشام في معركتهما الثقافية فاجهما في معركتهما العلمية ، وزاد التأليف فيهما اتقاناً وحسناً بأن أوج حسن التنظيم والترتيب والبريد موضوع وتخلص من الفوضى واستطرد الذين كانوا يسودانه من الجاهل والبرد ومن بعدهم ، وعني فيه بالاختصاص بالموضوع والالتزام به دون الاستطراد الى غيره ، وتقاسم العلماء التأليف في الثقافة الاسلامية دون سابق اتفاق •

بعضهم انصرف الى التأليف في الثقافة الادبية كالنويري في كتابه « نهاية

---

(١) يرجى أن يستبدل بكلمه « الموسوعات » كلمة « المجلات » أو « دوائر المعارف » •

الأرب » وبعضهم ألف موسوعة في الثقافة الجغرافية كابن فضل الله العمري في كتابه « المسالك والممالك » .

وبعضهم ألف موسوعة في الثقافة اللغوية كابن منظور في معجمه الفخم « لسان العرب » .

ووجدنا لزاما علينا أن نقف وقفة مطولة أمام هذه الموسوعة الديوانية القصة المسماة « صبح الأعشى » للقلقشندي .

لقد كان هؤلاء المؤلفون يشنون ضمير الأمة الحي المسنيقظ لحفظ تراثها الخالد . وهم يمثلون في الوقت نفسه يقظة الفكر العربي غير الاعجمي الذي صُرف عن السياسة والحرب مضطراً فانصرف الى العلم والادب يبدع فيهما ما شاء له الابداع . وكان موقف هؤلاء العلماء الادباء أدعى الى التقدير في نظرنا من مواقف رجال السياسة والحرب على جلالها وعظيماً فائدتها واعترافنا بفضلها ، ذلك لأنهم استطاعوا أن يحفظوا الفكر العربي من الفساد والانحراف وأن يقوموا بدورهم في التوعية والتوجيه المعنوي خير قيام .

ولكننا نحب أن ننبّه الى أن التأليف في هذه الموسوعات اذا كان قد حافظ على وحدة الموضوع فإنه لم يسلم من شيء آخر هو مزج العلم بالادب وبالاخبار الدينية فترى المؤلف اذا أراد مثلاً أن يتحدث في النجوم ذكر ما جاء فيها من القرآن والاحاديث وما جاء فيها من الشعر والحكم والأمثال والآثار ، ثم ما قاله العلماء مورداً رأيه الخاص أو مكتفياً بإيراد آراء غيره ومفتدماً بعض هذه العناصر على بعض ومؤخراً بعضها مع المحافظة على خطة يسلكها . وقد يكون لهذه الطريقة فائدتها في دفع الملل ، وجمالها في مزج جيد العلم بذوق الأدب ورونقه .

ونحب أن نوصح ما يريد من نحول التأليف من الاستطراد والموضى الى التنظيم والترتيب فقد كانت الثقافة قبل العصر السلوكي ثقافة اسلامية تكونت من مزيج من الثقافة العربية الدينية المنمثلة بعلوم اللغة العربية والقرآن والحديث النبوي وأمثال العرب وحكمتها وسعرها وخطبها وسائر ثراها وعلومها وتجاربها ،

ومن ثقافات أخرى كالفارسية واليونانية والهندية ، وثقافة الأديان الأخرى ولا سيما  
البندية والمسيحية .

وقد اقتبس العرب هذه الثقافات عن طريق الاحتكاك بأهلها والتفاعل معهم  
والمراسمة من كتبهم ووجود مراكز ثقافية لبعضها كمدارس حرّان والاسكندرية  
وحنديسابور بالنسبة الى الثقافة اليونانية ، واتخاذ وزراء أو قواد من بعض  
الاقوام الأخرى كالفرس والترك ، والمناقشات الدينية المسيرة مع أهل الذمة  
من يهود ونصارى وصابئة ، والاطلاع على كتبهم الدينية . وقد مثل هذه الثقافة  
المختلطة الجاحظ في كتابه « الببان والتبيين » و « الحيوان » ، وابن قتيبة في  
كتابه « عيون الأخبار » وأدب الكاتب « وأبو الفرج الاصبهاني في كتابه العظيم  
« الاغانى » ، وابن سمي في كتابه « المغرب في حلى المغرب » والمشرق في حلى  
المشرق » .

وكان الأدب في ظل هذه الثقافات مفهوم فضفاض اتسع للصيد وألعاب  
التموسة ولعب الشطرنج والضرب على العود وكان الاديب هو الذي يأخذ من  
كل فن طرفاً ، ولذلك نرى الحسن بن سهل أحد وزراء المأمون العباسي يقول  
في عهد ممتكس : « الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة  
عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية ، فضرب العود ولعب الشطرنج  
ولعب النسواج ، وأما الفارسية فالطب والهندسة والفروسيه . وأما العربية فالشعر  
والنسب وأيام الناس . وأما الواحدة التي أربت عليهن فسقطعات الحديث والسر  
وما يتلقاه الناس في المجالس » ( عن أحمد أمين - د . ، الاسلام ، ج ١ ص ١٦٩ .  
١٧٠ ، وعن القلشندي لعبد اللطيف حمزة ، المقدمة ) .

وربما كان يقصد بالشهرجانية « المذبذبة » نسبة الى شهر في الفارسية بمعنى  
مدينة . وهذه الصورة من فهم الادب فيهاً واسعاً هي التي جعلت المؤلفين الاوائل  
الذين ذكرناهم ( الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرّد ) يجسعون بين العلم والادب  
وينقلون من الشعر الى الحكمة الى النادرة الى التاريخ الى الخطبة ، الى الفلسفة  
الى قصص البخل ، وقد سار المؤلف على هذا الغرار كما بقول الدكتور عبد اللطيف

حمزه في كتابه عن صبح الاعشى للقلقشندي حتى غزو التتار ببغداد . وحينئذ بدأ التأليف المنهجي القائم على التنظيم الدقيق والتبويب والتقييد بالموضوع .

ولكننا لا نوافق الدكتور المرحوم عبد اللطيف حمزه على حكمه بأن هذه الطريقة مصرية ترتبط بجذور التاريخ المصري القديم قبل الاسلام ، وأن الطريقة الفوضوية التي كانت قبلها طريقة عراقية فهذا التفريق الإقليمي لبس حقيقة واقعة في التراث العربي الاسلامي . والذي أدّى في رأينا الى وجود الطريقة الجديدة هو وقوع الاحداث الجديدة في العالم العربي ، ومنطق التطور الطبيعي الذي يؤدي الى تحسن التأليف وفق منطق التجربة والخطأ والتصحيح ، ودليل ذلك أن منطق الترتيب والتبويب قد سبق العهد المملوكي بزمان طويل في مجالات التأليف في العلوم المترجمة والفلسفة وفي علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة واللغة وفي العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث .

ومنطق ارجاع التجديد في أسلوب التأليف الى قدماء المصريين يحرم المصريين العرب وغيرهم في العهد المملوكي من نعمة العقل والتفكير والاستفادة من التجربة ويرجع الفضل الى قدماء المصريين تجنيًا وعصبية إقليمية .

وقد أمعنت الطريقة الجديدة في التقسيم المنطقي فقسمت الموضوع الى أبواب والابواب الى فصول والفصول الى أطراف والاطراف الى مذاهب والمذاهب الى وجوه .

ويقول المرحوم الدكتور حمزه نفسه بأن هذا يشابه ما جرى قبل في اللغة من جعل الباب لأواخر الكلم والفصل لأوائله في ترتيب المعاجم اللغوية .

فكأنه الدكتور حمزة يردّ على نفسه ويعتبر أن هذا التطور التألفي كان ضمن الإطار العربي العام ولم يخرج عليه .

**ترجمة القلقشندي :**

كان أوسع المؤلفين ترجمة له السخاوي ، على أن ترجمته عنده كانت مفتضبة لا دقة فيها ولا توسع . وهذه ترجمته له كلها : « هو أحمد بن علي بن أحمد

ابن عبد الله التيهاب ابن الجبال أبي البسن الفزاري القلقشبندي ثم القاهري الشافعي  
والد النجم الذي سأتي ذكره (في كتاب السخاوي طعا) » •

« ولد سنة ٧٥٦ هـ ، واشتغل بالفقه وغيره وسع من ابن الشيخة ، ومن  
في وفته ، وكان أحد المضلاء ، ممن برع في الفقه والادب وكتب في الانشاء وناب  
في الحكم وشرح قطعا من جامع المختصرات ، بل برع في نظمه كذلك ، وعمل صبح  
الاعشى في قوانين الانشاء في أربعة مجلدات جسع فيه فأوعى ، وكان يستحضر  
أكثر ذلك ، مع جامع المختصرات والحاوي وكتاب في أنساب العرب ، وهو ممن  
نظم سيرة المؤبد لابن ناهض ، مع نواضع ومروءة •

« مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة وله  
خمس وستون سنة • ذكره شيخنا ( أي ابن حجر ) في معجبه والمقرئزي والعيني  
وآخرون • وسى العيني والمقرئزي والده عبد الله وهو وهم » •

وقال آخرون إنه برع في العربية ، وعرف الفرائض وشارك في الفقه وسمع  
الحديث ونظم وثر وأرخوا وفاته بلبلة السبت عاشر جمادى النانية » • واختلف  
من ترجسوا له مع السخاوي في اسم أبيه فقالوا إنه عبد الله • وهو ينتمي الى بني بدر  
من فزارة من فيس عيلان ، القبيلة العربية المشهورة ، وكان بنو فزارة قد نزلوا  
القلبوية وغلبوا عليها منذ الفتح الاسلامي • وكان لبني بدر هؤلاء الغلبة على  
سائر بني قومهم ، ومنهم بنو مازن بن فزارة ، وعلى جيرانهم •

بدأ أبو العباس تعليمه في بلده ثم انتقل الى الاسكندرية وتلقى العلم على  
مشهورى علمائها واشتغل بفنون العربية والأدب وقد أجازة فيها سراج الدين أبو  
حفص عمر بن أبي الحسن المشهور بابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الامام  
الشافعي رضي الله عنه وأجاز له أن يروي عنه كل تأليف له في الفقه والحديث  
وأن يروي كل ما جازت له روايته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعي  
ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك وكانت سنة إذ ذاك احدى وعشرين سنة •



### ج - أنساره :

هذا وقد عرض كثير من بلامبذ الفلقسندي عليه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول وعلوم العربية فأجازهم بها حفظوه منها .

عمل الفلقسندي ، بعد أن أجازته نسخه ، في التدريس ، وألّف في الفقه وكان يسيل فيه الى الاجتهاد ويطسح الى القضاء . وقد وضع في الفقه الكتب التالية :

١ - شرح جامع المختصرات في فروع الشافعية المنسوب الى كمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدي المدلجي ( ت ٧٥٧ هـ ) .

٢ - شرح الحاوي الصغير في الفروع للقزويني نجم الدين بن عبد الغفار ابن عبد الكريم الشافعي ( ت ٦٦٥ هـ ) . وألّف في هذه الفترة في الادب كتباً منها :

(١) حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم . ألّفه للمقرّ الزيني أبي يزيد الداودار الظاهري سنة ٧٩٤ هـ وكان الظاهر برقوق في هذه السنة قد ولّى أبا يزيد وظيفة الداودارية .

(٢) شرحاً على قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وقد قال فيه : « قد وضعت على هذه القصيدة شرحاً بديعاً سميت ( كنه المراد في شرح بانت سعاد ) فتح الله بمعان لم أقف عليها في شرح لها من قبل » .

وقد نبغ في الفقه والادب ولفت اليه الانظار فاختر لديوان الانشاء سنة ٧٩١ هـ أي في زمن الظاهر برقوق مؤسس الدولة البرجية . وكانت سنة حينئذ خمسا وثلاثين سنة .

وألّف في هذه المرحلة :

١ - مقامة في تقرّظ القاضي بدر الدين بن القاضي علاء الدين بن القاضي محبى الدين بن فضل الله . رئيس ديوان الانشاء حينئذ باسم « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » وهي في التعريف بكتابة الانشاء والثناء عليها بأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها وذكر فيها كثيراً من أصول صناعه الكتابة .

وكانت موجزة جدا فاحتاج الى شرحها في كتابه « صبح الاعشى » أو طلب منه ذلك .

٢ — « صبح الاعشى » الذي استمر في تأليفه زهاء عشرين سنة وانتهى منه في شوال سنة ٨١٤ هـ .

ثم رأى أن من الضروري للكاتب معرفة أنساب العرب فألف كتابين في ذلك هما التاليسان :

٣ — نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب وقد أهداه الى أبي الحسن يوسف الأموي . وهو بمثابة معجم في الانساب رنبت فيه القبائل والبطون على حروف الهجاء . وقد حققه في العراق الشيخ علي الخاقاني ( صاحب البيان ) عام ١٩٥٨ مع مقدمة مسهبة في الانساب عند العرب . وقام بتحقيقه في مصر الاستاذ ابراهيم الاياري ونشر عام ١٣٣٢ هـ بعناية سليمان الدخيل ( صاحب الرياض ) في بغداد .

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، وثانية في مكتبة الدولة ببرلين وثالثة في المتحف البريطاني ورابعة في النجف الاشرف . وخامسة في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد . وسادسة في سورية ، وسابعة في صوفيا . وقد أكمل النهاية وزاد عليها العلامة السويدي عام ١٢٢٩ هـ في كتابه « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » وهو مطبوع على الحجر ببغداد . وقد أثبت الاياري ان الكتاب لأبي العباس وليس لابنه محمد المشهور بالنجم .

جعل المؤلف كتابه ثلاثة أقسام : مقدمة ومقصداً وخاتمة . ذكر في المقدمة ما يحتاج اليه في علم الانساب ومعرفة القبائل وجعلها خمسة فصول : الاول في علم الانساب وفائده وبيان الحاجة اليه ، والثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر أنواعهم ، والثالث في معرفة طبقات الانساب ، والرابع في ذكر مساكن العرب القديمة التي منها درجوا الى سائر الاقطار ، والخامس في ذكر أمور يحتاج اليها الناظر في علم الانساب . وجعل المقصد فصلين : الاول في ذكر عمود النسب النبوي ، وما يتفرع عنه من الانساب والثاني في ذكر تفاصيل القبائل مرتبة على حروف المعجم . وتتألف الخاتمة من خمسة فصول :

الاول في ديانا العرب قبل الاسلام • والتاني في المفارحات بين قبائلهم •  
والثالث في الحروب بين العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام • والرابع في نيران العرب  
في الجاهلية • والخامس في أسواق العرب قبل الاسلام •

٤ - قلائد الجمان في التعريف بفبائل عرب الزمان وقد أهدها الى ابي  
المحسن محمد الجهني التسافعي المؤيدي صاحب ديوان الانشاء حينئذ • ذكر فيه  
أنه استدراك على كتابه السابق « النهاية » بالحذف والاضافة والتعديل وانتهى  
من تأليفه سنة ٨١٩ هـ أي قبل وفاته بعامين • وقد ألّفه بعد « صبح الاعشى »  
وذكر الأبياري أنّه أحال فيه على الصبح في موضعين مما يبرهن على أنّه ألّفه  
بعده ( مقدمة تحقيق نهاية الأرب للأبياري ص ٤ ) • وقد نسبه قلائد الجمان الى  
والد القلقشندي ولكنه له وقد رتبته على حروف المعجم كالنهاية • توجد منه  
نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في النجف الاشرف في خزانة الشيخ  
حسن الدخيلي •

٥ - اختصر المؤلف صبح الاعشى في كتابه « ضوء الصبح المسفر وجنى  
الدوح المثمر » علما منه بأنه ليس لبعض الناس صبر على قراءة الموسوعة ، وطبع  
المختصر في مطبعة الواعظ بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ •

٦ - للقلقشندي رسائل تزيد على المئة وقد أودعها « صبح الاعشى » •  
هذا وقد اشتهر القلقشندي بكتابه « صبح الاعشى » دون غيره وهو أهم منها  
جميعا ومن بينها النهاية •

ولذلك لقي اهتماما من دار الكتب المصرية فأصدرت الجزء الاول  
منه في أوائل القرن العشرين ولما رأت اعجاب الناس به واقبالهم عليه أتممت  
اصداره وفق أصول التحقيق الحديثة فخدمت الثقافة العربية خدمة كبيرة • ووجدت  
وزارة الثقافة والارشاد المصرية أنّ من الضروري تعريف المثقفين ودارسي العربية  
به فكلّفت المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة بالتعريف بهذه الموسوعة في كتاب  
نشرته له باسم « القلقشندي في كتابه ، صبح الاعشى » •

تمتاز طبعة دار الكتب المصرية بالثقيّد بأصول التحقيق الحديث ، ووضع

علامة بجانب العبارات التي يسكن نصحتها ندلّ على التوقف وترك فهمها لاجتهاد القارئ . والدلالة على الكتب التي رجع إليها في كل إصلاح أدخله المحققون ، وقبيل أكثر الكلمات بالشكل بالاعتناء على معاجم اللغة المنهورة ، ووضع علامات الترقيم بين الجمل وأجزاء العبارات لتسهيل الفهم على القارئ ، وتمييز الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأمثال العرب ، وحكمها ، بعلامات فارقة ، وشرح ما جاء فيه من الغريب في الحواشي .

صدر الكتاب في طبعة دار الكتب المصرية في زهاء خمسمائة وستة آلاف صفحة ونقع هذه الصفحات في أربعة عشر مجلدا .

#### مصادر الفلقشندي في تأليف « صبح الاعشى » :

ذكر الدكتور حنزة في كتابه عن الفلقشندي ( ص ٥٣ ، ٥٤ ) أن المصادر التي رجع إليها الفلقشندي لا تقلّ عن مئة وفد تزيد ، وأورد منها على سبيل المثال الكتب التالية :

- ذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان .
- حسن التوسل في صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي .
- المثل السائر لابن الأثير .
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .
- التذكرة لأبي الفضل الصولي .
- كتاب الأم للشافعي .
- العلم والدواة لمحمد بن علي .
- الملل والنحل للشهرستاني .
- قوانين الدواوين لابن بماتي .
- العقد الفريد لابن عبد ربه .
- حباة الحيوان للدميري .
- أدب الكاتب لابن قتيبة .
- صناعة الكتابة لأبي جعفر النحاس .

- كنز الكتاب لكتاجم •
- البيان والتبيين للجاحظ •
- الاوائل لابي هلال العسكري •
- الأحكام السلطانية للماوردي •
- تشريف الايام بسيرة الامام الملك المنصور • لمحيى الدين بن عبد الظاهر •
- التعريف بالمصطلح النريف لابن فضل الله العمري •
- تقويم البلدان لابي الفداء صاحب حماة •
- تثقيف التعريف لابن ناظر الجيتس •
- المسالك والممالك لابن فضل الله العمري •
- عجائب المخلوقات لابن الاثير •
- فضائل العرب لابن أبي عبيدة •
- نزهة المشتاق للإدريسي •
- معالم الكتابة لابن شيت •

وذكر الدكتور حمزة أن هناك كتباً أخرى لم يذكر القلقشندي أسماء مؤلفيها • وأورد منها على سبيل المثال :

الروض المعطار ، مواد البيان ، القانون ، تاريخ النيل ، كتاب الاطوال ،  
رسم المعمورة ، تاريخ صفد ، الهناء الدائم بمولد ابي القاسم ، الدرر المنتقط •

### كثرة الاهتمام بصبح الاعشى :

اهتم بدراسة صبح الاعشى كثير من المستشرقين فقد نشر الاستاذ سوفير في مارسيليا عام ١٨٨٦ — ١٨٨٧ م ( ملخصات من كتاب صبح الاعشى ) •

ونشر الاستاذ فيستنفلد ( جغرافية مصر للقلقشندي ) في جوتنجن عام ١٨٧٩ ، وكتب الاستاذ مارتن هارتمان بحثاً عن ( الفصول المتعلقة بالجغرافية الإدارية من صبح الاعشى ) تحقيقاً ومنتاً وترجمة في المجلة الآسيوية ٥٠ — ١٩١٦ •  
وكتب الأستاذ كانار عن ( الصلات السياسية بين بيزنطة ومصر في صبح الاعشى ) في مؤتمر المستشرقين ( ١٩ ) لعام ١٩٣٥ م • وطبع من صبح الاعشى

ثلاثة أجزاء عام ١٩١٣ في كلية أكسفورد عن النسخة الخطية الموجودة في خزانتها ، ونشرت هذه الأجزاء في مجلد واحد بدار الكتب ببولاق عام ١٩٢٣ هـ .  
وكتب عنه المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه ( تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ وما قاله في ص ٤١٦ - ٤١٧ ) ما يلي :

« تناول جميع المعارف، التي يحتاج إليها الكاتب المثالي ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام عن المواد والقلم والورق والخط الى المعلومات الواسعة في محيط الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة وهو يقدم وصفاً لنواحي مصر والشام ، بل ولجميع الدول التي لها أدنى علاقة بمصر ما يجعل من كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي والاقطار المتصلة به في أوائل القرن الخامس عشر .

ومن كتب عن القلقشندي من المؤلفين العرب : الاستاذ إبراهيم الايباري في مقدمة تحقيقه لكتاب « نهاية الأرب في أنساب العرب » وتحدث في هذه المقدمة عن كتبه ومنها « صبح الاعشى » .

ومن كتب عنه أيضاً الاستاذ صباح محمود الحلي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ( المجلد السابع والاربعون ج ٤ ، ص ٧٨٨ ) وقد تناول في مقاله موضوع « المناخ والقلقشندي » وعنه أخذنا ما كتبه المستشرقون عن القلقشندي .  
طبعت دار الكتب « صبح الاعشى » كاملاً ثم أعادت طبعه مصوراً .

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في مكتبة زكي باشا ، كما يذكر جرجي زيدان .

لم نهتم به نحن ؟ :

تمثل هذه الموسوعة جانباً من طاقتنا الروحية المستمدة من تراثنا الحضاري الذي يضمّ مثلنا العليا والذي نستطيع إذا ترجمناه الى عمل منسجم مع الظروف الحاضرة موجهً الى أهدافنا القومية المحددة أن نحقق به النصر . فهي تحمل

نمرات يانعه من الفكر العربي في مدى نَفِّ وتساوية فزون بدءاً من الحقبة البيروية حتى أيام المؤلف الأخير ، نمرات في فنون الإدلة والحكم وفي فنون النشر العربي الرسمي والظليق ، منظرة ميوّبة وفق الاغراض المتنوعة التي تشمل عليها ، وهي تعتبر من أجسع الموسوعات الأدبية التاريخية الاجتساعة منذ فجر التأليف حتى نهاية الخمس الاول من القرن التاسع الهجري .

وقد عدّه الشيخ محمد عبد الرسول في مقدمته لطبعة دار الكتب أنشأ كتاب أُلّف في اللغة العربية وآدابها .

### موضوعاته وأهميته :

لقد بيّن القلقشندي فيه كيف كانت حال اللغة العربية قبل الاسلام وكيف انتشرت بعده في أكثر بلاد الدنيا المعروفة في عصر المؤلف بعد أن أصبحت لغة القرآن والدين الاسلامي وانتشرت بانتشارها في بلاد فارس وما وراء النهر وبلاد الروم « الاناضول » وفي مصر وافريقية والمغرب الأقصى وبلاد الاندلس والهند والصين وكثير من بلاد أوروبا كصقلية .

وبيّن فيه كيف ازدهرت هذه اللغة زمن بني أمية وبني العباس وعنت مادتها . واتسع مجالها فأصبحت لغة العلوم والحكمة والجدل والمناظرة والتأليف ونظام الملك وسياسة الشعوب ولغة الفلسفة والعلوم العقلية من رياضيات ونجوم وهندسة وطب وكيمياء الى جانب انها لغة الادب والدين وبيّن فيه أطوار الكتابة العربية في شتى البلاد الاسلامية من ارتقاء ثم ضعف ووهن تبعاً لحال اللغة العربية وحال أهلها من الوهن باستيلاء المغيرين عليهم وهم غرباء عنهم وعن العربية .

وبيّن فيه طبقات الكتاب وأهل الادب ، الذين نالوا حظوة لدى الملوك ورعاية واحتراماً . وبيّن فيه الخلافة الاسلامية وشروطها ورسومها ومن وليها من الخلفاء الراشدين ومراكز ولاياتهم ، وخلفاء بني أمية بالشام والاندلس ، وخلفاء بني العباس ببغداد ، ومصر ، وخلفاء القاطنين بمصر ، ومن ادّعوا لانفسهم الخليفة من بقايا الموحددين في افريقية .

وبيّن فيه المسالك الإسلامية في المشرق والمغرب وما وصلت اليه من المجد والحضارة وبيّن حدودها وأنظمتها ورسومها وما اشتملت عليه من الفضائل والمحاسن والخواصّ والعجائب • وما فيها من الآثار القديمة ومن تتابع عليها من الملوك في الجاهلية والإسلام •

وشرح فيه النظم الإدارية في البلاد الإسلامية ، واهتمّ بجغرافية هذه البلاد ولا سيّما مصر والشام منها ، وبجغرافية البلاد الأوروبية المعروفة حينئذ وغيرها من بلاد الدنيا في إفريقيا وآسيا •

واهتمّ بخطط هذه البلاد ونهر النيل بخاصة فتحدّث عمّا يعتريه من زيادة ونقص • واهتمّ بتاريخها وما توالى عليها من أحداث وعُني بمناقب مصر والشام وخواصهما وعجائبهما وآثار مصر القديمة ومن ولي كلاً من القطرين قبل الإسلام وبعده وتحدّث عن شؤونهما العامة قديماً وحديثاً •

وقد استقصى المؤلف في هذه الموسوعة عدة كتب أدبية وعلمية نفيسة وجمع فيها ما نفرّق من معلومات • وعرض لآثار الكتابة الديوانية منذ كتبت الرسائل والوثائق زمن النبي الى عصره فيبيّن لنا بذلك أطوارها وأحوالها في العهود المختلفة متناولاً ما يقرب من عشرين فناً من الفنون السلطانية مورداً أمثلة عليها من مختلف العصور • ومن هذه الفنون على سبيل المثال :

تحرير الولايات والعهود والمبايعات والأيمان وكتب الأمان ، وعقود الصلح ، وكتب الهدنة والوصايا الدينية والمسامحات والإطلاقات والإقطاعات •

وكانت هذه الموسوعة بذلك كتاب تاريخ وسير وجغرافية ولغة وأدب وأمثال وحكم عربية وفقه وتفسير وحديث وبسط لنظم الحكومات بعامة ونظام حكومة مصر بخاصة •

وجمعت بين الفائدة والمتعة والشمول والدقة والصحة والوضوح ، وتنبّعت كل من فنون الكتابة السلطانية في عدة أقاليم • كالعراق والشام ومصر والحجاز والمغرب والأندلس • وكانت كتاب ثقافة عامة وتوعية للكتاب تعلّمهم أصولاً



عامة لا بد منها في جميع فنون الكتابة . واهتمت برفع مستوى الموظف الثقافي وجعله كفؤاً لعمله جديراً به .

وكانت لنا ذخراً قيماً بهنيء أنفسنا ببقائه وحفظه من الضياع وطبعه ونشره . وكانت شاهداً على ما لصاحبها من فطنة وقدرة وتمكّن من العربية وآدابها وسعة اطلاع في ميادين المعارف الأخرى .

وهذا ما جعلها تروج لدى المثقفين منذ حياة المؤلف فقد تسابفوا الى نسخها وذكر المؤلف ذلك في آخر كتابه وشكر الله عليه .

وقد أثبت القلقشندي بها أثره من أعظم رجال العهد الأوكي الذين كان لهم دور في حفظ الثقافة العربية وإحيائها وبنائها وتوجيهها وكان أحد عظماء العرب الذين صُرفوا عن السياسة والحكم والحرب فانصرفوا الى تشييد بناء الحضارة وال عمران بلبّات من العلم والادب والفن .

#### ما جملة على ناليف كتابه :

ذكر القلقشندي في تقديم الكتاب قيمة اللسان والقلم في الترجمة عمّا في الضمائر ، وشرف الكتابة على سائر الصنائع ومكانة الكتاب لدى الملوك ، وتقدير مصر في عصره على سائر الاقطار الاسلامية بحيث أصبحت مقرّ الخلافة وخادمة الحرمين وحامية القبليتين وغناها بفضل الكتاب على غيرها في الحديث والقديم .

نجوم سماء كلّما غاب كوكب " بدا كوكب تأوي اليه كواكبته "

ثم ذكر أن المؤلفين في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم فبعضهم اهتم ببيان أصولها وذكر شواهدا ، وبعضهم اهتم بذكر المصطلحات وبيان مقاصدها ، وبعضهم اهتم بتدوين الرسائل لتكون نماذج لمن بعدهم يسلك سبيلها ، وأتته لم يؤلف كتاب جامع شامل لجميع ما يطلب معرفته فيها .

ثم ذكر الدستور الموسوم « بالتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري - ويقصد بالدستور الكتاب الذي ينص على قواعد هذه الصنعة ، فيبين أنه من أنفس الكتب المؤلفة في هذا الموضوع إلا أنه أهمل أموراً لا يسوغ تركها

واحتيج الى غيره للاطلاع عليها ومما أهمله هذا الكتاب البطائق ، والمطلقات ، تم ذكر دستور ابن ناظر الجيش المسمى « تثقيف التعريف » الذي استندرك ما أنقصه العمري ولكنه أهمل مقاصد لا غنى عنها كالوصايا والاوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام ولم يغن عن سابقه وانفرد كل منهما بمحسنات وقد آنس من نفسه القدرة على استكمال النقص ورأى أنه يجب ألاّ يكتفي بمعرفة المصطلح وان يكمل ذلك بشرح أصول الصنعة وألاّ يكتفي بالتقليد وأن يضمّ إليه الاجتهاد :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

ثم ذكر أنه أنشأ مقامة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة حين بدأ العمل في ديوان الإنشاء بين فيها ما يجب على صاحب هذه الصنعة وطالبها معرفته من شؤونها ولكنها كانت لشدة إيجازها بمثابة الوحي والإشارة فأشار عليه صاحب الديوان حينئذ أن يشرحها بكتاب يستوفي فيه كل ما يتعلق بها فاستجاب له ولكن قريحته جمدت في بدء المحاولة ثم أسمحت .

#### مميزات كتابه في رأيه :

ثم بين أنه استوعب في كتابه من حيث المادة ما ضمّه كتابا التعريف والتثقيف مع إيضاح ما استبهم عندهما ، وضرب الأمثلة وتسهيل العبارة وطريقة العرض والتأليف ، ومع استكمال النقص في البحوث وتتبع فرع كل قضية وأصلها واستيفاء كل ما يحتاج اليه الناظر من قضايا الموضوع بحيث يجد جواباً لكل سؤال يعترضه ، مضيفاً الى ذلك أحوال الممالك المكاتبه وأقذارها معيّناً قواعدها وطريق الوصول اليها براً وبحراً وانقطاعاً واتصالاً مع ذكر مشاهير بلدانها وضبط أسمائها .

ونرى أن المؤلف متواضع فهو يطلب من مطالع كتابه أن يعذره على ما يجده فيه من نقص أو خطأ لأنّ نتائج الأفكار ليس لها حدّ تنتهي اليه ولكل انسان طاقة محدودة ثم يزيد غيره عليها .

وندرك من هذا التقديم سعة اطلاع المؤلف على الموضوع الذي يؤلف فيه وإلمامه بجوانبه واعترافه بالفضل للذين سبقوه وحسن خلقه وتواضعه العلمي ونستشف انه يتمنع بعقل منظم يحسن فيه تخطيط ما يريد أن يؤلف فيه ويشرحه ، ثم تبيّن سهولة أسلوبه ووضوحه برغم استعمال السجع كأهل عصره ، ونرى أنه يحلّي ثره في المقدمة بالشعر يأتي به من محفوظاته المختارة .

ثم ذكر في هذا التقديم أنّه سمّاه « صبح الأعشى » في كتابة الإنشاء ولم يقل سبب اختياره لهذا الاسم ولكنه مفهوم من خلال هذا التقديم نفسه فإنّه قد شرح في كتابه كل شيء يخص الكتابة شرحاً واضحاً سهلاً كافياً يضيء كالصبح المنير ويهدي الى الطريق حتى من كان أعشى ضعيف البصر .

ثم ذكر أنّه رتبّه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة وأنتم التقديم بذكر ما يتضمنه من المقدمة والمقالات العشر واحدة واحدة والخاتمة من موضوعات على التسلسل وهذا ما حملنا على وصف تأليفه بالفكر المنظم المخطط المرتب الشامل المستوفي .

## د - نصوص ديوانية مختلفة منه

### ١ - نص من الفصل الاول من المقالة الاولى :

وهو فيما يحتاج اليه الكاتب على سبيل الاجمال ( ج ١ ص ١٤٥ ) : « على أن كاتب الانشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم ولا يسعه الوقوف عند فنّ ، فقد قال الوزير ضياء الدين بن الاثير في « المثل السائر » أنّ صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فنّ من الفنون حتى إنّّه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء ، والمأشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة » . فما ظنك بما فوق هذا وذلك لأنّه مؤهل أن يهيم في كل واد ، فيحتاج الى أن يتعلق بكل فنّ ، بل قيل إنّ كلّ ذي علم يسوغ أن ينسب اليه فيقال فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة اليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن .

واعلم ان كاتب الانشاء وإن كان يحتاج الى النعلق بجميع العلوم والخوض  
في سائر الفنون فلبس احتياجه الى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج اليه  
بطريق الدات ، وهي مواد الانشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها ،  
كاللغة التي منها استمداد الالفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم  
البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتفسيح  
ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى ، وعلى هذا اقتصر الوزير ضياء الدين بن  
الأثير في المثل السائر وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه  
الله في كتابه « حسن التوسل » . ومنها ما يحتاج اليه بطريق العراض كالطب  
والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم فإنه يحتاج الى معرفة الأنفاظ الدائرة  
بين أهل كل علم والى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه  
لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون  
كالأنفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب ،  
ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به  
لمهندس ، وربما احتاج الى معرفة ما هو دون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماه  
البندق فيما يكتب به في قدمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب  
به في دستكرة فتوة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج الى معرفة مصطلح شكل الناس  
لكتابه أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطيلية فيما يكتب به لطيفي اقتراحاً أو  
امتنحاناً للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج الى  
وصفه كأوصاف الابطال والشجعان ، والجوارح ، الغلمان ، والخيال والإبل ،  
وجليل الوحش وسائر أصنافه ، وجوارح الوحش ، وير ، وطير الواجب ، والحمام  
الهدى ، وسائر أنواع الطير ، والسلاح بأنواعه وآلات الحصار ، والآلات الملوكية ،  
وآلات السفر ، وآلات الصيد ، وآلات المعاملة ، وآلات اللهو والطرب ، وآلات  
اللعب ، وآلات الشرب ، والمدن ، والحصون ، والمساجد ، وبيوت العبادات ،  
والرياضة ، والاشجار والازهار والثمار والبراري والقفار والمفاوز والجبال  
والرمال ، والأودية والبحار ، والأنهار وسائر المياه ، والسفن والكواكب والعناصر  
والأزمنة والأنواء والرياح والمطر والحر والبرد والثلج وما يتعلق بكل واحد من

هذه الأتباء أو يخرط في مسلكه ونحو ذلك مما ندعو الحاجة الى وصفه في حالة من حالات الكتابة على ما سبأتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى» \*

### كلمة في هذا النص :

هذا النص قيّم جداً يبرهن به المؤلف على ضرورة اطلاع الكاتب على كل علم وكل فن وكل شيء في الحياة صغر أو كبر لأنه قد يضطر الى الكتابة فيه مفاجأة على غير انتظار ولأنه يساعد على زيادة وعيه وفهمه للأمور فهماً صحيحاً شاملاً \*

٦ فالكاتب قد يطالب بكتابة شيء يتعلق بأمر السّفلة فعليه أن يعرف مصطلحهم وكل ما يتعلق بهم وقد يطالب بالكتابة في شيء من الهزل في التطفل فعليه أن يعرف أحوال الطفيلين وعاداتهم ومصطلحاتهم \* وأنت تخرج من النص مدركاً مقتنعاً بأن الكاتب يجب أن يلمّ بكل شيء ممّا يسمع أو يرى أو يلمس أو يتندوّق أو يدرك بالعقل أو يقرأ أو يتصور \*

وحبذا لو استطاع كتّابنا الحديثون ، صحفيّين أو قصصيّين أو كتّاب تمثيليات ، أن يؤسّسوا ثقافتهم ويطبّقوا ما يقوله هذا المؤلف ، إذاً لكانوا أعمق تناولاً وأصدق تجربةً وأصحّ حكماً وأبعد أفقاً وأقلّ إملاً وأكثر إثارة للإعجاب وأملك لخاصية الفن الصحيح \*

وبيننا وبين هذا المؤلّف الواعي سبعة قرون تقريباً ولكنه أكثر إحساساً بالفنّ الكتابي من كثيرين يعيشون بيننا \* ويذكرنا هذا المؤلّف مع زميله ضياء الدين بن الأثير بالكاتب الفرنسي « كوستاف فلوير » مؤلف مدام بوفاري الذي قيل إنه شرب السمّ الذي تشربه بطلة قصته ليحس بعوارض هذا السم ويسر بالآلامه فيحسن وصفها \* ويستعين القلقشندي في مطلع النص برأي ابن الأثير الذي يفق هو معه في الرأي وقد رأى ابن الأثير أن يعرف الكاتب ما تقوله كل من النادبة والماشطة وما يقول المنادي في السوق \*

واسمهاده يقول ابن الاثير دليل كثرة مطالعته وحسن فهمه لآراء غيره  
وسماواتهم \* وهو لا يكتفي برأي ابن الاثير وأمثله بل يبين تبياناً منطقياً أن  
الكاتب إذا كان عليه أن يلم بكل شيء فإن إلمامه بالأشياء يجب ألا يكون  
مساوياً ويجب أن يفرق بين الأكثر ضرورة والضروري والكمالي \* فاللغة والنحو  
علوم البلاغة معارف أساسية يجب إتقانها \* وقد اقتصر بعضهم على ذكرها في  
كتبه كابن الاثير والسهbab محمود ، على احساسهما بضرورة معرفة الكاتب بكل  
شيء \* كما رأينا في كلام ابن الاثير في النص المعروض \*

رسموا ما يحتاج اليه بطريق العرض أي ما هو كمالي ليست الحاجة اليه  
أتمة ولكن معرفته ضرورية وقد ذكر المؤلف لذلك أمثلة كثيرة شملت أكثر  
إباحي الذاكرة مما يقع تحت الحس والمشاهدة أو يدخل في حيز الاستعمال \*  
والله أعلم \* على سعة تجربته وشمول نظره وغنى فكره وخياله  
والله آذانه وقد نوسع في هذه الأمثلة بين جيد وهزل وساء وأرض وطبيعة وصناعة  
والله وحده \* علم وفن \*

وإتسنا ذكر ذلك كله في هذا الموضوع من قبيل الأمثلة ثم يبين أنه سيبين  
ذلك في آخر الفصل الثاني من هذا الباب وبذلك يثبت مرة أخرى حسن تخطيطه  
وترتيبه في تأليف كتابه \*

ونلاحظ أن أسلوب المؤلف في هذا النص \* واضح سهل خال من التكلف  
والصناعة ومن السجع اتجهت عنايته فيه الى الأداء \* لي ووفق فيه الى ما أراد \*

## ٢ - قال المؤلف شندني ( في الجزء التاسع من صبح الاعشى ص ٢١٣ ) :

ومعذرة نسخة بيعة مرتبة على خلع خليفة أنشأتها على هذه الطريقة أيضا  
( ما يروى ان انتتح البيعة ، بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله ) ، وتعرضت  
فيها لذكر السلطان القائم بها ، على ما تقدم في البيعة المرتبة على موت خليفة وهي :  
« اللهم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مئابة للناس  
وأقام شئور الامامة وقاية للأنام وحصنا ، وشدا لها بالعصاة القرشية  
أزرا وشاد منها بالعصبة العباسية ركنا \* وأغاث الخلق بإمام هدى حسن

سيرة وصفنا سريره . فراق صورده ورقى معنى . وجسع فلوبهم عليه فلم ينسكف  
عن الانساد البه أعلى ولا أدنى ، ونزع حليابها عن نسل بعبرها فلم بعبرها نظراً  
ولم يصنع اليها أذنا ، وصرف وجهها عن أساء فيها تصرفاً فلم يرفع بها رأساً  
ولم يعمر لها معنى . نحمده على نعمه حلت ومن جلت الخطوب حين جلت :  
ومسكاراً سرت الى القلوب فسرّت ، ومباراً أفرّت العيون فقرّت وعوارف أمّت  
الخلقة فتوالت وباركت ، وقدم صدق تبّت إن شاء الله في الخلافة فما تزلزلت  
ولا زلت .

ونسهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا من درك الشكوك  
كاثرة ، ولماوي الشبه دارّة ، وللمقاصد الجميلة حاوية ، ولشقة الزين والارتباب  
طاوية ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى نصح الأمة إذ بلغ فشقى عليها وأوردها  
من مناهل الرشد ما أطفأ وهجها وبرّد غليلها وأوضح لهم مناهج الحق ودعاهم  
اليها . وأبان لهم سبل الهداية . ( فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ  
فإنما يضلّ عليها ) صلى الله عليه وعلى آله وسلم أئمة الخير وخير الأئمة ، ورضي  
الله عن أصحابه أولياء العدل وعدول الأمة صلاة ورضوانا يعمّان سائرهم  
ويشملان أولهم وآخرهم ، سيما الصديق الفائز ، بأعلى الرتبين صدقاً وتصديقاً ،  
والحائز قصب السبق في الفضيلتين علماً وتحقيقاً ، ومن عدل الانصار إليه عن  
سعد بن عباد بعد ما أجمعوا على تقديمه ، وبادر المهاجرون الى بيعته اعترافاً  
بتفضيله وتكريمه ، والفاروق الشديد في الله بأساً واللين في الله جانباً ، والمؤفي  
للخلافة حقاً والمؤدي للامامة واجباً ، والقائم في نصرة الدين حق القيام حتى  
عمّت فتوحه الأمصار مشارقاً ومغارباً ، وأطاعته العناصر الاربعة : إذ كان لله  
طائعاً ومن الله خائفاً والى الله راغباً ، وذو النورين المعول عليه من بين سائر  
أصحاب الشورى تنوياً بقدره ، والمختص بالاختيار تفضيلاً لأمره ، من  
حصّر في بيته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره ، وشاهد سيوف قاتليه  
عياناً فقابل فتكاتها بجميل صبره ، وأبي الحسن الذي أعرض عن الخلافة حين  
سئلاها ، واستغنى منها بعد ما اضطرّ اليها وقبلها . وكشف له عن حقيقة الدنيا

فما أمّ قبلتها بقلبه ، ولا ولّى وجهه قبلتها وصرّح بسقاطعتها بقوله : « يا صرءاء عرّى غبري ، يا ببضاء غرّى غبري ، لما وصلها من وصلها ، وسائر الخلفاء الراشدين بعدهم ، الناهجين نهجهم الواردين وردهم » .

أمّا بعدُ فإنّ للإمامة شروطاً يجب اعتبارها في الامام ، ولوازم لا يغتفر فوائها في الابتداء ولا في الدوام ، وأوصافاً يتعين إعمالها ، وآداباً لا يسع إهمالها : من أهمّها العدالة التي ملاكها التقوى ، وأساسها مراقبة الله في السر والنجوى ، وبها تقع الهيبة لصاحبها فيُجَلّ وتُميل النفوس إليها فلا تحلّ \* فهي الملكة الداعية الى ترك الكبائر واجتنابها والزاجرة عن الإصرار على الصفات وارتكابها ، والباعثة على مخالفة النفس ونهيها عن الشهوات ، والصارفة عن انتهاك حرّمات الله التي هي أعظم الحرّمات ، والموجبة للتعقّف عن المحارم ، والحاملة على تجنب الظلمات وردّ المظالم ، والشجاعة التي بها حماية البيضة والذبّ عنها ، والاستظهار بالغزو على نكاية الطائفة الكافرة والغض منها ، والقوة بالشوكة على تنفيذ الأوامر وإمضاءها وإقامة الحدود واستيفائها ونشر كلمة الحق ، وإعلائها ، ودحض كلمة الباطل واخفائها \* وقطع مادة الفساد وحسم أدوائها ، والرأي المؤدي الى السياسة وحسن التدبير والمغني في كثير من الاماكن عن مزيد الجهد والتشمير والمعين في خدع الحرب ومكايده والمسعف في مصادر كل أمر وموارده \* .

هذا وقد جعلنا الله أمة وسطاً ووعظنا بمن سلف من الامم ممن تفرّد وعتا أو تجبر وسطاً ، وعصم أمتنا أن تجتمع على الضلال ، وصان جمعنا عن الخطل في الفعال والمقال ، وندبنا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسوّغ لأمتنا الاجتهاد في النوازل والاحكام فاجتهادهم لا ينكر خصوصاً في شأن الإمامة التي هي آكد أسباب المعالم الدينية وأقواها ، وأرفع المناصب الدنيوية وأعلاها ، وأعزّ الرتب رتبة وأغلاها ، وأحقّها بالنظر في أمرها وأوّلها . وكان القائم بأمر المسلمين الآن فلان بن فلان الفلاني ممّن حاد عن الصراط المستقيم وسلك غير النهج القويم ومال عن سنن الخلفاء الراشدين فأدرك الزلل وقارف المآثم فعاد بالخلل ، فعاث في الارض فساداً ، وخالف الرشد فساداً ، ومال الى الغي اعتماداً \* . وأسلم الى



الهُوى ضادا . قد انتقل عن طور الخلافه . وعزیز الإنافه الى طور العامة فاتصف بصفاتهم ، واتسم بسماتهم : فمنكر " يجب عدل إنكاره فد ناشره ، وصديق سوء يتعين عليه إبعاده قد وازره وظاهره : إن سلك فسبيل النهمه والارتياح ، أو قصد أمراً نجا به عن الصواب ، منهك " على سهواه ، منعكف على لذاته . متشاغل عن أمر الأمة بأمر بنه وبناته : الجبن رأس ماله ، وعدم الرضى قربنه في أفعاله وأقواله ، قد قنع من الخلافه باسمها ، ورضي من الإمامة بوسمها ، وظن " أن السؤدد في لبس السواد فمال الى الحبف ، وتوهم أن القاطع الغمد فقطع النظر عن السيف .

ولما اطلع الناس منه على هذه المنكرات ، وعرفوه بهذه السمات ، وتحققوا فيه هذه الوجهات ، رغبوا في استبداله وأجمعوا على خلعه وزواله ، فلعجؤوا الى السلطان الاعظم الملك الفلاني ( بالالقب السلطانية الى آخرها ) نصر الله جنوده وأسمى جدوده وأرهف على عداة الله حدوده ، ففوضوا أمرهم في ذلك اليه وألقوا كلهم عليه ، فجمع أهل الحل والعقد منهم ومن تصدر إليهم الأمور وترد عنهم فاستخاروا الله تعالى وخلعوه من ولايته وخرجوا عن بيعته ، وانسلخوا عن طاعته وجردوه من خلافته . تجريد السيف من الفراب ، وطووا حكم إمامه ، كطي السجل للكتاب ، وعندما بم هذا الخلع وانطوى حكمه على البت والقطع ، التمس الناس إماماً يقوم بأمور الإمامة فيوفّيها ويجمع شروطها ويستوفيها ، فلم يجدوا لها أهلاً ، ولا بها أحق وأولى ، وأوفى بها وأملى ، من السيد الاعظم الإمام النبوي سليل الخلافة ، وولي الإمامة أبي فلان فلان العباسي الطائع لله ( مثلاً ) أمير المؤمنين . لا زال شرفه باذخاً ، وعرينه الشريف شامخاً ، وعهد ولايته لعهد كل ولاية ناسخاً ، فساموه بعتها فلبى ، وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى علما منه بأنها تعيّن عليه ، وانحصرن فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل اليه . اذ هو ابن بجدتها ، وفارس نجدتها ، ومزِيل غمّتها وكاشف كربتها ، ومُجَلّي عاهبها ومُحمّد عواقبها ، وموضح مذهبها ، وحاكها المكين بل رسيدها الأمين ، فنهض المقام الشريف السلطاني الملكي الملاني المشار إليه : قرن الله مقاصده الشريفة

بالجراح . وأعماله الصالحة بالفلاح . وبدر الى سعه فبايع وأثم به من حضر من أهل الحلّ والعقد فتابع ، وقابل عقدها بالقبول فمضى ، ولزم حكمها وانقضى ، واصل ذلك بسائر الرعية فانقادوا . وعلسوا صوابه فستوا على سنّيه وما حادوا . وشاع خبر ذلك في الأمصار ، وطارت به مَخَلِّقات البشائر الى سائر الأقطار ، فنعرفوا منه اليَمَنُ فسارعوا الى امثاله ، وتحقّقوا صحته وثباته بعد اضطرابه واعتلاله ، واستعاذوا من نقص يصيبه بعد تمامه لهذا الخليفة وكماله ، فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها وحبل وفائها وكريم مظهرها ، وجادت بجزيل الامتنان ، وتلا لسان كرمها الوفي على ولبها الصادق ( هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ) ، فجدد بالسلطنة التريمة عهداً وطوّق حيدده بتفويضها اليه عقداً ، وجعله وصيّ في الدين ، ووليّه في أمر المسلمين وقلّده أمر الممالك الاسلاميه وألقى اليه مقاليدها ، وملّكه أزمّتتها ، وحقّق له مواعيدها وعقد له لواءها وثر عليه أعلامها وصرّفه فيها على الإطلاق وفوّض إليه أحكامها وألبسه الخلعة السوداء ، فكانت لسؤدده شعارا ، وأسبغ عليه رداءها فكان له دثارا ، وكتب له العهد فسقى المعاهد صوب العهد ، ولهج الأنام بذكره فاطمأنت العباد والبلاد ، وعندما تمّ هذا الفصل ، وتقرّر هذا الاصل ، وأمست الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين وبنعمته مستبشرين ، طوبأ أهل البيعة بما يحملهم على الوفاء ويمنع بيعتهم من التكدر بعد الصماء : من توثّق عقدها بمؤكّد أيّمانها والإقامة على الطاعة لخليفتها وسلطانها فبادروا الى ذلك مسرعين ، والى داعيه مهطعين ، وبالغوا في الموائيق وأكثدوا وشدّدوا في الإيمان وعقدوها ، وأقسموا بالله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة ، عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، في البدء والإعادة ، وعلى الوفاء لهما والموالاتة ، والنصح والمصافاة ، والموافقة والمشايعة والطاعة ، والمتابعة ، يوالون من والاهما ويعادون من عاداهما ، لا بقعدون عن مناصرتهم عند إمام مئسّسة ، ولا يرقبون في عدوّهما إلاّ ولا ذمّة ، جارين في ذلك على سنن الدوام والاستمرار والثبوت والزوم والاستقرار ، على أنّ من بدّل منهم من ذلك شرطاً أو عمّى له رسماً ، أو حاد عن طريقه أو غيّر له حكماً ، أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانة ، أو اسنحلّ الغدر ، وأظهر الخيانة ،

مُعلنًا أو مُسِرًّا في كَلِّه أو بعضه ، مأوَّلاً أو محالاً لإبطاله أو نفضه ، فعد  
 رىء من حَوْلِ الله الميى وهو به الوافى وركنه التديى ودمته الوافى الى حول  
 نفسه وفوته . وركنه ودمته . وكلُّ امرأه في عصمه الآن أو ينزوجه مدة  
 حباته طالق ثلاثاً بصريح لفظ لا ينوقف على نيّة ، ولا يفرّق فيه بين سنة ولا  
 بدعه . ولا رجعة فيه ولا مَنَوَرَّة وكلّ مسلوك في ملكه أو يملكه في بقه  
 عمره من ذكر أو أنثى حرّ من أحرار المسلمين . وكلّ ما هو على ملكه أو يملكه  
 في بقية عمره الى آخر أيامه من عين أو عرض صدقة للفقراء والمساكين ، وعلبه  
 الحج الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة بتلاثين عمره ، راجلاً حافياً حاسراً لا يقبل  
 الله منه غير الوفاء بها باطناً ولا ظاهراً وإهداء مئة بدنة في كل حجة منها في عسرة  
 وبسرة . لا تجزئه واحدة منها عن حجة الاسلام وعمرته ، وصوم الدهر خلا  
 المنهي عنه من أيام السنة ، وصلاة ألف ركعة في كل ليلة لا يباح له دون أدائها  
 عمن ولا سنة ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ولا يؤجر على شيء من ذلك  
 قولاً ولا فعلاً ، متى ورى في ذلك أو استثنى أو تأوّل أو استفتى كان الحنث  
 اله عائداً ، وله الى دار البوار قائداً ، معتمداً في ذلك أشد المذهب في سرّه  
 وعلايته ، على نية المستخلف له دون نيّته وأمضوها بيعة محكمة المباني ثابتة  
 القواعد كريمة المساعي جميلة المقاصد ، طيبة الجنى جليلة العوائد ، قاطعة البراهين  
 ظاهرة الشواهد ، وأشهدوها على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من  
 فضاء الإسلام وعلسائه وأئمة الدين وفقهائه ، بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله  
 شهيدا ، وكفى به للخائنين خصيما : ( فمن نكث فأنما ينكت على نفسه ومن أوفى  
 بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ) . والله تعالى يجعل انتقالهم من أدنى الى  
 أعلى ومن يسرى الى يمنى ، ويحقق لهم بما استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله  
 تعالى : ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض  
 كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم  
 من بعد خوفهم أمناً ) إن شاء الله تعالى .

وهذه هي الطرّه التي كتبها لهذه البيعة وفد كتبها بالقلم نفسه الذي كتب  
 به البيعة . » وهذه بيعة ميمونة ، باليسن مبتدأة بالسعد مقرونة ، لمولانا السيد

الجليل الإمام النبوي المنوكل على الله أبي عبد الله محمد أمير المؤمنين ، ابن الامام المعتمد بالله أبي الفتح أبي بكر العباسي ، زاد الله تعالى شرفه علّوا وفخاره سوساً . فام بعدها السلطان السبد الأعظم . والشاهنشاه المعظم . الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ، خلّد الله تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ، بمجمع من أهل الحل والعقد ، والاعتبار والنقد . من القضاة والعلماء والامراء ووجوه الناس والوزراء والصلحاء والنصحاء ، وإمضائها على السداد . والنجع والرشاد . على ما شرح فيه .

ومنه يهم أن الطثرة هي خلاصه ما في البيعة المعروفه بمضمونها ، وتوضّع قبلها .

### كلمة في هذا النص :

كتب هذه البيعة القلقشندي نفسه مؤلف كتاب صبح الأعشى وهي تعطينا صورة عن عقود البيعة بالخلافة التي كانت تكتب في ذلك الزمان . وهي الصورة التي كانت تبدأ بعد البسملة بحمد الله .

ونلاحظ أنه ذكر خلال الحمد مكانة بيت الخلافة لدى الناس وضرورة الخلافة لاستقرار أمورهم ويبيّن منذ استهلاله بالحمد أن الموضوع هو خلق خليفة ظهر فساد وتولية خليفة هو الأحق بها . وهو يحمّد الله على نعمه الكثيرة التي منها هذه النعمة .

ثم يأتي بالشهادتين ويصلّي على النبي ويدعو بالرضى لأصحابه ويخصّ بالذكر الخلفاء الراشدين الأربعة ويبيّن خلال ذلك مشروعية الخلافة وكيف بدأت بعد النبي بأبي بكر وأنه كان أحقّ من غيره بها ، وذكر خلال ذلك ما يتّصف به كل خليفة من الأربعة الراشدين من فضائل لتكون نبراساً للخلفاء بعدهم . وهذه هي المقدمة التمهيدية . ثم يأتي بأما بعد فيباشر بها الدخول في صلب الموضوع . ويقدم له بشروط الإمامة من الأخلاق التي يجب أن تتوافر في الخليفة فاذا خرج عليها استحلّ إبطال بيعته ، وهي العبدالة التي ملاكها التقوى والشجاعة والرأي الرشيد .

نم يبين أن الله جعل هذه الأمة وسطاً وجعل أهلها شهداء على الناس وأنهم الاجتهاد لما فيه مصلحتهم ولما كانت الخلافة أهم شيء عندهم وكان الخليفة القائم قد ظهر فسادهم لهم فقد حق لهم النحل من بيعته • ولذلك لجؤوا الى السلطان وفوضوا أمرهم اليه فجمع أهل الحل والعقد فاتفقوا على خلعه ثم التمسوا إماماً يحل محلّه فوجدوا أحق الناس سنبسبب الخلافة الطائع لله • • فدعوه الى توليه فلبى ، وعلى ذلك بايعه السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق ، وتابعه في هذه البيعة أهل الحل والعقد وامتلت الرعبة لهذه البيعة وأيدتهما وقابل الخليفة الاحسان بالاحسان فجدد للسلطان عهد السلطنة وثبته في منصبه وفوض اليه تدبير شؤون المسلمين وأصبحت الرعايا بذلك جميعه فرحين •

وعلى ذلك فان أهل البيعة من أرباب الحل والعقد مطالبون بالوفاء للخليفة • والسلطان معاً والامثال لأوامرها •

وهو يستعمل الإيمان المتشدّد للإخلاص لهذه البيعة وعدم الاخلال بمضمونها والخروج عليها •

ثم يذكر أنهم أوردوها بيعة محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي مباركة النتائج وجعلوا الله شهيدا عليها أوّلاً والفقهاء وقضاة الاسلام وعلماءه ثانياً •

ويختم البيعة بذكر آيتين تندّد الاولى بالغادرين وتعد الوافين بالأجر العظيم وتعد الثانية المؤمنين الصالحين بالسيادة والتمكن والأمن •

والبيعة بهذه الصورة قد رتبت ترتيباً منطقياً يتسلسل فيه من المقدمات الى النتائج وتعطينا صورة سياسية واجتماعية لذلك العهد •

فقد كانت الخلافة أعلى منصب ديني اجتماعي ظاهراً ، ولكن الخليفة في الحقيقة لم يكن له حول ولا طول وكان مظهرأ لا أثر له في تصريف الامور وتغييرها ، يتخذ ستارة يبرّر بها أعمال السلاطين المستبدن الغريين عن البلاد •

وهذا العهد يحاول خداع الامة سظاھر كاذبة مس الشورى یتقنّد بها ما جرى زمن الخلفاء الراشدين فالخليفة المخلوع لم تخلعه الامة وانما خلعه السلطان الذي بيده القوه المادية والسلطة العسكرية . والعلاء الذين أفنّوا بخلعه يمالئون السلطان خوفاً أو نفاقا ويعلمون أنهم لا يستطيعون تغييره فلبستجبوا إذا لإرادته .

والخليفة الجديد قد يكون أسوأ من القديم أو أقل كفاءة وصلاً منه ، ولكنّ السلطان يريد تنصيبه ليضفي الشرعية على سلطنته ولذلك يدعي العهد بأنّ الخليفة المخلوع قد ظهر للناس فسادُه ففوّضوا السلطان في التصرف . وأهل الحل والعقد أكثرهم من أمراء الجيش الذين باتمروا بأمر السلطان . والسلطان يجمعهم فيتفقون على خلع خليفة ونولية آخر بوصف بأنه أصلح رجالان البيت العباسي للخلافة فيوافق فيبايعه السلطان ويباع السلطان أهل الحل والعقد وتستبشر الرعية بذلك وتؤيد البعة .

وتتمّ المسرحية بأن يقابل الخليفة الجديد الحسنه بالحسنه فبصدر تقليداً بتجديد التفويض بالسلطنة للسلطان الذي يسخر بالجميع لأنّ بيده القوة . والتفويض يجعل يد السلطان مطلقة في شؤون الرعية وتدير أمور الدولة . والخليفة يسلم نفسه من كل سلطة ليجعلها في عنق السلطان . والحقيقة أنّه لم يكن ولن يكون له سلطة لينسلخ منها . والشعب هو الصحية وهو مصدر السلطة والمبايعه قولاً ، ولكنه ليس له شيء من الرأي في شؤونه عملاً .

ويرى كعب يطالب الشعب بالإخلاص لبيعة لم تكن له إرادة فيها وبأن يمي بشروطها ومستلزماتها وهو مكره عليها وليس ذلك من الإسلام ولا من الشورى في شيء . ثم يرى كيف نشدّد الأيمان على أهل الحل والعقد أو من يزعم أنهم كذلك ، وعلى غيرهم من الرعية ، فمن غدر بعهد طلقت نساؤه وحُرّمت عليه أمواله ونحرت جواربه وعبيده ولزمه كذا حجة وكذا عسرة ... الخ .

وإنما ينشدّدون بهذه الأيمان اسمراراً في السنّه الی سنّھا الحجاج حين كان يجبر أهل العراق على مبايعه الخلفاء الأمويين . وأغرب شيء أنّ عهد الخلافة

الذي بين أيدينا يمرض على الله سبحانه وتعالى نفسه أن ينقبّل العبادات من عباده أو لا يتقبلها وفقا لصالح من كتب هذا العهد من أجلهم . وهذه وقاحة على الله لا ندري كيف قبلها العرب والمسلمون وفقهاؤهم : ( لا يقبل الله صرفا ولا عدلا ولا يؤجر على شيء من ذلك قولا ولا فعلا ) . وهذا افتراء على الله .

ويظهر أن سلاطين ذلك الزمان قد استسهلوا خداعهم باسم الشورى والبيعة .

وبعد فإنّ العهد قد تناسب في الطول مع عظم مقام الخلافة أو مع ما يفترض وبُتوهم من عِظم هذا المَقام حينئذ .

وظاهر فيه الإسهاب بإيراد الجمل المترادفة والفقرات المسجوعة المطوّلة وبسط المعاني بما يمكن إيجازه في عبارات قليلة .

وظاهر فيه نكلف الصور البيانية والفنون البديعية من سجع وطباق وجناس واقتباس وغير ذلك من ألوان البديع .

وظاهر فيه الملق للحكام والمبالغة في التعظيم والتوقير لهم وممالاتهم في ذم الخليفة المخلوع ومدح الخليفة المنصوب .

وظاهر فيه قلّة الغريب وسهولة التراكيب ووضوح المقصود ، وجمال الأداء .

وظاهر فيه استيفاء ما يجب استيفاءه في مثل هذه الصكوك الفقهية القانونية .

٣ - وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة من انشاء الشهاب محمود الحلبي رحمه الله وهي تمثل الكتابة الديوانية في العهد المملوكي التركي :

ملاحظة : قبل أن نورد النص نلفت النظر الى أنّ القلقشندي كان قد تكلم على ترتيب وظائف السلطنة في المقالة الثانية ويبيّن أن الكفالة وهي نيابة السلطنة بالحضرة هي أعلى رتب نيابة السلطنة ، وأنّ النائب الكافل يحكم في

كل ما يحكم فيه السلطان ويعلّم في التقاليد والنواقيع والمناشير وغير ذلك بخلاف غيره من النواب فإنّ كل نائب لا يعلّم الا على ما يختصّ بخاصة نيابته • وقد تقدّم في مقدمة الولايات أنّ لقبه « المقرئ الكريم » على ما استقرّ عليه الحال :

وهذا هو نص التقليد : « صبح الأعشى ، ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ » :

« الحمد لله الذي جعل ركن الدولة في دولتنا القاهره ثابت القواعد ، على فرقد الفراق ، راقيا في رتب العلوّ الآخذة من أفق التأييد بالمطالع ومن ثطّقت العز بالمعاهد ، حاليا بعقود المهابة التي لا تزال لرعبها على الأعداء طلائع خيل في المراقب ورائع خيال في المراقب ، حاويا من أنواع المفاخر ما لو كاثرت الداراري غدت وهي لمجموعه بفراق ، أو فاخرته الدرر ثقتها الأفكار النواقد ، مقلدا من سيوف الظفر ما لا تنبو في نصرة الإسلام مضاربه وكيف تنبو وأوامرنا لعقود حمائلها على عواقب مجده عواقب • نحمده على نعمه التي عدت أمور دولتنا بمن يرفع بأسه نارها ، وعقدت قواعد مملكتنا بمن يوالي فضله أنوارها ، وعضدت هيم أوليائنا بمن اذا تخيلت أعداء الدين مواقع صوارمه كان امنح صونها إسارها وأنفع سلاحها فرارها •

ونشهد أنّ لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق الهمم بلوامعها ، وتشرق الكليم بجوامعها ، وتزكو الأمم بما تنقل اللسان منها عن القلوب الى مسامعها ، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا الله لنصر دينه وألهمنا تفويض مصالح أمته الى كل ولي ما رفعت راية نصر الا تلقاها عرابة مجده بيمينه ، وعضدنا في جهاد أعدائه بأعزّ صفي ينوب بأسه للجيش عن طلعه ويقوم رأيه في الحرب مقام كمينه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين اختارهم لصحبته وارتضاهم وأرهنهم لإقامة ملته وانتضاهم ، فمنهم من فاز بمزيتي سبقه وتصديقه ، ومنهم من كان الشيطان ينكب عن طريقه ومنهم من اختار الشهادة على الانتصار بطريقه ورفيقه ، ومنهم من أقامه بشرف الاخوة معه مقام شقيقه ، صلاة يبلغه إخلاص مقيمها ويعرض عليه إيمان مديمها وسلم •



أما بعدُ فإننا من حث أورنا الله ملك الاسلام لا عن كلاله ، وألبسنا في  
مواقف الدبّ عن دبنه حلل العز المعلقة بالجلالة ومكّن لنا في أركسه وألفه  
بسنون الجهاد وفرضه ، ونشر دعوه ملكنا في طول الوجود وعرضه — لم نزل  
نرتاد لكفالة الممالك الإسلامية من تأوي منه الى ركن شديد ورأي شديد وحزم  
يقرّب من مواهب الصر كل بعد ، وعزم إذا أرهف صوارمه من أدنى الصعبد .  
وجف لهول مواقعها باب الحديد ، فهو المطوي في أثناء صمائرنا وإن تقلدها فله  
سواه « المنوي في احناء سرائرنا وانما لامرء ما نواه قد حلب قيدمٌ معجزته  
الدهرَ أشطره وكتب حس خبره ، من عنوان السير أسطره وتسلت من آد  
الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها وتردّدت تجارب الأمم على بسره  
فعلم ما يأتي وما يذر في تركها واقتنائها ، واستقبل دولة أسلافنا الشريفة من  
فواتحها ، فكان لسان محاسنها ، وبنان مامنها ، وخزانة سرها وكنانة نهجها  
وأمرها ، وطليعه تأييدها ، وذريعة أوليائها الى عوارفها وجودها وعنوان أخبارها .  
وعنان سوابقها التي لا تدرك مآثر من سلف نق غبارها ، ويسين قبضنها المصرفة  
من البأس والندى وأمين آرائها المؤيدة بالتوفيق اللدني على العدا ، وركنها المشيد  
بالأمل وهو تبنى عليه الممالك ، وحصنها المصفّح بالصفاح فلا تستطيع الأهواء  
أن تتوقّل اليه تلك المسالك ، وزعيم جيوشها التي اجتت من قصب قواضيه  
ثمر النصر غير مرة ، ومقدّم عساكرها التي اجتلت به وجوه الظفر الحلوه في أيام  
الكريهة المرة .

ولما كان المقرّ الكريم ( الفلاني ) هو معنى هذه الصفات المهمة ، ومبني ديدنه  
القواعد المحكمة ، وطراز حل هذه الاحوال المعلمة ، وسرّ المقاصد الظاهرة وسامات  
هذه ( النجوم ) الزاهية ، بل فلك هذه الدراري الزاهرة ، تحلّق صوادح  
البراعة فتقع دون أوصافه بمراحل ، وتغوص سوابح البراعة ، فيلقبها العجز عن  
استخراج درر نعوته بالسواحل ، فأوصافه تذكر على وجه الاجمال لسبق نطاق  
الفصاحة عن تفصيلها ، ومناقبه تشكر بلسان الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن  
بلوغها الى غايتها ووصولها فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفسح مجال اليدى ،  
بتفويض إيالة الملك اليه ، وان تقطع آمال العدا ، بالاعتماد في زعامة الجيوش

الاسلامية عليه ، وأن تقرّ عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والاحسان الى يديه ، وأن نصون عقائل المسالك من مهابته بما يغدو سوراً لعواصمها وسواراً لمعاصمها ، وشنباً تفتر ثغورها عن بروفه ، أو لهيباً يقطع طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ، ليعتضد الدين مه بركنه ، وبغلب (على) الشرك في حالي حربه ، ووهنه ، ويتقلب كل من رعايانا بين وهاد يثمنه ومهاد أمّنه — رسم بالامر الشريف — لا زال ملكه عليّ الاركان ، راقياً من أفق النصر الى أعلى مكانة ، وأرفع مكان — ان تنقوض اليه نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الاسلامية على أكمل العوائد ، وأجمل القواعد تفويضاً تمضي أحكامه في الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ، ولا يعدل في سلمها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه .

فليستقرّ في هذه الرتبة العالية استقرار الأركان المواكث ، والأطوار اللوالبث ، والأصول النوابث ، والنجوم الثوابث ، مؤثلاً قواعدها برأيه السديد ورايته ، معوذاً كمالها بسيف النصر وآيته . مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه ومن الإحسان بغايته ، مكثراً أعداد الجيوش الاسلامية برأيه السعيد ، مقرباً من مطامح النصر النائية كل بعيد ، موكّلاً بحركات العدو وسكناته جفنأ لا يألّف الفرار<sup>(١)</sup> وسيفاً لا يعرف القرار ، وعزماً لا يرضى من عدوّه دون اصطلامه الفرار ، فلا تزال جيوش الإسلام بجميل تعاوده مزاحمة العوائق ، مزالة القلائق ، لا مانع لها عن الركوب ولا قاطع عن الوثوب . قد أعدّها عزائمها ، فكل زمانها بالتأهب للقاء وقت امكانه ، وأمدّت بأسسها صوارمه ، فهي لا تسأل عن عدد عدوّها بل عن مكانه . مقيماً منار العدل الذي هو أساس الملك ودعامته ، ورأس الحكم بأمر الله في خلقه وهامته ، ونور الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته<sup>(٢)</sup> ناشراً له في أقطار الممالك ، ماحياً بنور اقامته آية ليل الظلم الحالكة معاضداً أحكام الشريعة المطهرة بالانقياد اليها والاعتماد في الحل والعقد عليها

(١) الفرار : النوم القليل أو القليل من كل شيء .

(٢) العامة : قبض السنابل اذا اجتمعت بعد حصدها ، وجمعها عام .

والاحتمال برفع سيارها : فإنّ ذلك من أفضل ما قدّمته الدول الصالحة بين يديها  
مقدماً عماره البلاد على كل مهمّ . فإنّها الأمل الذي تنفرع عنه المصالح على  
انفراقها ، والمادّة التي نستطيع الجيوش الاسلاميه على العداله بتوسعها في إنقاذها  
وانماؤها ، والأسباب التي تعين الغيوت على نماء ما بسط الله لعباده من أرزاقها ،  
وأكّد مصالحها الرفق الذي ما كان في شيء الا زانه ، والعدل الذي ما اتصف  
به مثلك الا حفظه وصانه ، فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا المطاع ،  
واقصرنا عن ذكر الوصايا بما في خصائصه الكريمة من حسن الاضطلاع وجميل  
الاطّلاع ، واكتفينا بما في خلائقه الجميلة من محاسن لو تخيّر نفسه لم يزدها  
على ما فيه من كرم الطباع ، والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعل ركّنه من أثبت  
فواعد الدين وقد جعل ، إن شاء الله تعالى .

#### كلمة في النص :

النص السابق تقليد بكفالة السلطنة كتبه الشهاب محمود كاتب المر الذي  
كان شاعراً كاتباً .

وهذا التقليد صادر عن رب سيف هو السلطان الى رب سيف هو الامير  
المحارب من الممالك المكلف بنبابة السلطنة من مرتبة الكفالة في هذا التقليد .  
بدأ التقليد بعد البسملة بحمد الله ، ككتاب العهد بالخلافة السابق ، ثم انتقل من  
التحميد الى الشهادتين بالله وبرسوله وبالرضى عن الخلفاء الاربعة الراشدين من  
الصحابه الكرام . وجاء بأما بعد التي انتقل بها الى صلب الموضوع ، وختم كلامه  
بالدعاء بالتوفيق وبفوله ان شاء الله تعالى .

وفي خلال الحمد يفخر المكتوب باسمه بقوة دولته وهيئتها ونصرتها الاسلام  
وبالاعتزاز بأمراء الجند الذين ينصرون هذه الدولة . وأثناء ايراد الشهادتين يشي  
على من قوّض اليهم خدمة مصالح الامة والقيام باعمال الجهاد ومنهم أعزّ صفي  
بينهم الذي امتاز ببأسه وشجاعته ورأبه . وحين الترضي عن الخلفاء الراشدين  
ذكر من صفاتهم ما يصلح أن يكون وصفا للنائب الكافل من حيث الاستقامة  
والإيثار والأخوة .

في سلب المرسوم بعد أما بعد يتحدث عن الصفات المطلوبة في النائب  
الذي من حيث الكفاءة والاخلاص والشجاعة والرأي وحسن الإدارة واليقظة  
بما أن الامتداد لم يبين أن هذه الصفات قد توافرت كلها في المنتدب لهذه  
المرتبة (المقر الكريم) ولذلك رأى الجنب السلطاني تعيينه في هذه المرتبة وتقويض  
أمر السيادة والإدارة والحرب وكل مهام السلطنة اليه بالنيابة مع وجوده معه  
في جعفرته .

ويبدو أن يصح بصفات مثالية يذكر أنه لم يجد داعيا لتقديم الوصايا اليه  
لأنه له من كفاءته وأخلاقه ما ينوب عن هذه الوصايا وبالحقيقة نستطيع أن نعد  
كل ما تقدم من مدحه بصفات مثالية بمثابة الوصايا له ولكنها قدمت بذوق  
ولسانية .

بالاعتبار أن هذا النص أقصر من نص عهد الخلافة وهذا بنسجم مع القاعدة  
بالطول العمد يتناسب مع مقام المکتوب في شأنه .

ويرى أن هذا النص أكثر انسجاما مع الواقع وصداقا مع النفس والحقيقة  
لأنه يدرسه على الشعب في قضيتي الشورى والحرية فرجل سيف هو سلطان  
بمرتبة النائب الكافل أحد رجاله لاعتماده عليه وهو مثله رجل حرب ومن  
البيان ، وكلاهما يفهم لغة القوة ولم ينص في العهد على أنواع مشددة أو  
متمددة من الإيمان .

وهو يصور الصفات المثالية التي يجب أن يصف بها رجل السلطة من حملة  
الربوب في ذلك العهد .

وأسلوب النص مطب تكثر فيه الجمل المترادفة وقد التزم فيه السجع والصناعة  
البديعية من طباق وجناس وتورية واقتباس .

وهو لصناعته ومثاقه نسجه وما حله فيه كاتبه من الشعر ، وما استعمله فيه  
من النصور البيانية الكثيرة ومن الألفاظ العذبة والتراكيب الجزلة يكاد يكون شعرا  
لولا فساد الوزن والإطناب ويكفي متالا على ذلك أن ننبه الى أنه قرب خاتمة  
المهد فدل حل البيت :

فلو صورّت نفسك لم تزدّها على ما فيك من كرم الطباع  
والسجع ظاهر في جميع العهد لا ضرورة للدلالة عليه وكذلك الجناس :  
المصنف بالصفاح ، والطباق : نهيا وأمرها ، والمبالغة : اذا أرهف صوارمه من أدنى  
الصعيد وجف لهول مواقعها باب الحديد •  
ونظهر كثافة الصور البيانية في قوله :

فهو المطوي في أثماء ضماثنا وإن تقلّدها قبله سواء • والمنويّ في أحناء  
سرائرنا وإنما لامرئ ما نواه : قد حلب قِدَمُ هجرته الدهر أسطره وكتب حسن  
خبرته من عنوان السر أسطره ، وتمثلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع  
في صفائها ... الخ •

وهذا الاسلوب ينسم بالخيالة الشعرية • ومثل ذلك قوله :  
وزعيم جيوشها التي اجنتت من فصب قواضيه ، ثمر النصر غير مرّة ، ومثدّم  
عساكرها التي اجنلت به وجوه الظفر الحلوة في أيام الكريهة المرة •

### هـ - نسان منه في الانشاء الوصفي ( الكتابة الاخوانية )

نص لابن نباتة في وصف زيادة النيل زيادة مفرطة ( جاء في صبح الأعشى  
للقلقشندي في الجزء ١٤ ، ص ٢٧٤ ) •

#### مقدمة للقلقشندي :

« ومما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب  
جوانح نظمها وثرها وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب اختر من دُرّها ،  
فسبحان من يسّر له ممتنع الكلام وهوّته ، وجعله من الذين يستمعون القول  
فيسبّعون أحسنه • فما أشف دقيق فكره الجليل وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه  
على زهر مقطعات النيل فما كان الا مخصصاً في الادب ببحر الهبات ، وكلامه في  
العدوبة والبلاغة يزري بالفرات وابن الفرات • وإنّ قيل : أى أصدق كلمة قالها  
شاعر بعد لبّد بقال قول ابن نباتة :

فلا عجب للفظي حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات

## الأنبياء :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه وامتدّ نصل تسّاره  
كأنسيه الصقيل فقتل الإقليم وهذا الاحرار انما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قسّلت والدم في النصل شاهد عجب

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفّاه ولا وهذا بل جبلا إلا أخفاه ، أقبل كالأسد  
الهصور اذا احتدّ واضطرم • وجاء من سنّ الجنادل فتحدّر وعلا حتى بلغ  
أقصى الهرم • وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيّد بالنصر  
فائلا : ان كنت بليت بالاحتراف في أرضكم فأنا أفيض بأن أرمي من بروق  
نبارى بشرر كالقصر •

هذا وطالما قابلنا قلبها بوجه جميل وسمعنا عنه كل خير ثابت ويزيد  
كما قال جميل ، وكل بديع من آثار جود يصنع الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن  
صبغة الليل وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة ، وكنمازل  
الخصب ، ندمومه المبارك ذات غبطة ، ومنحناه ، بولاء وثناء هذا يدور من الاخلاص  
بشكلك وهذا يندب من البحار بنقطة • كم ورد الى البلاد ضيفا ومعه القرى • وكم  
أنى مر ، لا بمعجز آيات الخصب الى أهل القرى ، فهو جواد قد خلع الرسن ،  
ساهر في مصالح الخلق وقد ملا الأمن أجفانهم بالوسن ، جامع لأهل مصر من  
سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كما بات سير مقياسه  
يشمل بظلك الغائبين والحاضرين ، وكم رفع على الماء راية صفراء<sup>(١)</sup> فاقع لونها  
نسر النائلين وبلغ وبلغ بخير التيار سلامه ، وبان ، اس بوفائه من حذار الغلاء  
تحت الستر والسلامة ، وخلق صدر العمود ، وكيف لا يخلق بشير العباد  
والبلاد ، ودعا مصر لأخذ زخرفها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد •  
وبسط بده بركة الماء فقيل : سلام لك من أصحاب البمين : وخضّب بنانه •  
وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب البنان يمين ، وأشار الى وصول المد المتتابع  
وفض يده المخلقة على الماء فوفت وما خابت فروج الأصابع ، ونادى رائد الوفاء ،

(١) الراية الصفراء شعار الدولة المملوكية .

ولكن كم حاء في الارض لم ننادي . ونست أصابع الزيادة ونسب حتى قال الناس :  
ما ذي أصابع دى أبادي \*

هذا وفد فترت زرابى الدور المبثونة بالنسار . وقال المقياس : نغطت  
منها الدرّج فنال الرجاء وظهرت الدقائق ، فهو جم المنافع عذب المنابع ، بثّار في  
الحفبة والمجاز اليه بالأصابع \*

فأعاده الله الى ذلك النعم المعهود . وآرانا منه الأمان من الطوفان الى أن نرد  
الحوض المورد ، وكفى أهل مصر هذه المصيبة التى إذا أصابهم قالوا : إنا لله  
وإنا اليه راجعون ، ولا ابتلاهم بسبل ما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم في  
آذانهم ، واستغشوا ثيابهم فإتسا يستغشي ثيابه منهم القراء في المطر ويجعل  
أصابعه في آذانه منهم المؤذّنون ، اللهم انك وليّ النعمة ، وأولى برحمة خلقك  
من فيض هذه الرحمة » \*

#### كلمة في هذا النص :

أورد المؤلف نصّ ابن نباتة فسنس جيلة نصوص وردت في وصف زيادة النيل  
تلك الزيادة المفرطة التي يخشى فيها من أدى طوفانه \*

وهذا النص من جيلة النصوص غير الديوانية وهو كما ترى في وصف  
الطبيعة القوية الطاغية وقد ورد ضمن الرسائل التي توصف فيها الحوادث والمآثرات  
وقد رأينا أنه يعني بالرسائل ما يكتبه الادباء في غير المكاتبات الديوانية .  
وقد قدّم للنص بتعظيم أدب ابن نباتة شعره وثره واعتزاز ابن نباتة نفسه  
بأدبه وحلاوه لفظه في لبّيت الذي أورده له . وقد جعل زهر أدبه يضحك ويزري  
بزهر مقطّعات النيل كما جعل لمظه أعذب من الفرات ويزري بأبن الفرات الشاعر  
المشهور \*

وهو يصف ماء النيل بقوة الاندفاع وباحمرار الماء والعلو في مبالغه ظاهرة  
فقد جعله يبلغ أقصى الهرم . وهو حائر بين غبطته بزيادته وسروره بما تأتي به من  
خير وبين خوفه من أدى زيادته المفرطة ورجائه ألا ينقلب الى مصيبة بقول الناس  
معها إنا لله وإنا اليه راجعون \*

ونراه يشيد بخيرانه ويعنى بوصف زيادته على الحد الأعلى لمقباسه : فوفى وزاد وعم بخيره البلاد • ويختم كلامه بالدعاء الى الله أن يحفظ الناس من افراط فيضه •

وتبدو ثقافة الكاتب الادبى في كثير من العبارات كقوله : « يزيد كما قال جميل وهو يشير بذلك الى بيت جميل شينة :

إذا قلت ما بي يا شينة قاتلي من الحب قالت : ثابت ويزيد •  
وتبدو شاعريته في صناعة نثره وأخيلته القريبة من الشعر وفي استشاده بالشعر خلال نثره •

وقد أغرق في السجع وفي سائر ألوان الصناعة البديعية كالاستخدام في قوله : وبلغ وبلغ بخير التيار سلامه • وأكثر من الصور البيانية ومنها قوله : « وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد » • وجميع كلامه على هذا النمط ، واقتبس من القرآن : « وقد قرنت زرابي الدور المبثوثة بالنمارق : وضمن الشعر : وما خابت فروج الاصابع » ما ذي أصابع ذي أيادي » وخيااه جميل وألفاظه رقيقة •

## ٢ - نص من رسالة وهو في المناور :

قال (١) في « التعريف » : « وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار » •

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاءكو من التتار • وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة ( يريد مملكة السلاطين المماليك في مصر والشام ) • كان من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهاراً للإعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول

---

(١) بقصد ابن فضل الله العمري مؤلف كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو من رجالات العهد المملوكي التركي . ومؤلف « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » .



البلاد لحرب أو اغارة . وهذه المناور ناره تكون على رؤوس الجبال ونارة تكون في أبنه عاليه ومواضعها معروفه يعرف بها أكثر السفّاره ، وهي من أقصى تغور الاسلام كالبيزة والرحبه ، وإلى حصره السلطان بقلعة الجبل حنى إن المتجدد بالفران إن كان بكيرة علم به عشاء . وإن كان عشاء علم به بكيرة « وليسا يترفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤبه العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد ونارة في غير ذلك ، وقد أرصد في كل منور الديادب<sup>(١)</sup> والنظاره لرؤية ما وراءهم وإيراد ما أمامهم ولهم على ذلك جوامك مقررّة كانت ولا تزال دارّة . قال وكان يثنوّر بمدنه عانة من تلك المسلكة فوم من النصح بحجة أمر سوى التنوير ويستتر عليهم أهل البلد حباً لملوكنا فترى نازة ناره أو دخانه بخربة الروم وبالجراف أيضا . ويرفع فيهما أو في إحداها فرى من كل منهما بوادي الهكل . . . » ( وبعدّ بعد ذلك كبف ترفع النار من مركز الى مركز حتى تصل الى السلطان في قلعة القاهرة ) .

هذا النص لس من إنساء الفلستندي وانما هو نص من كتاب التعريف أحد مراجع المؤلف التي ذكرناها قبل .

وهو هنا يشرح صوره استعمال هذه النيران والأدخنة وأرسالها على أشكال مختلفة للدلالة على الاحوال المختلفة المتسودة . وبذكر أماكنها من الجبال والابنية ومراكزها المسالية وصفاً واضحاً دقيقاً ويتبين من هذا الوصف أهبيتها في سرعة نقل أخبار العدو وفي الحرب والسلام وهي جزء مهم من أعمال رجال المخابرات حينئذ .

ويلاحظ في آخر ما أوردناه من النص كبف كان يتستر الناس على مرسلتي هذه النيران من البلاد الخاضعة للعدو لأنهم يعرفون أنه عدوهم ويرون أن سلطانهم الشرعي هو السلطان القائم في القاهرة .

ويدلنا النص على أن الممالك استفادوا من العيون والارصاد في البلاد التي

---

(١) الديادب جمع ديدان وهو الحارس . والجوامك الروابب مفردة على القياس جامك .

خضعت للنتار ليكونوا دائماً على استعداد ونعثة ، وأنّ عمل أولئك العيون والارصاد كان لوناً من الكفاح العقيدى صد المحتلّ .

والنص مموّق عني بالمعلومات المفيدة خال من الصنعه والتكلف سهل الاسلوب مألوف الألفاظ ولم يخلّ من استعمال بعض الالفاظ الأعجبية المعربة ( كالديادب ) و ( الجوامك ) .

#### ملاحظة خاتمة :

كان آخر ما ختم به المؤلف الكتاب حسده الله على أن هذا الكتاب قد راج سوقه ففسارع الناس الى تناسخه إعظماً لقيّمته .

ولا يذكر المؤلف ذلك منجّحاً بل متواضعاً فرحاً بأنّه قدم الى إخوانه الكتاب ما يعجبهم ويفيدهم .

ونختم نحن حديثنا عن هذا الكتاب بأنّه قد سدّ ثغرة في تاريخنا الحضاري الادبي الديواني حبّذا نحن لو وعينا واجبنا فعرفنا كيف نسدّ مثل هذه الثغرة في عصرنا وسعينا جاهدين الى القيام بواجبنا نحو أنفسنا وأمتنا ووطننا ، وبأنّ النصوص التي أوردناها للقلقشندي وغيره من كتّاب العهدين المملوكيين كانت تسودها الصناعة البيانية والبديعية ولكنها اذا قيست بنصوص القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الأثير في العهد الايوبي ظهر أنها أسهل أسلوباً وأوضح معاني وأقل تكلفاً وأكمل طريقة وأقرب فهمها وأكثر ملاءمة لمقتضى الحال في الكتابة الدبوانية وفي الكتابة الإخوانية ، من حيث الدقة والوضوح وسهولة الفهم وتجنّب الالتباس .

## انديانة السامية في ظل الدولة العثمانية

المامة عامة موجزة (١) :

بدأ قيام الدولة العثمانية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي على أنقاض الدولة السلجوقية التركية في الأناضول وأخذت تستولي على أجزاء من الدولة البيزنطية واستمرت اماره تحبط بها الدول المجاوره مدة سبعين سنة فاضطرت ان تبقى دائما في حالة حشد واستعداد دائم للحرب واتخذت بروسة عاصمة لها ثم استولت على قطعة من الارض الاوروية فحولت عاصمتها الى « أدرنه » واستولى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م على القسطنطينية التي عجز عن فتحها القواد الكبار من العرب وغيرهم ، ففتح بذلك أفقا جديدا لامبراطورية تركية واسعة فقد استطاع باستيلائه على مضيقي البوسفور والدرديل أن يثبت قدميه في كل من آسيا وأوروبا واستطاع خلفاؤه من بعده أن يوسعوا امبراطوريتهم بحيث أصبحت تضم البلاد العربية وجزءا واسعا من القارة الاوروية ، ونسكن قائده البحري خير الدين بارباروس باشا هو وأخوه من أن يستوليا بفضل الجيش والاسطول التركيين القويين على الجزائر وأن يسيطرا على البحر المتوسط ثم اسنولى خير الدين على جزء كبير من تونس • وجاء سنان باشا الألباني فأكمل الاستيلاء على تونس وأرسل في سنة ١٥٦٨ م من مصر وكان يحكمها حينئذ حملة الى اليمن استكملت الاستيلاء عليه حتى وصلت الى رأس الخليج العربي ولم يكن الاترك قبله قد اسنولوا الا على عدن ومسقط •

واستطاع سنان باشا أن يطرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب وأن يستولي عليها ويستكمل شمال افريقيا ما عدا القسم المرتفع من مراكش المسمى موريتانيا ، على أن طرابلس وتونس والجزائر بقيت شبه مستقلة وكانت تتبع الباب العالي اسما ، وكان الحكم فيها وراثيا عسكريا فرديا يدلل فيه الحاكم على خضوعه للسلطان العثماني بارسال هدية اليه تقوم مقام الجزية وقد أصبحت سلطة

(١) ملخصة عن تاريخ العرب لفيليب حني مع بعض تعليقات واستنهادات من الشعر في هذا العصر .

حكام سبال افريميا بعد ذلك أكبر من سلطه حكام سوربه ومصر حين ضعف الاسطول العثماني في البحر المتوسط .

وكانت أعمال القرصنة ندر أرباحاً كبيره على حكومات سبال افريميا وشعبها وكان القراصنة فيها يشتركون مع الاسطول التركي في معاركه صد أعدائه وكثيرا ما كان يعمل معهم منميون من اسبانيا ، وقد بلغت القرصنة أوجها في النصف الاول من القرن السابع عشر ، ثم كافحتها كل من انجلترا وفرنسا وأجبرتاها على عدم التعرض لهما على أن الدول الصغرى ، ومنها الولايات المتحدة حينئذ ، استمرت ندفع الجزية لها لتسمح لسفنها بالمرور حتى استولت فرنسا على الجزائر فتحولت القرصنة من الافراد اليها والى الدول الاستعمارية الاخرى التي أخذت تستعمر الشعوب فجعلت القرصنة عامة تشمل البر والبحر وجميع الشعوب المستضعفة .

تمت أكثر الفتوحات في شمال افريقا في عهد سليمان الاول ابن سليم وبلغت الدولة العثمانية أوجها في عهده فأخضع أكثر بلاد المجر ( هونغاريا ) وحاصر فيينا وأقتتج رودس وامتدت سلطته من بودابست على الدانوب الى بغداد ومن شبه جزيرة القرم شمالا حتى شلال النيل الاول جنوبا .

وتولى السلطان مراد الرابع السلطنة سنة ١٠٣٣ هـ ثم غزا بلاد فارس سنة ١٠٤٤ هـ زمن الشاه عباس وفتح « روان » وفي سنة ١٠٤٨ هـ فتح بغداد بعد حصار ٤٠ يوما ، وقتل عشرين ألفاً من الفرس .

وقال المجبّي ( خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ) : « أكثر الناس من نظم الشعر والتواريخ لفتحها ومن ذلك قول تاج الدين المالكي :

خليفة الله مراد غزا	قلعة بغداد فأرداها
وعندما حاصرها جيشه	اندك للأسفل أعلاها
وأصبح الشاه ذيحاً كما	أجبر عن كثرة قتلاها
هذا اختصار القول فيها فإن	قيل لقد اجملت ذكراها
فلتشرحن فعل مراد بها	مؤرخا ، قد ذبح الشاهها

ووقع في زمنه سيل كبير أغرق مكة وهدم الكعبة فعُدّ من مآثره بناؤها

وكان عاشر من بناها فأرّخ ذلك أحدهم نرا بقوله : « رفع الله قواعد البت » •  
وقال أحدهم :

«بختهم من آلِ عثمان بدرهم  
مُرَادُ المعالي أسعد الله شارقَه»

« خلاصة الاثر ٤ : ٣٤٠ - ٣٤١ »

تولى بعده أخوه السلطان ابراهيم بن أحمد سنة ١٠٤٤ هـ وفي عهده فتحت  
قلعة القوزاق سنة ١٠٥ هـ وقلعة خانية جزيرة أقریطش ( كريت ) دون قلعه  
( فندبة ) الحصينة • وقد مدحه الأمير منجك صديق ابن النقيب فقال :

لو كنت أطمع بالمنام نوهشما  
لسألت طيفك أن يزور تكرشما

\* \* \*

ملك من الإيمان جرّد صارما      بالحق حتى الكفر أصبح مسلما  
لو شاهد المطرود<sup>(١)</sup> سطوة بأسه في صلب آدم للسجود تقدّما  
العدل أخرس كان قبل زمانه      أذنت له الأيام أن ينكلما  
لم تخط أساد الفلا في عهده      بين السقائق خيفة أن تنهّما  
عقد المثار على العداة سحائباً      لولا الحيا لسقى العدا منها دما  
ودعت ظباه الطير حتى إته      قد كان يسقط فرخه نسر السما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

\* \* \*

وعُزل ابراهيم فتولى مكانه ابنه محمد الرابع وهو صغير السن فتهاون به  
رؤساء الدولة واضطربت الامور حتى تولى الصدارة الوزير محمد باشا كوبرلي  
فقضى على الفساد الداخلي ثم افتتح قلعة ( ينوه ) وبعض القلاع الاخرى •

(١) المطرود : ابليس .

وفامت نورة في بلاد الشام خلال عيابه بزعامه والي حلب ووالي دمشق  
وجمع كبير من العسكر فقتل التائرون مع من ناصرهم من سكان البلاد \*

وخلف محمد كوبرلي ابنه أحمد كوبرلي وكان عهده حتى أواسط مدته خير  
العهود رونقاً وحفظاً للدين وتنميذاً لاحكام الشريعة \* وقد أسهم في الفتوح وهزم  
بوار المجر \*

وتمّ على يديه فتح قلعة ( قندية ) بعد حصار سنتين ، صلحا سنة ١٠٨٠ هـ  
فسلّمها اليه قائدها « موروزفين » \*

« خلاصة الاثر ٤ : ٣١١ ، و ١ : ٣٥٣ »

وقد عظم المرح بهذا الفتح وعتت البتائر ونظمت فيه التواريخ ، ومدحه  
ابن النقيب ( ت ١٠٨١ هـ ) بقصيدة مطلعها :

ما آل بـرمك في ذرا بغداد يوم الفخار ولا بنو عبّاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ — ٩٣ »

كانت الامبراطورية العثمانية أطول الدول الاسلامية عمرا ، امتد حكمها من  
سنة ١٣٠٠ م حتى سنة ١٩٢٢ م على تفاوت في الضعف والقوة والسعة والضيق  
بين مختلف عهودها \*

فام نظام العثمانيين على سلطنة الأسره وعلى القوة العسكرية وكان الهدف  
الرئيسي من الحكم مصلحة السلطان ومن بليه من الحكام وليس مصلحة الرعايا  
التي كانت تضم قوميات وبلادا مختلفة وأديانا متعدده وثقافات متباينة متفاوتة  
ولا يجمع بينها الا الخضوع لقوة السيف \* وكان الفلاحون الاتراك أنفسهم  
معدودين في جملة الرعايا فقد كانوا يخضعون لافراد الطبقة الحاكمة ، وكان  
الاتراك أقلية بالنسبة الى مجموعة الشعوب التي سيطروا عليها ، ولم يحاولوا  
أن يستعمروا البلاد العربية أو يحلوا جاليات تركية فيها الا في بدء القرن العشرين  
حين قاموا بمحاولة التنريك على أساس نقل أسر عربية الى الاناضول وأسر تركية  
الى سورية وغيرها \* وكانوا يسحون لانفسهم بالزواج من غير المسلمين

ويستخدمون في أعمال الحكومة شبانا غير مسلمين وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون في الاسلام مجددين بذلك حيوية الدم التركي عن طريق التزاوج المستمر ، وقد وصل كثير من الجراكسة واليونان والألبانيين والسلاف والطيالان والأرمن إلى أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى ( أي رئاسة الوزراء ) .

حصلت هذه الدولة بذور الانحلال في طياتها لأنها تكونت من خليط غير متجانس لا يمكن أن يثبت أمام دول مناهضة مجاورة تسودها قومبه واحده .  
ومما زاد في ضعفها نظام الملة ، وهو ترك الطوائف الدينية تتمتع بقدار كاف من الاستقلال الذاتي حاولت فيه الدولة العشائبة ان تحلّ مشكلة الأقليات .

ومن أسباب الضعف أيضا تركيز السلطة في يد رجل واحد هو السلطان الخليفة<sup>(١)</sup> ، وعدم وجود نظام دقيق للاستخلاف فكثيرا ما كان أبناء السلاطين يقتل بعضهم بعضا أو يدسّ بعضهم لبعض في سبيل السلطة .

ومن أسباب الضعف عدم تجديد النظام العسكري الانكشاري فقد كان في أول الدولة رائعا وكان له الفضل في النصر ؛ ولكنه فسد بعد وأصبح علة ضعفها وانكسارها لأن السلاطين لم يراعوا عوامل الزمن فيجده دوه الا حين لم يعد ينفع العلاج زمن السلطان محمود الثاني ، بسبب ضعف الدولة ، وقد انتهز محمد علي باشا حاكم مصر فرصة محاولة التجديد ليوجه إلى الامبراطورية ضربة فاصلة كادت تقضي عليها لولا وقوف انجلترا بجانبها .

وقف سيل الفتح التركي منذ خيبة الجيش في الاستيلاء على فيينا سنة ١٦٨٣ م وأصبح هم الاتراك أن يجدوا الوسيلة للاحتفاظ بما فتحوه وتحويلوا إلى مدافعين .

ومن أسباب الضعف نظام الجباية الذي كان يضمّن لائس يستغلّون الشعب ولم يكن ليهتم السلطان أو الحكام الا بالحصول على أكبر قدر من المال ولذلك كان ملتزموا الضرائب للسلطان أو للوالي يفتنون في فرضها على الرعايا ، وفي ابتزازهم .

(١) لم يطلق على السلطان لقب الخليفة الا في عهد متأخر في القرن التاسع عشر الميلادي .

قال الغزي : « ولما بلغ الإمام عليّ بن محمد المقدسي ( ٨٥٦ - ٩٣٤ هـ ) ان العثمانيين صربوا الجزية حتى على المومسات ننخع الدم من كبده ، وتمنى الموت ، للقهر الذي أصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغيّر الاحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الايات :

ليت شعري من على الشام دعا بدعاء خالص قد سمعا  
فكدها نللسه مع وحنه فهي نبكينا ونبكها معا  
دعا من مسه الضر من الظلم والجور اللذين اجنمعا  
فعلا السحب دعا فانبعث غارة الله سا قد وفعلا  
فأصاب الشام ما حل بها سنة الله التي قد أبدعا

« الكواكب السائرة ج ٢ ، ص ١٩٣ »

فالغزي يأسى هنا لما أصاب الشام من بلاء بسيطرة العثمانيين عليها وارهاقهم أهلها بالمظالم . والايات وان كان ظاهرها التسكي من أهل البلد أنفسهم وان ما حل بها هو نتيجة الفساد فيها واستجابة من الله للمظلوم من أهلها . الا أنها تنخس النشكي من الدولة العثمانية التي أوصلت الامة المحكومة الى هذه الحال من البؤس ، وهي تتضمن ضرورة اصلاح الناس أنفسهم وأخلاقهم وضرورة تضامهم ليرتفع عنهم غضب الله وأذى الظالم وهي ترتدي الطابع المستسلم للاقدار غير أنها تدعو دعوة مستترة الى عدم الرضا بالظلم وفيها تكرار لا مبرر له الا تأكيد معنى الظلم في أذهان الناس وفيها طلاوة تعبير وموسيقا جميلة كقوله : فهي نبكينا ونبكها معا ، ولكن فيها كذلك تهربا من مجابهة المسؤولية ومن التخطيط لتغيير الحال .

ومن أسباب الضعف أيضا نظام الاقطاع الذي جعل أصحاب الارض الكبار ينصرفون عن الإعداد للحرب الى الاستمتاع بما تدر عليهم أراضيهم الواسعة ونرواتهم الطائلة .



وبضاف الى الاسباب السابغة طمع الدول الاوروبية القوية في أن تحصل لدى  
بركيا على مناطق نموذ ، وذلك حين ضعفت الدولة العثمانية وأصبحت نسي ،  
سخريةً ، بالرجل المريض • ولم يكن بحفظ الدولة من الانهيار التام الا تحاسد  
القوى الطامعة فيها واختلافها على تقسيم الغنيمة وعدم انفاقها على عمل موحد  
ضدّها ، فلما قامت الحرب العالمية الاولى وانتهت بهزيمة الدولة وحلفائها كان  
في ذلك نهاية امبراطوريتها الشاسعة وافتصارها باسم الجمهوريه التركية على  
الاناضول وجزء صغير جدا من الساحل الاوروبي •

وقد قلنا في مقدمة الكتاب أن العهد العثماني ينقسم الى ثلاثة أدوار : دور  
القوة ، ودور التوازن والضعف ، ودور الانحلال ، وعينا بدايات هذه الادوار ،  
ونهاياتها وقلنا بأن السلطان سليمان القانوني قام باصلاحات هامة في عهده سمي  
من أجلها بالقانوني وأفادت البلاد كثيرا ولا سيما في ناحية العلوم والمدارس وتخريج  
موظفين للدولة وعلماء ، ولكنّها فسدت بعد كما فسد كل شيء غيرها • فليرجع  
الى المقدمة لتذكّر ذلك •

وننبّه هنا الى أن الرحلة في طلب العلم قد استمرت في هذا العهد ، كما  
استمرت وحده الحركة الفكرية فلم تظهر فيها أي نزعة إقليمية أو تفرقة في نحصيل  
العلم بين قطر وآخر •

## حال الشعر في العصر العثماني ومدى الاهتمام به

كان بعض شعراء العصر العثماني المتفوقين على أقرانهم يرون أنهم خير ممّن  
تقدمهم من الشعراء الفحول برغم تأخر زمنهم وبرغم فقد الكرام من العظماء الذين  
يهبون الجوائز الكبيره ويشجّعون الأدب ويتذوقونه ويشاركون فيه

يقول الشهاب الخفاجي في مقدمته لـ « ريحانة الألباء » يفضل معاصريه  
على المتقدمين في الشعر ويعتذر لتقصير بعضهم ( ص ٦ ) :

« والرؤساء شعراء لا ينظمون ولا ينترون ، وما فبهم من صفات الشعراء  
الا أنهم يقولون ما لا يفعلون ، واذا كذب مادح أحدهم اهتز وطرب ، وجازى  
من سراب وعده بكذب على كذب ، وبالوعد الفطير لا يخسر الحسير •

\* وبأحسن لا يباع السعير \*

وبرعد الوعد ، لا يسقى غرس الحد

فلا تلوموه في وعد يردده

في وفة مدحي له علمته الكذب

ومع هذا فكم هبت لهم أنفاس معطرة بالنجاح ، مزرية في وقتها بأنفاس  
الصبا في الصباح ، يهز لها السماح هيف معاطفه ، وينشر تحت أقدامها الزمان  
بساط عواطفه ، تتمسك كفت الشمال بأذيالها ، وتتفيا العشاق في هجير الأشواق  
ضافي ظللها ، وترد صافي زلالها ، من كل حديث تليد وطارف له وشي على كاهل  
المجد ولا كوشي المطارف ، تزهو به الطروس على صفحات الخدود المحسّات  
بالسوالف • في كل ورقة منها خمائل ، تسوغ مياه فصاحتها في لهوات الجداول •

تكاد يدي تندي إذا ما لمستها

وينبئت في أطرافها الورق الخضر

من كل من الحق المتأخر بالمتقدم في تطبيق مفاصل معانيه ، وإخراج مخبات  
عطره من جوة مآنيه ، وإن تأخر عصره فلا بأس ، في تأخر النتيجة عن القياس  
والخدم تتقدم بين يدي السادة ، والسثن أمر بتقديمها على الفروض في العبادة ،  
وتقدم الآحاد ، يرقى مرتبة الاعداد •

أو ما ترى أن النبي محمدا فاق البرية وهو آخر مرسل

افيا أدلاء الهدى إني أنبت من جانب الطور نارا بها نهتدون ، أو آتيكم  
بشهاب قيس لعلكم تظلمون فان لم يترك الأول شيئا للآخر ، فخير من الكثير  
الغائب القليل الحاضر • • • » •

وهذا الكلام يدلّ على إعجاب بالنفس وغرور ، ولكنّ قائله أديب مُجيد  
سُعراً وثنراً على الحقيقة وفق دَوْن عصره • ولقد استمرّ الاهسام بالشعر في هذا  
العهد حفظاً ومذاكره وانشادا ومدحا للعظماء أحيانا في جميع أصقاع المِنطقة  
العربية •

ولأحمد البربر الدميّاطي المولد البروتي الاصل الدمشقي الوفاة (ت ١١٣٦ هـ  
= ١٨١٤ م ) كلام لطيف في الثفافة الضرورية للشاعر وفي علو جاهه : « ••• ان  
الانسان لا يستحق الوصف بالتعاصر ، الموجب له العزّ والتّرف ، إلّا إذا احتوى  
من كل علم من العلوم على طرف ، وذلك لان الشاعر من ينظم في كل فن ، ولا ينظم  
في كل فن الا من دخل حانات العلوم فشرب كأسا من كل دنّ » • ( أسامة  
العائوتي ، ص ٥٣ • الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر ) •

وكان الشعراء في هذا العهد ، كما كانوا في العهد المملوكي ، كثيرين • وكل  
من الريحانة للخفاجي ، ونفحة الريحانة وخلاصة الاثر للمجبي ، وسلك الدرر  
للمرادي ، وحلية البشر للبيطار ، يطالعنا باسماء كثيرة لهم تعد بالعشرات وأحيانا  
بالمئات •

وترجع كثرتهم الى ما كان للشاعر من جاه في مجتمعه ولما كان يناله من خير  
أحيانا لدى حكام البلاد وأعيانها ، والى سحر هذا الفن في نفسه وفي نفوس  
الناس حوله • وكان نظم الشعر زينة لصاحبه وهواية محبّة سائدة لا يُعَمّي  
عليها الزمن ولا تضعها الأحداث •

وكان الشعر ضرورة لازمة للانسان المثقف ، فلا بد من أن يشارك بنصيب  
من الشعر فلّ أو كثر ، ولا بدّ من أن يسن عليه حتى يسهل عليه النظم ، وفد  
يُضطر الى مطارحه مع أحد أصدقائه أو معارفه أو أنداده أو خصومه •

ولعلّ الذي كان يشجّع عليه سهولة كثير مما كان يقال وسطحيته •

على أنّ هذا العهد لم يعدم شعراء كانوا قِمّة في حياتهم بالإضافة الى  
غيرهم ، كابن النقيب ومنجك في القرن الحادي عشر الهجري •

وكان أكثر الشعراء الهواة يقولون الشعر مع انصرافهم الى حرفهم العلمية او العسليه الصناعه فلم يكن ينظر منهم أن بدعوا أو يحلقوا • ومن انصرف منهم الى الشعر لغناء ورفع مكاتته الاجتماعية ، كابن النقيب فلا يعدّ شاعرا محترفا بل هاويا مجيدا بالقياس الى عصره •

وكانوا يكثرون من نظم المقطوعات في فكرة عابرة أو عاطفه طارئة أو بارقه خيال أو نكتة فاحشة أو ضحكة مُجلجلة مستجيين الى رغبتهم في النظم دون إرهاق أنفسهم •

وكان الى جانب المقطوعات قصائد طويلة في المدح ، والمدح النبوي ، والغزل ، والرثاء وغير ذلك من الموضوعات •

وكان لغباب العنصر العربي عن الحكم أثر في ضعف الشعر فلم يكن الحاكم ناقدًا ناميًا الذوق الادبي يستطيع أن يفرق بين جيد الشعر ورديئه الا اذا كان قد تشقّف ثقافة عربية أدبية جيدة • وهذا لم يكن يتاح الا قليلا •

ولمّا كان أكثر الشعراء كما قلنا يحترفون عملا آخر فهم إمّا عالم تشقّف ثقافة أدبية فلم يسلم شعره من الجفاف العلمي الذي عرف به العلماء الشعراء وإمّا صانع ضئيل الثقافة يتصف شعره بفقير المعاني والصور وهلهلة الأسلوب واللغة وخشونة المشاعر •

• ووُجد أحيانا بعض شعراء لا يأنفون من ذلك السؤال بشكل مژر • يقول نصر الله الطرابلسي الحلبي ( مما أورده الط ..... ب أعلام النبلاء ) :

ولم يبق الا ماء وجه أرقته وحسبي بشعري شاهدا ومترجما

ولا يزال ما بين أيدينا من مطبوع الشعر العثماني قليلا وأكثر ما خلّفه شعراء هذا العهد وأدباؤه مخطوط في مكتبات الغرب أو الشرق وبعضه ضائع أو مفقود • ولذلك قد تكون أحكامنا عليه قاصرة تقبل النقد والتغيير •

ومصادرنا التي نستقي منها نصوصه وأحكامنا عليه هي دواوين الشعراء وكتب الادباء التي طبعت ، وكتب التاريخ أو الموسوعات أو التراجم •

ونجد أحيانا لمعاب منرفة لدى بعض الشعراء سنشير الى بعضها في حينه •  
ومس عندهم أمثال هذه اللغات منجك وابن النقيب والخفاجي ، الذين يمكن  
أن يعدوا سجموع شعرهم لامعن بين أقرانهم •

وكان كثيرون من أدباء هذا العهد يجمعون بين الشعر والنثر كأدباء العهد  
المسلوكي قبلهم ، وينظسون في الاعراض المختلفة وبفندون بالشعراء السابقين •

ولم يكتفوا بالاعراض التقليدية ، بل اهتموا بالألغاز والأحاجي والمعشيات •  
وانتشر بينهم فن التاريخ بحروف الأبجدية شعرا ونثرا •

وكذلك نظموا في الفنون الشعرية المستحدثة التي أشار إليها المحبي وهو  
ينرجم للشاعر الحريري رجب بن حجازي الجصبي ( وهو شاعر زجال توفي في  
مدينة حلب سنة ١١٠١ هـ ) فقال :

« وله كثير من الازجال والرباعيات والموااليا ، والموشحات والتواريخ ،  
والأحاجي » •

وقد أشار في تنمة هذا الكلام الى طابع اتسم به هذا الشاعر وكان سمة  
لكثيرين من شعراء هذا العهد وهو سهولة النظم فنراه يقول :

« ... وكل ذلك كان يقع له من غير تكلف رويّة ، بحيث انه في ساعة واحدة  
ينظم مئة بيت ومثلها قطعة أو قطعتين من الزجل والموشح ، وقس على ذلك  
البواقي » •

« المحبي ، خلاصة الاثر ، ج ٢ ، ص ١٦٠ »

ويرتبط بسهولة النظم وسرعته سهولة الألفاظ والتراكيب وسطحية المعاني  
وقرب الصور والاعتماد على محفوظات الشاعر من النثر والشعر •

وكانت زيادة التصنع في الفنون والاعراض المختلفة من سمات هذا الشعر •  
ولكن بعض الشعراء كابن النقيب ومنجك كانوا يخالفون التيارات العامة السائدة  
أحيانا •

وما بدا لنا بحسب مطالعتنا حتى الآن هو أن الدورين الأول والثاني من هذا العهد كانا أكثر وأحسن إنناحا من العهد المملوكي الثاني الذي بدا لنا فيه اتاج الشعر ضللاً سبباً . فإما أن يكون ذلك من قصور مطالعتنا في العهد المملوكي المذكور وعدم استنباء المراجع ونقصيها ، وإما أن يكون من ضياع نثر من آثار الشعر فيه ، أو من قصور الذين ترجموا للأدباء فيه فلم يذكروا مع تراجعهم مفادير كافية من شعرهم الجيد في مخلف الموضوعات من أمثال ابن حجر المسفلاني في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » والسخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » والغزي في القسم الأول من كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » . فقد تجلّى لنا أن المترجم إذا كان أديباً ودواقة فإنه يعنى بالنصوص المستجادة للشاعر في مختلف الموضوعات آثاء ترجمته وذلك ما فعله كل من الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباء » والمجبي في « نزهة الريحانة » وفي « ذيل النفحة » .

وهذا ما كان قد فعله الأصفهاني في كتابه « الخريدة » حين ترجم له « راء عصره »

وقد يكون فرط الضعف الذي ظهر لنا في العهد المملوكي الجركسي راجعاً إلى أن الأمة قد خارت قواها بعد الحربين الكاسحتين الصليبية والتتارية ، وبعد المصائب الطبيعية الكثيرة المتوالية من زلازل وطواعين وأوبئة ومجاعات ، فاستسلمت إلى السوم .

ومن أمثله الشعر الضعيف في هذا العهد فـ « حسين الأدكاوي يرثي الشيخ العشراوي : »

علماء منهم مبتدى أو منتهى	يا أمة الإسلام يا أهل الهدى
بالمجد عن ثوب التأشف ينهى	فد مات عشماو بشكم نبأ لمن
أو للبخاري الصحيح الأوجه	من بعده للنرمذي ومسلم
أو ضاع مذهبى وتفقه شبي	فالشافعي نادى لبوم مصابه

« عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرني ج ١ ، ص ١٩٦ »

فهذا النظم ضعيف المعنى بعبد عن روح الشعر الفني المؤثر ركبك الاسلوب مهلهل التراكيب يبدو على ناظمه فقدائه الموهبة الشعرية ففدانا كلبا ، ومحاولته مع ذلك أن نظم لشرعي تطلعه فكلف نفسه فوق طاقتها .

ولم ينصر ضعف هذا الشعر على معانيه وأجبله وعاطفته والنفحة الشعرية فيه بل نعدى ذلك الى الركيب أبصا فقد أهمل الناظم حرف العطف وتكرار حرف النداء قبل الشطر الثاني من البيت الاول ، ورصف الالفاظ في البيت الثاني كناية إقامته الوزن دون رابطة ظاهرة منها وقد زاد اللام حشوا في البيت الرابع .  
ومن أمثلة الشعر الضعيف كذلك قول الامير مجك :

ذهب التّسعاع وضلّت الملاح في جنح ليل ما لذاك صَبّاحُ  
وقولُ الشاهيني :

أدركتُ ما لا سولته تسيبني وفعلتُ ما لا ظنّه شيطاني

« خلاصة الانر للسحبي ، ج ٤ ، ٤١٤ ، وج ١ ، ٢١٢ »

فالملاح جمع ملاح لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد الا في صيغة الدعاء مثل : « لا أراك الله مكروها » .

ولكن الشعارين لم يهتما بصحة الأداء النحوي واللغوي .

وتظهر الركابة البالغة في بعض هذا الشعر . فهذا شاكر العمري الشاعر النائر ( ت ١١٩٤ هـ ) يقول في مدح رجل من آل المرادي :

فكأن الزهور فيها استعارت

عرّف خيم الهمام ، نجل المرادي

وكأن الطيور تملّي علينا

وصف زاكي النجار سامي العباد

« المرادي ، سلك الدر ، ج ٢ ، ص ١٨٣ »

وقد ذكر من مشاكل هذا العهد الأدبية الرئيسية مشكلة الازدواج اللغوي فلغة الناس العامة في واد ولغة الشاعر الثقافية في واد آخر ولا يستطيع الجمهور أن يفهمها • وهذا الازدواج اللغوي لا يقتصر على المفردات ولو أنه اقتصر عليها لكان الأمر سهلاً ولكنه يتصل أيضاً بفوائد النحو الأساسية وبالمادة اللغوية من حيث المفردات والتراكيب •

وهذه المشكلة بدأت مع بدايه اخلاط العرب بالاعاجم وتكوّن اللغة العامة شيئاً فشيئاً ، وأخذت تستفحل مع تقدم الزمن وتظهر آثارها في لغة الشعر وتراكيبه • وهذه الأمثلة من الشعر الضعيف يقابلها أمثلة كثيرة من الشعر الذي يقارب أحيانا مرتبة الإبداع وأحيانا يكون جيّداً لا ينحدر بحيث يعدّ ساقطاً • وسنرى بعض هذه الأمثلة ونحن نتحدّث عن بعض موضوعات الشعر •

## شعر النضال في العهد العثماني ومنه المدح البطولي

نميّز في هذا العهد ثلاثة أنواع من المدح : الاول مدح السلاطين أو الوزراء أو القواد بمناسبة انتصاراتهم وما يُلحق به من تهنئة ونحوها ، والثاني المديح النبوي وما يلحق به ، والثالث المديح الذاتي للعظماء والأصحاب والأقرباء :

أ — مدح السلاطين والوزراء والقواد بالانتصارات الحربية وشبهها :

لم نجعل هذا اللون من المدح أدب نضال وذلك لأنّه يتحدث عن انتصارات هجومية لا انتصارات دفاعية الغرض منها تحرير البلاد كما كانت الحال في الحروب الصليبية والمغولية • ولكن في هذا المدح لونا من أدب الحماسة والحديث عن الحروب ولذلك أفردناه وحده وألحقنا به بعض الشعر الذي يصوّر كفاح الشعب ضدّ الظالم يستبدّ به فيثور عليه ويحاربه وقد ينتصر عليه فيطرده ويضطرّ السلطان الى عزله ، وهذا الجزء الملحق هو في حقيقته أدب نضال شعبي يصوّر لنا أنّ الشعب لا تخمد فيه الحياة وأنّه مهما صبر على الظالمين فلا بدّ له يوما من أن يزيحهم أو يقضي عليهم •



لقد ابتعد الشعب العربي عن شؤون الحرب والسياسة أو أبعد ولكن أصالته الحرية حفظت فيه الإعجاب بالقوة والرغبة بالانصاف بها ، وحفظت لشعرائه الإشادة بها والإعجاب بالأبطال ، ولم تمت فيه روح الحساسة ولكنها نامت أو تخدّرت .

يقول عبد الرحيم العباسي ( ٨٦٧ - ٩٦٣ هـ ) الشاعر المصري في وصف الحرب :

يعقد النقع فوقها سحبا كالليل فيه السيوف أضحت نجوما  
ومتى ما رأت سواد شياطين من بغاه الحروب عادت رجوما  
« الريحانة ، ج ٢ ، ص ٦٢ »

والذي يعيننا من هذين البيتين هو بقاء الروح الحماسية في الشعب العربي وفي شعرائه . أما معناهما والصورتان فيهما وصياغتهما ففديمة تجري على الأسلوب التقليدي القديم وقد استمد الشاعر المعنى والصورتين من شعر بشّار ابن برد ومن القرآن .

استقى صورة الليل والنجوم في تشبيه غبار الحرب والسيوف من قول بشّار المشهور :

كان غبار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهوى كواكبه  
واقتبس صورة الشياطين والرجوم من الآية : « وجعلناها رجوما للشياطين » .  
ومن مديح منجك ( ١٠٠٧ - ١٠٨٠ هـ ) للسلطان إبراهيم في ميميته حين انتصر على أعدائه بحراوبرا :

لو كنت أطمع بالنام توهشما لسألت طيفك أن يزور تكرما  
حاشا صُدودك أن تذم فإثها تحلو لدي وإن أسفت علقما  
عذب فؤادي بالذي تختاره لو كنت منسيا تركت واتما

• • • •

لو بث أثكو ظلمه لشكونه      لملك هذا الدهر أسمى من سا

• • • •

قد جهز السفن التي لو صادمت      رضوى بأيسر لمحنة لتهدما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

• • • •

فهنأ نرى نمطاً من مدح العظماء طمعاً في الجائزة • وهو يجري فيه على سنه  
القدماء من حيث البدء بالغزل ويتدلّل في غزله لجيبه مظهر الثبات على حبه ويحسن  
التخلّص الى السلطان التركي الممدوح ويسدحه بالسو على جبيع معاصريه  
وبتجهيزه الأسطول القوي لحرب أعدائه •

وقال ابن النقيب يمدح الصدر الاعظم أحمد كوبرلي باشا فاتح جزيرة كريت  
ويخلّد فتحه العظيم • وكانت هذه الجزيرة تابعة لجمهورية البندقية فاستطاع  
هذا الباشا أن يستولي على عاصمتها « قنديه » بعد حصار سنتين واستسلام قائد  
حاميتها ( موروفين ) وهي قصيدة المدح الوحيدة في السلاطين في ديوانه .

ما آل برمك في ذرا بغداد	يوم الفخار ولا بنو عباد
يوماً بأوقع في النفوس مفاخرا	مما لكم من سؤددٍ وسداد
حكيتكم جيد الزمان بدولة	حلّت محلّ الروح في الاجساد
جلّ المهيمن كم أتاح لذا الوري	منها جميل عوارفٍ وأياد
إيه بعيشك يا زمان فلا تني	أبدا بنشر ميحاسن الأمجاد
فتحوا بقندية معاقل أرتجت	قيدا على الأمراء والأجناد
وافى لها الصدر الرفيع جنابته	علكم الغزاة ومكمد الحساد
وله بدين الحق صولة ناصح	ذلك الغزاة بها ذرا الأطواد
تروي له الأيام طيب مفاخر	ومآثر عزّت على الأنداد
أتم بني العلياء قطب مدارها	يوم الفخار وموئل القصاد
أشفعتم شرف الجهاد بمقصد	أسنى ومسعاة لخير مفاد

وحلّتمْ مغنى دمتقَ فأصبحت أباؤها تزهو على الأعياد  
بلدٌ بها للأنبياء مراقِدٌ وبها حسي الأبدال والأوتاد  
وبقيتمْ ظلّ البلاد وأهلها ما لاح برقٌ أو ترثمَ شاد

« دبوان ابن النقيب ٩٠ - ٩٣ »

يوازن ابن النقيب في هذه الايات بن المدوح وقومه وبين بني برمك وبني  
عباد لخلص الى أنّ المدوح وقومه أفضل ، ويذكر مآثر المدوح وقومه الترك  
وأما جدهم وفتحهم فديّة ، ويشي على جهادهم وامتدح اخلاصهم لدينهم ويدي  
سروره بحلولهم دمتق دون أن يعتبرهم غزاة محتلين ، ويرى أن أيامها أصبحت  
أعيادا بهم ويدي اعتقاده بالصوفية والصوفيين حين يجعل دمشق حسي الأبدال  
والأوتاد ، وهما ربّتان صوفيتان ، ويدعو للترك بالبقاء فيها . وذلك كله في أسلوب  
واضح سهل فصيح صحيح قوي فخّم .

وقال عبد الرحمن البهلول ( ن ١١٦٣ هـ ) في حادثة حسين باشا قصيدة  
مطوّلة اخترنا منها الأبيات التالية :

« وتتلخص الحادثة كما وصفها رسلان بن يحيى القاري في رسالته عن  
( الوزراء الذين حكموا دمشق ) في أنّ ( حسين باشا دخل الشام في شهر جمادى  
الثاني / ١١٥١ هـ / وكان رجلا من الخوارج وأراد أن يظلم فما قدر . وسكّرت  
( أغلقت ) الشام ودام القتل بينه وبين أهل البلد مدّة من الايام ، وقتل من عسكره  
يخلق كثير ، فللّه عسكر النمام وما فعل . دخلوا الى القلعة ، ورّموا بالمدافع  
على السراية ( دار الحكومة ) ، فهبّوا بعضها ، فلما نظر حسين باشا الى ما حلّ  
به من البلاء والتكثير داخله الخوف والفرع ، وخرج في تلك الليلة على عجل ،  
وقد كفّ الله شرّه عن الشام ) » .

وما أجمله القاري فصّله البهلول في قصيدته وأرّخ للواقعة :

## الآيات المختارة :

صبراً لحكم قضاء في الأنام جرى  
به دم الخلق من وشك الصدام جرى  
لا يكشف السوء إلا الله فهو على  
كل العباد رقيب جل مقتدرا  
مولي ، توأصي جميع الخلق في يده  
إليه كل غدا بالعجز مفتقرا  
ما من سكون وتحريك يكون بنا  
إلا بأمر حكيم أبدع الضورا  
لنا جرت في دمشق الشام كائنة (١)  
لربنا قد شكونا هولها الخطرا  
طالت علينا بخوف ليس نعهد  
من قبل ، يوماً ، فرصنا نأخذ الحذر  
نهارنا فيه أسباب معطلة  
وليلنا في صباح يصدع الحجرا  
ما ليلة تنقضي إلا ونقطعها  
هماً بأفكار حزن تقتضي السهرا  
واذكر خوارق ظلم لا يقاس به  
ظلم إذا الأمم من مثر الهلاء مرا  
والناس أضحووا سكارى حائرين ولا  
يدرون ما يفعل الباري بهم قدرا

(١) جاذبة بلغة الشام .

كأنهم سرب أغنام بمجزرة  
 لمُورد الذبح كلُّ بات منتظرا  
 منهم من اختار مأوى غير مسكنة  
 والبعض سافر والبعض اختفى حذرا  
 من خوف دي سطوة فيه الغرور لقد  
 أغراه في الناس ظلماً فاحتسأ بطرا  
 وكم بدت منه أنواع معددة  
 من القبائح شتى غير ما ذكرنا  
 فليتة يكتفي في ألف واحدة  
 بل اجترى واقتري بغيا وما فترا  
 يا ويل من لم يخف نقض العزائم من  
 جناب مقتدر كم طاغياً قهرا  
 لكن إله الوري جازاه منتقما  
 منه بأفعاله لما به مكرنا  
 ولا تسئل عن أمور صعبة وقعت  
 يشيب من هولهنَّ الطفل لو بصبرا  
 تجمعت فرقة من نحو حاكمهم  
 هي أصل إيقاد جمر حرثه استعرا  
 هموا بأن يكبشوا ليلاً فوارسنا  
 هم أهل قبلتنا ، بل هم أسود شري  
 حجم "غفير" لهم أردت ثمانية  
 من أهل ميدان حرب يا لهم نفرا

إِذْ بِالْعَدُوِّ مُحَالِيْبَ الْوَعَى نَشَبُوا  
 فَعَادَرُوهُمْ نَفُورًا كَالْقَطَا ذُعُرًا  
 تَفَرَّقُوا هَرَبًا أَيْدِي سَبَا ، وَبَا  
 سَيْفُ الْعَزِيمَةِ مِنْهُمْ وَالْحِجَى سَكِرًا  
 أَبَوْا بِخُبَيْةِ أَمَالٍ بِحَيْتِ رَأَوْا  
 عَقُوبَةَ الْبَغْيِ يَا تَعْسًا لِمَنْ خِیرَا  
 لَهُمْ تَلَّتْ مِنْ أَهَالِي الْعَرَبِ شِرْذِمَةٌ  
 حَمَقَى بِآلَةِ شَرٍّ تَقْدَحُ الثَّرَا  
 صَالُوا عَلَيْنَا بِسَيْفِ الْبَغْيِ وَاتَّهَكُوا  
 بِجَوْرِهِمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فِي الْفُقَرَا  
 طَغَوْا بِسَفْكَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَسَى  
 وَنَهَبَ أَمْوَالَهُمْ تَبًّا لِمَنْ فَجَّرَا  
 رَامُوا أُمُورًا بِإِفْسَادٍ فَمَا شَعَرُوا  
 إِلَّا وَفِيهِمْ أَسُودٌ أَحْدَقُوا زُمَرَا  
 وَلَمْ تَزَلْ جِلْقُ الْفِيحَاءِ عَامِرَةٌ  
 بِكُلِّ ذِي هِمَّةٍ عَلَيَا إِذَا اخْتَبَرَا  
 هُمُ الْكَرَامُ لَهُمْ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ  
 غَوْثُ الصَّرِيخِ ، وَبَذْلُ وَاْفَرٍ وَقِرَى  
 جَزَاهُمْ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ جَمِيعِ بَنِي  
 دِمَشْقَ وَالْأَجْرُ عِنْدَ اللَّهِ لَنْ يَتَّيَرَا  
 وَكَيْفَ لَا وَدِمَشْقُ الشَّامِ مُوْطِنُهُمْ  
 مَدِينَةُ الْفَضْلِ مَوْلَانَا لَهَا اعْتَبَرَا

بقوله أنا ربُّ الشام إنَّ يدي  
 عليكِ يا شامُ أكفي أهلكِ الضَّرَّ را  
 والشامُ منشأ كلِّ الأنبياء إذا  
 حققت في صدق نصِّ جاءنا خبرا  
 أرض "مقدَّسة" بالأمر تحرسُها  
 أقطابُ عزم وساداتُ بها حُضرا  
 فيها ملائكة الرحمن بأسطه  
 للحفظ أجنحةٌ قد كتلت دُرَّ را  
 لكنْ دهتنا بهذا العامِ جادَّةٌ ،  
 عمَّت ولا فتنةُ التيمور اذ ظهَرا  
 لولا المهيمنُ بالأنطاف داركنا  
 فيها لكنَّا إذا هلكى بها خطَرا  
 يا فتنةٌ ما رأى الرائي نظائرَها  
 في بلدةٍ حيت في تاريخها نَظَرا

« عن مقال للدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة

مجمع اللغة العربية مجلد ٤٢ ، ج ٤ ، ص ٨٠٥ »

وقد أورد القصيدة كاملة الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه « حلبة البشر  
 في رجال القرن الثالث عشر » \* ولنا عليها الملاحظات التالية :

١ - هذه القصيدة ليست من الشعر الفني بل هي من قبيل النظم العلمي  
 وإن كانت لا تخلو من عاطفة \* .

٢ - وهي من نوع الشعر التاريخي الذي شاع في هذا العهد وسُجِّلَتْ  
 فيه الحوادث لتبقى في ذاكرة الناس وفي كتبهم وقد عني الناس به وكانوا يتباهون  
 بنظمه \* .

٣ - هذه القصيدة سجل تاريخي لصدام أهل دمشق مع الوالي الظالم حسين باشا وهي تذكر تفاصيل الحادث وأسباب القتال ومراحله وكيف فر الوالي وتهنىء أهل دمشق بالنصر \*

٤ - يقصد بأهل دمشق في القصيدة سكانها المدنيين والجنود من الانكشارية المحلية المسماة « اليرلية » ومن غيرهم ممن هم من أصل عربي دمشقي أو من أصل أعجمي ولكنه مستوطن دمشق \*

٥ - في القصيدة حبٌ ظاهر لدمشق وأهلها وتعلق بها واعتقاد بأنها خير البلاد وإن الله يحميها من كل سوء ويبطش بأعدائها \*

٦ - تسجل القصيدة بمداد الفخر أن أهل دمشق لم يكونوا يرضون بالذل والظلم وأنهم كانوا يثورون ضد الولاة الظالمين القساة ، والشاعر يخصّ بالذكر من أهل دمشق سكان الميدان الذين تولّوا على ما يظهر العبء الأكبر من المعركة وكان أكثر جنود الانكشارية المحلية يسكنون في هذا الحي وكان قسم صغير منهم يسكن في حي سوق ساروجة \*

٧ - يظهر في القصيدة شعور محلي وطني ضد الوالي الغريب وجنوده كما تظهر شجاعة الدمشقيين في القتال \*

٨ - ليس في القصيدة صور بيانية أو زخارف لفظية والشاعر مهتم بذكر الحقائق التي ترافقها العاطفة الطبيعية التي يشعر بها الإنسان نحو أهل بلده ونحو أعدائه في حالة قتالهما \* وليس فيها من صفة الشعر إلا الوزن والقافية ، والعاطفة وهي طويلة \*

٩ - فيها أبيات ركيكة التراكيب ولكن أكثر أبياتها واضح متماسك الصياغة ، ولا تخلو بعض أبياتها من خطأ لغوي مثل ادخال الالف واللام على بعض ، أو نحوي كقوله فانظر فعله أشرا \* وقد يكرر في الشطر الثاني ما قاله في الاول \*

١٠ - للقصيدة طابع شعبي واضح ، تفكيراً وعاطفة وصوراً وألفاظاً \*



## المديح النبوي

ثابر الشعراء في هذا العصر على النظم في المدائح النبوية ولكن لم تظهر لهم قصائد تضارع مبمية البوصيري أو همزيتة واستمروا على الاخذ بمكره الحقيقة المحمدية القائمة على أن النبي هو أصل كل خير ورحمه ولولاه ما خلق البشر ، وعلى التوسل اليه وطلب الشفاعة منه وإزاحة الكرب .

وكانت دوافعهم الى نظم هذا اللون من الشعر هي دوافع من سبقهم نفسها . ومثال ذلك قول الاستاذ الامام أبي المواهب البكري ( ١٠٣٧ هـ ) يمدح الرسول الكريم ويستغيث به :

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختش أو يشمل
إلا وطبه المصطفى عبده	نيشه مختاراه المرسّل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل
فلئذ به في كل ما ترتجي	فهو شفيع دائما يتقبل
وعذ به في كل ما تختشي	فإنه المرجع والموئل
وحطّ أحوال الرجا عنده	فإنه المأمّل والمعقّل
وناده إن أزمة أنشبت	أظفارها واستحكم المعضل
يا أكرم الخلق على ربّه	وخير من فيهم به يسأل
قد مسني الكرب وكم مرة	فرجت كربا بعضه يذهل
ولن ترى أعجز مني فما	لشدة أقوى ولا أحمل

« المنتخب لأحمد أمين وزملائه ، ج ١ : ٢٢٥ »

ونلاحظ ان المعاني ليست جديدة بل هي مستمدة من البوصيري وسائر شعراء العهد المملوكي ، وأن الصياغة ليست ركيكة ، على أنها ليست في المستوى الارفع .

ويقول، الشيخ، جد الدين الوتري البغدادي<sup>(١)</sup> مسعيثا بالسمع من ذنوبه  
التي ينوء بها :

أغتني أجري ضاع عمري الى متى  
بأنقال ارزائي أراني أرزأ  
إذا لم يكن لي من جنابك شافع  
شقيت فما لي غير جاهك ملجأ

« شواهد الحق في الاستغاة بسيد الخلق ليوسف النبهاني » ص ٢٨٥  
يصور البيتان السابقان توبة المذنب وشعوره بعظم ذنوبه واستشفاعه بالنبي  
لدى الله ليغفر له وينجيه من شقائه وفيها حرارة وصدق وإيمان وجمال .

### المدح الذاتي التقليدي

ظل الشعراء في هذا العهد يمدحون من لهم بهم علاقة حسنة من أمراء  
وحكام ومشايخ وأصدقاء وأقرباء وقد يكون من حيث المقدار قليلا اذا قيس  
بما كان عليه في العهد المملوكي التركي وما قبله من عهود ولكننا نعتقد أنه أغزر  
مقدارا مما كان عليه حاله في العهد المملوكي الجركسي . والكثرة والقلة النسبتان  
ترتبطان ارتباطا وثيقا بمدى قوة العلاقة بين الشعراء والعظماء وبكثرة صلات  
الشعراء الاجتماعية أو قللتها .

وكانت تجارب بعض الشعراء مع العظماء الممدوحين غير مشجعة أحيانا على  
الاسترسال في المدح . وهذه النغمة قديمة ففي كل عهد نرى شاعرا أو أكثر يتصور  
أن الكرام في عهده قد فقدوا لسوء حظه ونراه يندم على أنه بذل لهم مديحه .

قال منجك ( ١٠٠٧ - ١٠٨٠ هـ ) يستغفر الله من شعر المدح الذي هو  
منقصة :

---

(١) هو ابو محمد احمد بن محمد الوتري الشافعي . ذكر الزركلي في الاعلام  
ان لقبه ضياء الدين ( ج ١ ، ٢٢٣ ) ( ت ٩٨٠ هـ - ١٥٧٣ م ) . كان شيخا فاضلا  
صالحا .

دعنى من الشعر إنَّ الشعر منقصة  
بالمجد بخنال بن البيض والأسل  
أسعر الله من شعر مدح به  
قوما مديحهم من أعظم الزل

« الريحانة ج ١ ص ٢٣٢ ، وخلاصة الاثر ٤ : ٤٠٩ »

لقد دلت الشاعر خيته على خطئه في التذلل للسدوحين فحملة ذلك على أن  
يعدّ الشعر تقيصه إذا قيس ببطولة القتال التي يتبخر بها صاحبها بين السيوف  
والرماح كما هو شأن أهله ، وعلى أن يستغفر ربه من مديح قوم لا يستحقون هذا  
المدح . والذنب في الحقيقة دنيه ، لو صدق نفسه القول ، فهو الذي أضاع ماله  
في الملذات وبين فرناء السوء المتكسبين وهو الذي أذلّ نفسه وشعره بالطلب .

ومن مدائح هذا العهد قصيدته للسحبي صاحب خلاصة الاثر ونفحة الريحانة  
يسدح بها الشريف أحمد بن زيد \*\*\* بن أبي نمي الذي تولى شرافة الحجاز  
والذي توفي سنة ١٠٩٩ هـ ، وكان الشريف قد اضطر الى الزواج عن الحجاز  
والتنقل في البلاد حتى وصل الى القسطنطينية فعيّنه السلطان شريفا على الحجاز  
وطلب منه أن يصلح أحواله . والقصيدة طويلة ونوردها كاملة لبنين أن بعض  
شعراء هذا العهد فد عادوا بقصائد المدح الى عسود الشعر القديم والى مستوى  
جيد من الأداء :

يجوب الارض من طلب الكمالا	ومن صحب القنا بلغ السؤالا
وكم في الارض من سكن ودار	وان كان النوى يئضي الجبالا
وما هجري الدثمي ذلا ولكن	رايت الذل أن أهوى الجبالا
وأن الحنف في حب العواني	جزيئن الصب هجرا أو وصالا
أما وجبة عييك اللواتي	بغير السحر تأسى الاكتحالا
وما بسقيم جفك من فتور	أعاد البدر من سقم هلالا
لأنت أعز من روحي ومالي	وإن لعب الزمان بنا ومالا
وكم للشوق في أحشاء صب	يبيت خياله يرعى الخيالا

وَيَجْنِي مِنْ مَطَامِعِهِ نَوَالًا  
 وَيَقْطَعُ بِالْمَنَى السُّودَ الطُّوَالَا  
 وَرَاءَ السَّدِّ كَلَّتْهَا ارْتِحَالَا  
 وَلَا زَادَ النَّوَى رِزْقًا وَمَالَا  
 وَأَسْبَابُ "بَقَاءٍ" أَوْ زَوَالَا  
 سَرَى مِنْ جِلْقٍ يَشْكُو الْكَلَالَا  
 وَذَكَرْنِي الْأَجْبَةَ وَالظَّلَالَا  
 وَإِنْ صَرَمْتَ أَهَالِيهَا الْحِبَالَا  
 وَلَكِنْ عَلِّمُوهُنَّ الدَّلَالَا  
 وَنَفْسَ الْحَرِّ تَأْبَى الْإِعْتِقَالَا  
 أَغَادِ الْوَهْمُ رَشْدَهُمْ ضَلَالَا  
 يَبِينُ وَيُشَبِّهُ الشَّهْبَ اتِّقَالَا  
 وَأَنْكَرَهَا فَقَدْ رَضِيَ الزَّوَالَا  
 وَظَنُّوا الْحِلْمَ عَجْزًا وَاحْتِمَالَا  
 وَبَعْضُ الْحِلْمِ يَسْتَدْعِي النِّكَالَا  
 وَفَارَقْتُ الْأَجْبَةَ وَالْعِيَالَا  
 يُثَوِّقُنِي وَصَحْبِي وَالْجَمَالَا  
 تَقَابَلْنِي نَزُولًا وَارْتِحَالَا  
 الْعِشْقُ أَفْضَلَا وَطَالَا  
 نَدَى الْرَوْضِ أَكْسَبَهُ شَمَالَا  
 وَبَاقِي النَّاسِ كَلَّتْهُمْ شِمَالَا  
 يَسَابِقُ فَضْلُهُ مِنَّا السُّؤَالَا  
 وَوَرِثَ عَدْلُهُ الدُّنْيَا اعْتِدَالَا  
 أَبَى الْإِلَهَ بِكَفَيْتِهِ انْحِلَالَا  
 وَأَصْدَقْتُهُمْ إِذَا نَطَقُوا مَقَالَا  
 فَإِنَّ الشَّمْسَ تَكْبَرُ إِنْ تَنَالَا

يَغْلِبُ مِنْ أَمَانِيهِ نَدِيمَا  
 غَيِّقُطُحُ النَّوَى الْأَيَّامَ سِيرَا  
 إِذَا مَا أَوْهَمْتَهُ النَّفْسُ أَمْرَا  
 وَلَيْسَ الْجِدُّ فِي الدُّنْيَا بِمُجْدٍ  
 وَلَكِنْ الْأُمُورَ لَهَا دَوَاعٍ  
 وَأَسْهَرْنِي بَارِضَ الرُّومِ بَرْقٍ  
 وَجَدْتُ لِي بِأَرْضِ الشَّامِ عَهْدَا  
 مِرَاطُنْ صَبُوتِي وَمُثْقَامُنْ أَنْسِي  
 مَا كَانَتْ غَوَائِبُهَا جَفَاةً  
 وَبَرَكَ الْمَرْءُ دَارَ الضِّيمِ حَتْمٍ  
 وَمَا كَلَّفَتْهُمْ شَيْئًا وَلَكِنْ  
 وَلَيْسَ يَبِينُ فَضْلُ الْمَرْءِ حَتَّى  
 وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعْمَاءَ يَوْمًا  
 جَفَاوا فَحُلِمَتْ فَازِدَادُوا جَفَاءً  
 وَبَعْضُ الْجَهْلِ فِي الْأَحْيَانِ خَيْرٌ  
 فَحُلِمَتْ الدِّيَارُ وَمَنْ عَلَيْهَا  
 وَسَرَتْ وَلِي مِنَ الذِّكْرِ سَمِيرٌ  
 فَلَا زَالَتْ لِأَحْمَدَ مَكْرُمَاتٌ  
 هُوَ الْمَوْلَى الشَّرِيفُ وَمَنْ تَسَامَى  
 مَلِيكَ" مُسْتَفَادَ مِنْ مَلِيكَ  
 فَنَى لِلْمَصِلِ قَدْ أَضْحَى يَمِينَا  
 طَلِيقُ الْوَجْهِ بِسَامُ الْحَيَا  
 وَمَنْ أَحْيَا مَوَاتَ الْجُودِ فَضْلَا  
 تَهَوَّنُ بِهِ الصَّعَابُ وَكُلُّ عَقْدٍ  
 أَجَلٌ مَلُوكُ أَهْلِ الْأَرْضِ طَرًّا  
 رُوِيَ إِذَا أَيُّهَا الرَّاجِي عِلَالَا

ويا مَنْ قاسه بالبحر جُودا  
ويا مَنْ قد أراد له نظيرا  
له النسب الرفيع الى نبي  
أجل المرسلين ومقتداهم  
عليه بعد أنفاس البرايا  
اليك سليل خير الخلق أشكو  
وهالك حلى على الهيف الغواني  
عروب، إن أردت قتال خصمي  
تمتّع من مدائحها بروض  
ودم صدر الزمان، ولا رأينا  
لمجدك تنمي زهر الدراري

لقد فايسست بالمليح الزلّالا  
لقد كلّفت دنياك المحالا  
لقد نالت به الدنيا جمالا  
وأجزل من على الغبرا نوالا  
صلاة الله تكسبه كمالا  
نوى قصرت تيجته وطالا  
والأخذ على الوجّات خلا  
أجرّد من قوافيها النصالا  
يروقت منه شمالة اعتدالا  
لذاتك ما خدا الحادي زوالا  
ومجدك ينطق الكون ارتجالا

« خلاصة الاتر، ج ١، ١٩١ - ١٩٣ »

فهذه القصيدة جيدة المستوى لو لم نعرف قائلها لقلنا أنها من شعر جرير أو أمثاله في العصر الأموي من كانوا يؤثرون السهولة في الأداء • يعيها أن معانيها تقليدية ليس فيها جدة وانتكار ولكن الشاعر أحسن إيرادها وسبكها ووضعها في مواضعها • وقد بدأها بالغزل جاريا على نظام الشعر القديم وأطال هذا الغزل لأنه يتلاءم مع نفسه، وجعله مناسباً لموضوع القصيدة وحال المدوح • وهذا ما كان يلاحظ في المقدمات الغزلية التي كانت تبدأ بها قصائد القدماء • فقد جعل نفسه يتنقل هائما في حبه من مكان الى مكان كالمدوح الذي أزعج من بلده فأخذ بالتنقل من بلد الى بلد حتى تهيأت له العودة الى وطنه وسلطته •

ويشعر فارئ القصيدة بسهولة الشعر واثياله وصدوره عن طبع سمح وقريحة خصبة وقرب تناول المعاني والأخيلة، وبأنها في مستوى جيد • وقد يفخر الشاعر أمام مدوحيه بشعره فيهم على عادة القدماء الفحول • قال الطالوي من قصيدة يخاطب مدوحيه :

لي فيكم كدراري الأفق سائرة" هي اللآلىء الا أتها كلم

من كل شامخة العرينين تحسبها      في الشّعر لينا لها من نفسها أجم  
 تبقى على صفحات الدهر خالدة      كالأنجم الزهر عقداً ليس ينقسم  
 أو عادة حسنها قيد النواظر في      ألحاظها سقم ، في أنفها نسيم  
 « الريحانة ، ج ١ ، ص ٧٣ »

وهذه الأبيات تتسم بما تتسم به سابقتها من حيث قوة الأسلوب مع التقليد  
 في المعاني والصور والأداء .

## الرثاء

الرثاء كثير في هذا العهد ولكن رثاء السلاطين والحكام العظماء فيه قليل  
 بالإضافة الى سائره . وتناول أكثر الرثاء بكاء العلاء الذين يكونون سيوخ  
 الشاعر ، تم الاصحاب ، والاقارب . ومن المراثي ما قاله علاء كانوا ينظسون الشعر  
 في مسنوى وسط بين الاجادة والرداءة ، وهم كثر . ومعاني الرثاء وسوره في  
 مجملها تقليدية . ولكننا نرى أحيانا شعراء يرثون عزيزا عليهم فنل في حادثة  
 لها طابع خاص بصفونها . وقد يستلقت نظرنا لمعة من التجديد في المعاني أو إحياء  
 ما درس منها ونسي في شكل جديد . وسنرى أمثلة على ذلك كله .

قال يحيى الاصيلي ( ن ١٠١٠ هـ ) يرني العلامة النحيري البصير ، خاتمة  
 المنسرين ، وهو شمس الدين محمد النحيري :

إنه عصاني شعري لفقد شعوري      فدموعي ترثيك بالمشور  
 يا إماما لما سكنت جنانا      فاض دمعني عليك فيض البحور  
 وبكى الأزهر المعمر بحرا      كان في الله رب دمع غزير  
 فمصاييحته بأحشائها لنا      ر عليه من لوعة التذكير  
 ومحاريبه لفرقة ذاك الصد      ر أضحت مقوَّسات الظهور  
 « الريحانة ، ج ٢ ، ص ٤٥ »

وقد رد الشهاب الخفاجي هذا المعنى الى بلديته ابن نباتة :

على مثل ذا فلتبك أعيننا العبرى  
فقدنا بني الدنيا فلما تلتقت  
سيعلم كل من ذوى المال في غدٍ  
كأن المحارب القيام بصدرة  
وتطلق في ميدانها الشهب والحرما  
وجوه أمانينا فقدنا بني الأخرى  
إذا نُصِب الميزان من يشتكي الفقرا  
لفرقة ذاك الصدر قد قوّست ظهرا

« الريحانة ، ج ٢ ، ص ٤٦ »

ويلاحظ ان يحيى الأصيلي يرثي العلامة النحيري بما يثري به العلماء  
عادة من صفات العلم والفضل \* وهو يبدي حزنه ويذكر فيض دموعه عليه لصلته  
الخاصة به وفضله عليه ، ويجعل الجنة نصيبه في الآخرة ، ويشخص الأزهر  
فيبكيه عليه ويجعل ما بأحشاء المصاييح من النار منبعثا من لوعتها عليه \* كما  
يجعل المحارب مقوسّة الظهور لفقده \* وبصرح في أول بيت بأن شعره قد  
يعجز عن وفائه بحقّه لذلك تساعده دموعه بشر دمعها وبذلك بقابل بين الشعر  
والمنثور ويورّي في كلمة المنثور لانه يريد بها الدمع المتساقط \*

وقد نقد الشهاب الخفاجي معنى البيت الاخير فسوب ابتكاره الى ابن نباتة  
المصري. وأورد أبيات ابن نباتة التي تضمنته في الرثاء وقد ورد المعنى المقصود في  
آخر بيت منها \*

ويتبين من موازنة أبيات الاصيلي بأبيات ابن نباتة فرق ما بين الشاعرين  
في المستوى الفني الشعري من حيث التصوير وحسن الأداء فابن نباتة الذي هو  
من شعراء العهد المملوكي الاول يعدّ مخلقاً بالقياس الى الأصيلي أحد شعراء  
بداية الدور الثاني من العهد العثماني \*

ومن رثاء الأقارب في هذا العهد ما قاله البهاء العاملي ( ت ١٠٣١ هـ ) يرثي  
به والده ( ت ٩٨٤ هـ ) الذي توفي عن ست وستين سنة \* قال :

قف بالطلول وسلها اين سلماها  
وردّد الطرف في أطراف ساحتها  
فإن يفتك من الأطلال مخبرها  
وروّ من جرّع الاجفان جرّعها  
وأرّج الوصل من أرواح أرّجها  
فلا يفوتك مرآها ورّياها

ربوعٌ فضل تباهي التربة تربتها  
عدا على جيرةٍ حثوا بساحتها  
بدورٍ تمّ غمام الموت جلّلتها  
فالمجد يبكي عليها جازعاً أسفا  
يا جبداً زمنٌ في ظلّهم سلّقتْ  
أوقاتٌ أنسٍ قضيناها فما ذكرّتْ  
يا جيرةٌ هجروا واستوطنوا هجراً  
رعياً لليلاتِ وصل بالجمي سلّمتْ  
لفقدكم شقّ جيبٌ المجد وانصدعت  
وخرّ من شامخات العلم أرفعها  
يا ثاويًا بالمصلّى من قرى هجر  
أقمتْ يا بحرٌ بالبحرين فاجتمعت  
ثلاثةٌ أنت أنداهما وأغزرها  
حويت من دُرر العلياء ما حويا  
يا أعظماً وطئت هام السهوى شرفاً  
ويا ضريحاً على هام السّمك علا  
فيك انطوى من شمس الفضل أضوؤها  
ومن شوامخ أطواد الفتوة أر  
فاسحب على الفلك الأعلى ذيول علا  
عليك منا صلاةُ الله ما صدّحتْ

ودارٌ أنس يُحاكي الدر حصباها  
صرف الزمان فأبلاهم وأبلاها  
شموسٌ فضل سحاب التربة غشاها  
والدينٌ يندبها والفضلُ ينعها  
ما كان أقصرها عمراً وأحلاها  
الا وقطّع قلب الصب ذكراها  
واهاً لقلبي المعنى بعدكم واهاً  
سقياً لأيامنا بالخيف سقيها  
أركانه وبكم ما كان أقواها  
وانهد من باذخات العلم أرساها  
كسيت من حلل الرضوان أصفها  
ثلاثةٌ كنّ امثالاً وأشباها  
جوداً وأعذبها طعماً وأصفها  
لكنّ درك أعلاها وأعلاها  
سقاك من ديم الوسمي اسمها  
عليك من صلوات الله أزكاها  
ومن معالم دين الله أسناها  
ساها وارفعها قدراً وأبهاها  
فقد حويت من العلياء عليهاها  
على غصون أراك الدّوح ورعاها

« الريحانة ج ١ : ٢٠٧ ، وخلاصة الاثر ج ٣ : ٤٤٠ »

فالبهاء العاملي يقف في هذه الايات على ديار أبه ومراتع صباه ، ويكني  
عن أبيه بالجيرة ، وكأنه يتنزل ، ثم لا يلبث حتى يصرّح بذكر البلي ، والموت ،  
ويبكي ما كان ينصف به أبوه من كمال ومجد ودين وفضل ، ويأسى على أوقات



الأنس في صباه ، ويبدي لوعته لقمه أجباه ، ثم يعود الى ذكر فضائل أبيه فيجعل ثوب المجد وجبال العلم مفجوعة به ، ويدعو له بالجنة ، ويذكر أن وفاته كانت بالبحرين ، ويجعله ثالثهما كرما ، بل أغزرها . ويعود الى وصفه بالمجد ، ويدعو لأعظمه بالسقيا ، ويناجي ضريحه ، فيطلب له من الله أركى الصلاة . ويصف أباه بعد ذلك بصفة جديدة هي الفتوة ، ثم يجعله أعلى من الفلك مجداً . ويتم الأبيات بالصلاة المستمرة عليه ما قامت حمامة بكى على أراكة .

وهذا الرثاء يمكن أن يقال في أي عالم آخر غير أبيه يكون بينه وبينه مودة وليس فيه من سمات صلة القربى بأبيه إلا بكأوه على مرانغ طفولته التي هي ديار أبيه وعلى الاوقات التي قضاها بها وقد شعر بأنها قصيرة ويضاف اليه صدق العاطفة وشدة اللوعة . والأبيات تقليدبة المعاني والصور والاسلوب ولكنها حسنة السبك والأداء قوية المشاعر .

وقد لفت نظرنا في هذا العهد ما ظهر لدى بعض الشعراء ، وعلى النجديد لدى ابن النقيب الحلبي ( ١٠٥٦ هـ ) ولدى معاصره وصديقه القاضي صلاح الدين الكوراني من محاولة احياء الجماد ومناجاته فقد أورد المحبي في الخلاصة ( ج ٢ ، ص ٢٥٤ ) ما قاله أحمد بن النقيب وقد رأى أن أشجارا من العناب ، قرب ضريح والده ، فد زهت بأغصانها المخضرة وتمازها المحمرة فبكى وتحسر :

وقائله والدمع في صيحن خدّها  
يفض كعطال من السحب قد همى  
أرى شجر العناب في البقعة التي  
بها جدت ضم الشريف المعظّم  
له خضرة المرتاح حتى كأته  
على فقدّه ما إن أحسن تألّما  
وأغصانه فيها تمار كأتهما  
بحمرتها نبدي السرور تلوّما

ولو أنصفت كانت لعظم مصابه  
 ذون واكفهرت حيرة وتندشما  
 فقلت لها ما كان ذاك تهاونا  
 بما نالنا من رزئه وتهشما  
 ولكنهما لما وضعنا بأصله  
 غديراً بأنواع الفضائل مفعلاً  
 بدت خضرة منه تروق ، وحزنه  
 كمين ، فلا نستطيعه توهشما  
 وما احمررت الأثمار إلا لأتينا  
 سقيناه دمعاً كان أكثره دما

وقد وقف معاصره وابن مدينته صلاح الدين الكوراني المتوفى سنة  
 ١٠٤٩ هـ<sup>(١)</sup> على هذه الايات فقال أيباتا منها :

فيا شجر العناب مالك شمرا  
 سرورا ولم تجزع على سيّد الحمى  
 على رسمه أورقت تهتز فرحة  
 وتُدلي اليه كل غصن تنمنا  
 أهذي أمارات المرّة قد بدن  
 أم الحزن قد أبكاك من دونه دما  
 ومها على لسان العناب :  
 نعم فرحتي أني مجاور سيّد  
 نسا حسبا في عصره ونكرما

(١) المرجع نفسه « خلاصة الأثر ج ٢ : ٢٥٤ » .

وحضرته روض" من الجنة التي  
 زهت بضجيع كان بالعلم مغرماً  
 أتعجبُ بي اذ كنتُ في جنب روضة  
 وحقِّي فيها أنْ أقيم وألزمنا  
 كمادة أشجار الرياض فإثها  
 تمكَّن فيها الأصل والفرع قد نما  
 وقد قيل في الأسماع إنْ كنت سامعا  
 خذِ الجارَ قبل الدار إذْ كنت مسلماً  
 أما سار من دار الفناء الى البقا  
 وأبقى ثناءً بالجميل معظماً  
 ومن كان بعد الموت يذكّر بالعلا  
 فبالذكر يحيا ثانيا حيث يمما  
 فقلت له يهنيك طيب جواره  
 وحياك وسمي الغمام اذا همى  
 لتسقط أثماراً على جنب قبره  
 ليلقطها من زاره وترحماً  
 فواعجبا حتى النبات زها به  
 فحق لنا عن فضله أن نترجما  
 فلا زالت الأنواء مغدقة على  
 ثرى قبره ما ناح طير" وزمزمنا

واضح أن هذه الايات رائعة الجودة والجمال بسا فيها من عاطفة حزن عميقة  
 قوية صادقة ومن احياء للنبات وجعله يشارك الحزين في حزنه وفي ادراكه فضل  
 المتوفى ، ومن حوار يبعث الحياة فيها ومن لطف خيال وحسن تعليل لخضرة

النبات الحزين • وواضح ان الشاعر الثاني الكوريني يعارض الاول ، ابن المتوفى ،  
( أحمد بن النقيب ) • وهذه الايات وان سُبقت بخيال مشابه في العهد القديم  
على لسان ليلى بنت طريف نرى أخاها المقتول في أياتها المشهورة :

فيا شجرَ الخابور مالك مؤرقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فإنَّ الشعارين المتأخرين قائلها قد بسطا الموضوع وأفاضا فيه وكانا قريين  
جدا في أدائهما من روح الشعر الإبداعي الذي قيل في القرن التاسع عشر ومن  
أسلوبه في الاداء ، وكانا إرھاصا سابقا له في البلاد العربية •

## الغزل

لعل الغزل أكثر فنون الشعرية قدرة على الاستمرار والبقاء والتجدد في  
الشكل مع بقاء المضمون حيا باقيا محافظا على كثير من أصوله لارتباطه بالغريزة  
الانسانية ، غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع ، ولذلك نرى أن القديم يمتزج  
فيه بالجديد كثيرا ونرى كثرة من القصائد والمقطوعات فيه تأتي جيدة أو ممتازة  
برغم أن مستوى الشعر في بقية الموضوعات قد لا يكون كذلك ، وذلك لان  
موضوع الغزل يتصل كما قلنا بالنفس الانسانية وتجاربها المستمرة الباقية مع  
بقاء الجنس البشري ولا بد من أن يكون لكل شاعر تجربته فيه أو تجاربه الحية  
الصادقة وانفعالاته المضطربة المتنوعة •

ولهذا كله نجد أن الغزل في العهد العثماني بمختلف أدواره قد تعددت  
أنواعه ونستطيع أن نميز فيه قسمين رئيسيين قسم القصائد وقسم المقطعات •  
فأما قسم القصائد فنجد فيه جميع الانواع التي رأيناها في عهود الدول المتتابعة  
السابقة : نجد بعض شعراء يجارون الأقدمين في معانيهم وأساليبهم ونجد بعضهم  
يتغزلون في مطالع قصائد المدح سواء أكان هذا المدح في عظيم أو قريب أو صديق  
ونجد بعض الغزل يستقل بنفسه في فصائد طويلة ونجد غزلا طبيعيا في النساء  
وغزلا شاذا في الغلمان وغزلا فيه شيء من التهتك يقال في مجالس الطرب والغناء •

وقد نجد الشاعر أحيانا يتذلل للحبيب وفق عمود الشعر العربي زقد نجد آخر يشور فيأبى أن يذل للحبيب ، ويعامله معاملة الند للند ، وفي ذلك كله نرى ان المعاني التقليدية هي الغالبة ولكن الى جانبها بعض المعاني الجديدة التي يستقيها الشاعر من تجارب واقعية ومن سوانح فكرية أو خيالية •

فأما المقطعات فقد أكثر منها شعراء هذا العصر لعدم حاجتها الى النمى الطويل كالقصائد ، ولانها يسكن أن تتضمن فكره جديدة طارئة أو تجربة عابرة أو تشبيها طريفا أو نكتة بديعة أو لفظة عاطفية أو سائحة بديعة لفظية • وتمتاز في نظرنا على القصائد بأنها أبعد عن التقليد وأقرب الى التجديد واحتواء المعاني والصور المبتكرة ، وأسهل تناولا منها على الذين يخطر لهم أن ينظموا الشعر من غير المحترفين •

وتتناول المقطعات غالبا إما الحديث في عاطفه الحب بصورة مجملة من غير تفصيل أو الحديث في نواحي جزئية من الجمال أو الاحساسات والتجارب مثل الحديث عن الثغر والريق والخذ المختضب ، والخال على الشفة ، والذؤابة التي تشبه الحية ، واستعمال بعض مصطلحات العلوم ، في الغزل نظرفا ، وبعض المعاني المستلطفة في مغازلة الأتراك ، وحسنا ترى صورتها في مرآتها ، ولفاء حبيب بعد هجر ... الخ •

ونلاحظ من حيث الاسلوب والشكل أن بعض الشعراء في هذا العهد قد عارضوا فصائد منسورة لسابقيهم ، وأحيانا لمعاصريهم وان بعضهم استخدم أسلوبا جديدا في الغزل بطريقة الدعاء الى الله والمناجاة ، وقد سبقه اليه أحد شعراء العهد المملوكي التركي ولكنه لم يتذلل على السن شعراء كثيرين ، كما نلاحظ أن بعض الشعراء استخدموا الرباعيات في غزلهم •

وقد وجدنا أن أرقى الشعراء غزلا في هذا العهد ، بحسب اجتهادنا ، هو ابن النقيب الشاعر الذي ألف فيه الدكتور عمر موسى باتشا كتابا جيدا أفدنا من بعض آرائه فيه ومن بعض النصوص التي اختارها ، وقد جعلناه في كتابنا المفصل مثالا على شعراء الغزل الممتازين في هذا العهد واخترنا له نصا يتغزل فيه برعبوية

على طريقة الجاهليين ونصاً آخر يتنزل فيه بحبيب رشيق بالغ النحافة مما يوافق ذوق الأوروبيين المتأخرين الإبداعيين في القرن التاسع عشر ، وأبياتاً له غنائية فيها بعض الانطلاق على طريقة بشار وأبي نواس ، وأبياتاً أخرى تمثل مغامرات له ونزوات عاطفية ، ولمحات عنده من الأدب الواقعي الجريء وأبياتاً له يخرج فيها على عمود الشعر العربي فلا يتذلل للحبيب • ولكن ضيق المجال في هذا الموجز منعنا من إيراد شيء منها •

وسنقدم للقارئ أمثلة على جميع الأنواع الغزلية التي تحدثنا عنها فنعطي بذلك صورة كافية عن غزل هذا العصر ومستواه الفني • فما جرى به شعراء هذا العهد الأقدمين قول البوريني ( ٩٦٣ - ١٠٢٤ هـ ) :

وكنها كغصني بانه قد تألقا يعنيهما صدح الحمام مرجعا سليميئ من خطب الزمان اذا سطا ففارقتني من غير ذنب جنيتشه عفا الله عنه ما جناه فإتني ولكن سيذكرى وده من كان مخلصا	على دوحة حتى استظالا وأينعا ويسقيهما كأس السحاب مترعا خليئ من قول الحسود اذا سعى وأبقى بقلبي حرقه وتوجعنا حفزت له العهد القديم وضيعا صدوقا ويدري من يكون مصنعنا
---	--

« الريحانة ج ١ : ٤٢ »

وهو من قول صفيه الباهلية في « الحماسة الطائية » •

كنا كغصنين في جرتومة سكا حتى اذا قيل قد طالت فروعهما أخني علي واحدي ريب الزمان وما كنا كأنجم ليل بيننا قسر	حيناً بأحسن ما تسمو به الشجر وطاب فيئهما واستنظر الثمر يبقي الزمان على شيء ولا يذر يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر
---	--

وفرق ما بين الشاعر المتأخر والساعة المتقدمة انها جاءت بالمعنى المشترك بينهما في الرثاء وجاء به هو في الغزل • ووضح أنها مبتكره المعنى وانه مقلد فيه • ولكن صياغته لا نقل عن صياغتها جلالاً وقوة ووضوحاً وسلامة •

ومن الشعر الذي قيل في مطالع قصائد المدح قول نور الدين العسيلي  
(ت ٩٩٤ هـ) :

هل بالحِمْي من بدور التّم إمكانُ  
أم الغواني تهادى وهي سافرة  
سقى الحِمْي ولياليه التي سلفت  
حيث الرقيبُ عمٌّ والضدُّ ذو صممٍ  
وحيث نرفل في ثوب الشباب الى  
يا صاح ان لم تمت من بعدها أسفا  
لي في الديار سقاها المزن صيّبه  
يا ربّة الحسن قد بالغت في تلفي  
هلا نظرت الى مضاكِّ راحمةٍ  
ولائمٍ ظلّ يُبدي لي نصيحتَه  
وكان ظاهره عنوانَ باطنه

ومنها في المدح :

اني امرؤ ما حييت الدهرَ أمدحكم  
حسنتَ ظني ومدحي فيكم فعسى  
« الريحانة ، ج ٢ : ١٩٩ »

وقول الشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ في مطلع فصيحة يمدح بها  
محمد بن قاسم الحلبي :

حُتامٌ يغزوني صدودُه  
لم أدرِ فاترُ جفنيه  
نشوانٌ يعبت بي كما  
لولا مِياه الحسنِ جا  
كالصبِّ لولا دمعُه  
والصبرُ قد كثرن جنودُه  
والخصرُ أسقم أم عهدُه  
عبت بآمالي وعودُه  
لت فيه لا حرقَتْ خدودُه  
يهسي لأحرفه وفودُه

يُخَفِّي الهوى وغيوثه  
فسقى رياضَ الحسنِ من  
زمنٍ "بجيد اللهو قد  
إذْ دَوْحٌ أنسي يانع"  
والكأسُ نجمٌ لاح في  
يصفو فيحلي ذكر من  
ذاك ابنُ قاسمٍ الذي  
بغرامه المضني شهوده  
دمعي حياً يهسي مديده  
نظمت على نسق عثوده  
بكؤوسنا انفتحت وُروده  
فلك المسرة لي سعوده  
قد زين الدنيا وجوده  
ما زال في تعب حسوده

« الريحانة ج ١ : ٧٩ »

ويلاحظ على الشاعرين أنهما قد أطلاا الغزل في مطلع مدحهما وان الثاني قد ألحق بالغزل وصف مجلس اللهو والخمر والنبس علينا الامر فلا ندري أهو يتغزل بفتاة أم غلام لاستعماله ضمير المذكر ، وقد أجاد في هذا الغزل طبعا وسلاسة وصورا وسهولة وحسن تعبير ولم يأت فيه بشيء جديد من المعاني والصور غير تقليدي معروف وأحسن التخلص الى ممدوحه وانتقل من وصف متعة الكأس الى حلاوة ذكر الممدوح الذي زين الدنيا وجوده وأتعب حساده بكثرة فضله . ذلك هو صديقه ابن قاسم . وفي أبيات كل من الشاعرين نفحة شعرية رفيعة وحلاوة تدلان على جودة قريحة وأصالة طبع . وقد رأينا في الابيات السابقة نمطا من الغزل التقليدي الذي يأتي في مطلع القصائد واليك هذا المثال من الغزل المقصود لذاته الذي أكثر منه شعراء هذا العصر ولم يقتصر كثير منهم فيه عن سابقهم :

قال ابراهيم بن المبلط الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ يتغزل من قصيدة طويلة :

حدثت بانة الحمى عن صباها  
أن عصر اللقاء آن ووافى  
ونسيم الصبا يؤدي الأمانا  
كم نسيم سرى فسر قلوبا  
تعرف العاشقين منها نسيما  
عن ثنيات مكة عن صفاها  
وزمان النوى انقضى ونهاى  
ت الى أهلها كما قد رواها  
شفها البعد والنوى فشفاها  
ت ، وهم يعرفونها شذاها



إنَّ أبدى الفراق جارت علينا      في قضاءٍ فحسبها وكماها  
آهٍ وا وحشني لأحتاءِ فلبني      وفليلٍ فولي على البعد آها

« المنتخب ج ١ ، ص ٢٢٢ »

فهذه الايات تذوب رقة وعذوبه وتعبر عن تجربة صحيحة وعاطفة صادقة وقد أحسن الشاعر استغلال الحديد عن النسيم وربطه بربوع الحببة في مكة وبأثره في نفسه وعلل أثره في العاشقين وأحسن السبك والتصوير والتعبير عن لواعج الحب والشوق والالام ولا سيما في البيت الاخير « آه وا وحشني » وأحسن في الجناس بين وا وحشني واحشاء وبين قليل وقولي كما أحسن في اختيار موسيقا البحر والقافية .

ومما يتعلق بالغزل بالعلماء في هذا العهد ما قاله الطالوي ( ٩٥٠ - ١٠١٤ هـ ) وكان له غلام يحبه فاستلبه منه فخر الدين بن فرقماس بن معن الدرزي فغضب لذلك واستعدى عليه الشريف أمير الشام ليتصف له منه بقصيدة تقتصر منها على الأبيات التالية :

بالله يا نثر العيب      ر سري بروضات الغري<sup>(١)</sup>  
طاف المشاهد واتثنى      نشوان من كأس روي

• • • •

إن جئت ربع الشام فاق      صيد ساحة الشرف العلي  
أعني الشريف ابن الشريف      ابن الشريف الموسوي  
متحملا عني السلا      م كسك دارين الذكي  
لجناب مولانا الوزير      ر ولي مولانا علي  
ثم اشرحن من حال مو      لاه المحب الطالوي  
ماذا لقي في ثغر صي      دا من دروزي غوي  
وافى بمكنوب الشرب      ف اليه من بلد قصي

(١) الغري : موضع بالكوفة دفن فيه الامام علي كرم الله وجهه .

أوصاه في أخذ الصبي	يُوصيه فيه كأنما
لا كان ، بالكأس الروي	فبقاه يوم فراقه
يكسي بدمع عند مي	وغدا الحشا من بعده
فيها الى خيل وفي	في غربة لا يشتهي
ياوي الى ركن قوي	لا جار يحمله ولا
ف الطاهر الشيم الزكي	إلا الى ركن الشريد
يف بكل أبيض مخدمي	حامي حمى الشرع الشر
ك فجده من غير لبي	مولاي لي حق علي
أخي النبي الهاشمي	بؤلاء حيدة الوصي
ري من كفور بالنبي	لا تهملن من أخذنا
فيها الكمي على الكمي	وابعث اليه مقابلاً
ء ثنت سراه عن مضي	لو حاربت جند القضا

« الريحانة ج ١ ، ص ٦٣ »

مما علّق به الشهاب الخفاجي على الايات السابقة بأنّ الوصي هو الامام علي كرم الله وجهه وذلك لان الشيعة تعتقد بأن النبي تأخى معه في غدير خم ولا تعتقد السنة ذلك . وكذلك علّق على قوله « لو حاربت ... » بأنه غلو كان ينبغي تركه .

ويلاحظ أنّ أمير لبنان قرقماس لا يستحي في ذلك العهد من أخذ الصبي من صاحبه اغتصاباً لا لينقذه بل ليكون حاله عنده حاله عند مالكه ، وكذلك نرى أنّ الشاعر لا يستحي في أن يستشفع بالشريف الهاشمي الذي كان حينئذ أميراً على الشام في أن يرد له غلامه من قرقماس وكأنه يطلب منه أن يرد له داره أو زوجته الشرعية المغتصبة . وهذا يدل على أن عادة الشذوذ الجنسي كانت مألوفاً لدى هؤلاء القوم حتى لكأنها أمر طبيعي قانوني .

ومن الغزل الذي قيل في مجالس اللهو والغناء والمتعة ما قاله أبو المواهب البكري (ت ١٠٣٧ هـ) وهو :

حبيثك دانٍ رقيبٌ قريبٌ  
نعم هو دانٍ ولكنني  
نكائي عليّ لأنني بليت  
وفاز المحبون دوني بما  
فهمّني وفهّسي زاداً فما  
فيا هل ترى بعد هذا البعاد  
نعم هو ذاك ستعطى مثلك  
وتهنز بالبسط<sup>(١)</sup> في مَرَبَعٍ  
وحبس الكواعب عيّدانها  
وتقضي حقوق الفؤاد المشوق  
يهزّ من التيه اعطافه  
ونحس عكوف على لهونا

فماذا البكاء وماذا النحيب  
بعيدٌ فقيّد طريد عريب  
بداء الصدود وعزّ الطبيب  
به كلّ وقتٍ لديهم يطيب  
بقائي في النقص ، أمرٌ عجيب !  
يزول الصدود ويرضى الحبيب  
بأوفر حظٍّ وأوفى نصيب  
به مرتعٌ للأمانى خصيب  
وجسّ رباب الغزال الريب  
بخمر يروق وساق أريب  
فتحسبه بانه في كئيب  
وليس سوى القبض عنا يغيب

« الريحانة ج ٢ ، ص ٢٣٤ »

فالشاعر في هذه الايات يأسى على أن حبيبه دانٍ منه ولكنه بعيد عنه لانه يهجره ويكي على أن المحبين ينالون ما يريدون دونه ولكنه يتفأل بأن هذه الحال ستتغير نم لا يلبث أن يتحدث عن عزف الحسان الكواعب بعيدانهن وضرب غزاله الايف على ربابه وعن تناول الخمر واهتزاز أرداف الساقى ويستعمل ضمير المذكر له فلا ندري أيستعمل هذا الضمير على المجاز أو على الحقيقة وان كنا نرجح المجاز لذكره الكواعب في المجلس قبل ، وتنتهي الايات بانه هو واصحابه عاكفون على لهوهم ولا يغيب عنهم الا القبض الذي استعمله بمعنى الانقباض النفسي في مقابل البسط التي استعملها قبل بضعة آيات بمعنى السرور والمرح كما تستعملها العامة والأيات سهلة خفيفة صالحة للغناء وكأنه نظمها ليغنى بها .

ونرى الشاعر في هذا العصر يجري على عادة الشعراء القدامى في الغزل

(١) استعملها بالمعنى العامي اليوم .

الموافقة لعمود الشعر العربي الاصيل ويبدى نذله للجيب ويرجوه الوصال ،  
ومثال ذلك قول منجك ( ١٠٨٨ هـ ) :

ألقى فؤادي في أوار	قمر" يتيه من اسكدار
وأودث لو علقت بذي	ل الوعد منه يد انتظاري
أتراه يدري بالذي	فاسيته أم غير دار
أغدو به حيران لا	أدري يميني من يساري

« ديوان الشاعر ، من الروميات »

في هذه الايات وصف لتمنع الجيب ولشدة تعلق الشاعر به وسعي الى  
ترقيق قلبه عليه لكثرة ما يقاسيه من أجله • وأجل ما فيها وصف حيرة الشاعر  
وضياعه أمام جمال الجيب وتمنعه حتى لا يعرف يمينه من يساره •

وقد نسب حبيبه فيها الى اسكدار فدلّت على انه تركي على أننا لا نستطيع  
الجزم بأنه غلام فقد يكون فتاة أو امرأة واستعمل ضمير المذكر له على المجاز •  
وها هو ذا منجك نفسه في مكان آخر يصف تعلقه بحبيبه ولكنّه يعنى فيه  
بوصف جماله الجسدي في ايات رقيقة تصلح للغناء والرقص :

نأهى عنده الأمل	وقصر دونه العذل
رشا يفتقر عن برد	تكاد تذبّثه القبل
بخامر عطفه ثمّل	يمل به ويعتدل
يبتّل ما يروق لنا	بصم : خدّه الخجل
فليت به كما اتصلت	حشاي الطرف يتّصل
إذا ما الخدّر أبزره	تناهب حسنه المقل
لفد أغراه في تلقى	شباب" ناضر خضيل
وقد حشوه هيف	وطرف" ملؤه كحل

« المنتخب ج ١ ، ص ٢٢١ »

وهذه الايات تستاز بالسهولة وحرارة العاطفة وتدفع المعاني ولطف الخيال

وحلاوة الموسيقى وما أجمل فونه في وصف ثغر الحبيب : نكاد تذيبه القبل • وفي وصف تمايله حين المشي : يخامر عظمه تمكّل ••• وقوله في وصف جماله الكلبي :

إذا ما الخِدرُ أبرزه      تناهَبُ حنَّه المقل

وأما المقطّعات الغزلية التي أكثروا منها جدا فمثالها قول عبد الرحيم المباسي ( ٨٦٧ - ٩٦٣ هـ ) :

ألؤلؤ نظم هذا الثغر أم حَبَبُ      وورقَفَ "طعم" ذاك الريقِ أم ضَرَبُ  
وما أراه بصحن الخِدِّ ورَدَّها<sup>(١)</sup>      أم وجنة "بدم العشاق تختضب

« الريحانة ج ٢ ، ص ٦٢ »

حشر الشاعر في هدين البين عدة تشبيهات فديمة ولكنه أحسن جمعها وسبكها بصيغة التساؤل واسعمل التشبيه الضمني المقلوب في البيت الثاني فجعل صحن الخد هو الذي يورد الخسر لا العكس • وفي الشطر الثاني ، معنى جميل ولكنه قديم وهو اكتساب الوجنة احمرارها من كثرة دم العشاق الذي أراقته • ومنها قول نور الدين العسيلي في الخال على الشفة :

كان الخال في شفة الذي قد      كساني الشبَّ فبل أَوَّان شبيبي  
قطاة أفردت من بين سرب      نروم الورود من ماء العذَّيب  
« الريحانة ج ٢ ، ص ١٩٩ »

شبه الشاعر الخال على الشفة بالقطاة المنفردة عن سربها التي ترد موردا صافيا عذبا • وقد استعمل اسم التصغير العذيب مكان العذب تلطفا وتظرفا ويريد بالعذيب الفم على طريق الكناية والتورية • والتشبيه في البين لطيف موفق ، والمعنى طريف • ومنها قول نور الدين العسيلي :

دبت له ذؤابة      كحبة من خلقه  
تحمي ضعيف خصره      من خارجي ردفه  
« الريحانة ج ٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ »

(١) الضمير يعود الى القرقف أي الخمر •

لعل الشاعر نظم هذه المقطوعة ليشبه ذؤابة الحبيب بالحية الممندة خلفه  
التي خسرته النجيل من ردفه الثقيل الذي برز وراء ظهره \* وقد استعار كلمة  
الحيية المعروفة في التاريخ الاسلامي بمعنى التأثير على الحكم القائم للدلالة على  
بروز ردف الحبيب عن سائر جسده كأنه نائر على الجسد واستعار كلمة ضعيف  
للدلالة على معنى النخافة ليقابل بين الضعف والقوة المفهومة من الخروج ،  
والثورة ، واستعمل في البيتين معا ما يسمى بحسن التعليل \*

ومنها قول نور الدين العسيلي نفسه يتنزل :

كأن الذي أهوى، على نفسه جنى	فمال على تلك المحاسن بالفتك
فأغروى خديسه بساء جماله	وأوقع في الظلماء ناظره التركي
وألقى بنار الخد خلا كأنه	من المسك مطبوع فناديت يامسكي
وها جفنه يسكي عليه من الضنى	وها خصره من ثقل أردافه يشتكي

« الريحانة ج ٢ ، ص ٢٠٠ »

والشاعر في هذه الايات بعده تنسيهات في بعضها غرابية وطرافة كإغراق  
الجنس الجمال ويشبه الخال على الخد بالمسك ويجعل جفنه باكيا من نحافته  
بأنه من ثقل ردفه فكأنه يجسع في قدّه بين نوافر الأضداد \* وقد عارض  
بعض هذا العهد بعض قصائد سابقينهم أو معاصرينهم كما فعل أسلافهم من قبل  
من ذلك الايات التي عارض بها البهاء العاملي ( ت ١٠٣١ هـ ) أباينا لو والده \*  
وهذه ابيات والده :

فأح عرف السببا وبساح الديك	وانثنى البان يشتكي التحريك
فسم لنا نجتلي مشمشعة	تاد من وجدّه بها النسك
لور راهسا المجوس عاكفة	وحادوها وجانبوا التشريك
ان سسرّ نونا سسرّ وان	متّ في السبر دوننا نحيك

« خلاصة الاثر ج ٣ : ٤٤٠ - ٤٥٥ »

أما كافيته فسطعها :

يا نديسي بمهجتي أفديك°  
خمرة° ان ضللت ساحتها  
يا كليم الفؤاد داور بها  
هي نار الكليم فاجتليها  
صاح ناهيك° بالمدام فدم°  
ومنها :

لست أنساه اذ أتى سحرا  
طرق الباب خائفا وجلا  
قلت صرّح فقال تجهل من  
قال : خذها فمذ° ظفرت بها  
ثم وسّدتة اليسين° إلى  
قلت مهلا فقال : قم° فلقد°  
وحده وحده بغير شريك  
قلت من ، قال : كل° ما يرضيك  
سيف° ألحظه تحكّم° فيك  
قلت° : زد°ني فقال لا وأبيك  
أن° دنا الصبح° قال لي : يكفيك°  
فاح نشر° الصبّا وصاح الديك°

« سلافة العصر ٢٨٩ ، وخلاصة الاثر

ج ٣ : ٤٤٠ ، والريحانة ج ١ : ٢٠٩ »

كل من الأبيات المعارضة والمعارضة جميل وأبيات الابن أجمل في رأينا  
من أبيات الأب • وهي أكثر بسطا في الحوار وفي أداء المعاني وأحفل بالفنون  
البدعية وقد ختمها بشطر بدأ به أبوه أبياته ولم يغير فيه الا كلمة « عرف » التي  
استبدل بها كلمة « نشر » •

وكل من الأب والابن مزج الغزل بالحديث عن الخمر وكان الابن أكثر  
استفاضة في الغزل وأكثر واقعية •

وقد أورد الخفاجي للبوريني الابيات التالية على أنها أسلوب من أساليب  
الفصاحة لطيف بيّنه في كتابه « حديقة السحر » وهو نقّل الكلام من طريق  
الى آخر • كاستعمال ما عهّد استعماله في الدعاء والمناجاة في التغزل :

إلهي أدِمْ حاكمَ الحبِّ فينا  
إلهي وزدْ ذلكَ القَدْرَ لينا  
إلهي على ضعفِ أهلِ الهوى  
إلهي جنودَ الهوى أعطِها  
إلهي على الحبِّ ألفيتُ صبرا  
إلهي أجبتُ رسولَ الهوى  
إلهي رضيتُ بما ترتضي  
إلهي لي الجبرُ فيما ترى  
إلهي أعِدْ ليلَ هجرانيهِ

مُطاعا وكلِّ البرايا أسارى  
وأشربُ سقيمَ الجفونِ العثارا  
أنلُ لحظته في القلوبِ اقتدارا  
على قوة الصابرين انتصارا  
وعن حسنه ما أطق اصطبارا  
ولم ألقَ منذُ دعائي اختيارا  
بسرِّي وسلّمتُ أمري جهارا  
وانْ ظنّته العاذلون انكسارا  
وصبحَ الوفا بالتلاقي نهارا

« الريحانة ج ١ ، ص ٤٧ »

والحقيقة أن في هذه الايات جدة ، في الروح والاسلوب والمناجاة العذبة .  
والعاطفة فيها سخية حارة ، وهي جديرة بأن يتكلم عليها طويلا فتوفى حقها .  
واختيار الخفاجي لها وتعليقه عليها يدلان على حسن ذوقه . وقد أكمل تعليقه  
بقوله : ومثله قول ابن الوكيل :

يا ربّ جفني قد جفاه هجوعه  
يا ربّ قلبي قد تصدّع بالنوى  
يا ربّ في الأظعان سار فؤاده  
والوجد يعصي مَهْجتي ويُطيعه  
فإلى متى هذا البعادُ يروعه  
يا ليتّه لو كان سار جميعه

« الريحانة ج ١ ، ص ٤٧ »

وهذه الأيات على قلّتها ليست دون الاولى جودة ولكنها أقصر نفسا  
وأقل غنى وهي أسبق قولاً وأظهر ابتكاراً . فهي ترجع الى العهد المملوكي الاول .  
وقد استعمل شعراء هذا العهد الرباعيات في الغزل ومنها هذه الرباعية  
للشهاب الخفاجي في معنى قديم جديد :

غُصْنٌ غَضٌّ لَهُ الْمَعَانِي تَمَرٌ  
يَجْنِي فِيظَلُّ دَائِمًا يَعْتَذِرُ



لَمْ أَلْقَ شَيْئاً وَجْهَهُ فِي أَحَدٍ  
إِلَّا الْمِرْآةَ صَفَّتْ فِيهَا نَظَرُوا

« الريحانة ج ٢ ، ص ٢٠١ »

لقد جعل هذا الشاعر الحبيب غصنا غضا يثمر المعاني الجميلة ويسيء دائما الى المحب ويواصل الاعتذار ولكن يحق له الدلال لانه لا شبيه له الا نفسه حين ينظر في المرآة \* والمعنى طريف غير مبتذل ، ولكنه قد سبق اليه آخرون \*

## الشعر في الخمر والحشيشة والغناء

وصف الشعراء في هذه العهود الخمرة على غرار أسلافهم واهتموا بوصف مجالسها وما قد تضمنته من غناء وعزف وما يحيط بها من إطار جليل من الطبيعة وما يرافقها من متعة ولهو \* وتحدث بعضهم في شعره عن الحشيشة مستحسناً مضغها أو مقبجاً \* وظهر لوثان جديدان في هذا المضمار لم يكونا معروفين قبل هذا العهد : أحدهما الحديث عن قهوة البن وما فيها من متعة وما دار حولها من أقوال التحليل والتحرير ، والثاني الكلام على الدخان وتحريمه أو إباحته وما يكون في تناوله من لذة \*

فأما الخمرة فأحسن من قال فيها خلال هذا العهد شاعران متعاصران صديقان أحدهما منجك ( ١٠٠٧ - ١٠٨٠ هـ ) والثاني ابن النقيب ( ت ١٠٨١ هـ ) وبين الرجلين أوجه التقاء كثيرة \*

فأما منجك وهو أسبق ولادة وأطول عمرا فقد أضاع ما ورثه عن أبيه في اللهو ولما عضت به الحاجة لم يجد حوله أحدا يساعده أو يسعفه من إخوان الصفاء السابقين فسافر الى بلاد الروم ( الترك ) يبغي الفرج فأب خائباً وانزوى في بيته \*

وأما صديقه ومعاصره في النصف الاخير من حياته ابن النقيب فقد إختارته المنية شاباً ولم تتح له أن يقدم كل عطائه الفني شعرا ونثرا وقد كانت تباشيره

جيده بل رائعة أحيانا لا في وصف الخمرة فقط ، بل في وصف الطبيعة والغزل أيضا •

يمزج منجك الغزل بالدعوة الى الخمرة واللهو والسرور أحيانا وذلك في مثل قوله :

وافى الربيع فما عليك بعارٍ  
صهباءٍ ليس يجوز عندي مزجها  
تدعُ الدجى صباحا اذا هي أبرزت  
قم هاتها حيث الهزارُ قد اغتدى  
طير " أعاد الغصن جنكا ركبته  
وتبشّه ريحُ الصبَا ويثشها  
فانهض لنغتم الشبية قبل أن  
واشرب على ورّد الربى إن لم تجد  
وانصب بفكرك في الهوى شرك المني  
هذا ولست أرى اذا فقد الذي  
هيئات ما الناي الرخيم ونشوة الخمر القديم ونغمة الأوتار  
وحنين هينمة الرياض عشيةً وتراسل الأطيّار في الأسحار  
عندي بأحسن من مشاجلة الأحبة بالصباغة في سنا الأقمار  
من كل معبود الجمال محكم

« الريحانة ج ١ ، ص ٢٤٥ »

يريد منجك في هذه الايات أن يطلق خياله وراء الصور المحبة اليه وفكره بأن يساجل أحبته فيما تستعبد به الاحرار من الكلام الجميل وهو يراعي واقعه الفقير فان لم يتح له لفراغ كيسه أن يشرب على ورد الخدود فليشرب على ورد الربى •

وتنطق الايات بغرام الشاعر بالمتع المعنوية والحسية وبحبه اغتنام زمن الشبية وفرص الاستمتاع قبل أن يكدر صفوه ظهور المشيب في رأسه •

وتبدو فيها شدة احساسه بالجمال وولعه بالشراب والاستمتاع بالجمال  
الانساني ونراه لا يكتفي بالنشوة بجمال الربيع ومعاقرة الخمر وارتشاف ريق  
الحسان بل يضيف الى ذلك كله نشوته بسحر غناء الاطبار في هيكل الطبيعة  
الشجراء وهو اذ يشمل بهذا الجمال كله المنظور والمسموع والمتذوق والمشموم  
واللموس فيشرك فيه حواسه الخمس. يتخيل أن الخمر قد عصرت من الانوار  
ولذلك هي تحوّل الليل الى نهار ، وأن الأغصان قد تحوّلت الى عود صنّعت  
أوتاره النضية من قطرات الامطار . وقد دعا الى اغتنام الشرب دعوة خيامية  
في قوله :

فانهض لنغتتم الشيبية قبل أن  
يرمي المشيب الصفو بالأكدار

فدلّ على روح تشاؤمي عنده يدعوه الى مسابقة الزمن بانتهاب اللذة لانه  
يتربّح أن ينزل به شروره . ومن هذا القليل قوله :

قم هاتِها فاتتهاب العيش مغتتم  
من كف مغدّل في خير إبان  
حيث الرياض اكتست من سندس حلاً  
وتوجّجت يواقيت وعقيان

« خلاصة الاثر للسحبي ٤ : ٤٠٩ ، والديوان »

ففي هذين البيتين يستسقي الخمر في مربع الرياض السندسية ومن يد ساق  
جميل معتدل القوام ولكنه يشعرنا في الوقت ذاته أنه بنهب لذّاته وبغنمها لانه  
ليس واثقا من دوامها .

وقد ينسى كل شيء إلا الانصراف الى لذته والإشادة بها ومن ذلك قوله  
يصف مجلس خمر دام حتى الصباح وتجاوب فيه عزف الناي مع تغريد الطير :

وروضة أنس باب فيها ابس أيكة  
يغرّد والسي الرخيم ينسّف

فَظَلَّتْ عَرَانِينَ الْأَبَارِيقِ بِالطَّلَا  
إِلَى أَنْ بَدَتْ كَافُورَةُ الصَّبْحِ تَرَعُفَ

« الريحانة ج ١ ، ص ٢٥٤ »

وجميل جدا تشبيهه بداية ظهور الصبح بكافورة ننقط فوق الكون قطرات  
كما يعرف الدم من الأنف \* ولكن هذا التشبيه جميل شكلا سيء احياء لأنه  
يشعر بالضعف والمرض وقد يدعو الى التشاؤم والنظر الى الدنيا بمنظار أسود ،  
ولكن الشاعر حين نظم الابيات كان في حقيقة نفسه متشائما \*

وقد لا يكنفي منجك بوصف الخمر ، بل يصف الساقى ويتببه خديه بالورد  
والخمر فيقول :

هَبْ يَجْلُو الرّاحِ فِي كَأْسِ الشَّجِينِ  
فَاتِرُ الْإِلْحَاطِ خَالِي الْعَارِضِينَ  
وَتَحَسَّى وَسَقَانَا قَهْوَةً  
مَزَجَتْ مِنْ مَاءٍ وَرَدِ الْوَجْتَيْنِ

« المرجع السابق نفسه »

والمعاني في هذين البيتين مألوقة ، بل تكاد تكون مبتذلة ولكنها جميلة لأنها  
دائمة متجددة على الزمن وقد لا يمل الانسان من تكرارها ، ولعل صلاح البيتين  
للغناء ، ووصف الساقى بأنه تحسّى الخمر قبل أن يسقيها الشاعر وصحبه ، قد  
عدّلا من ألفة المعاني وابتذالها وجعلها قريبة من القلب \*

وقد يمزج بين الاستمتاع بكأس الخمر وريق الشجر كقوله :

نَبِهَ جَفُونُكَ مِنْ نَعَاسِكَ      وَاسْحَ بِرَيْقِكَ أَوْ بِكَاسِكَ  
طَابَ الصَّبُوحُ فَهَاتِهَا      وَاشْرَبْ مَعِيَ بِحَيَاةِ رَاسِكَ

« الريحانة ج ١ ، ص ٢٥٠ »

وفي هذين البيتين إيجاز جميل موحٍ وفهما أتر من اللغة الواقعية الشعبية

التي لا نزال نستعملها في عاميتنا اليوم ، وهو استحلافه الساقى بقوله : بحياة  
رأسك • وفيها استباحة إحدى اللذتين : الريق ، أو الكأس ، أو اللذتين معا •  
وقد عني منجك الى جانب الخمر بوصف متعته وملذاته وما يتصل بها •  
قال يعجب بربوة دمشق ويشبه غناء أطيارها بالعزف على الدف والجنك :

أربوتنا حيّتك عنا السحائبُ  
فأنتِ لوجه الأرض عينٌ وحاجِبُ  
فأسودك الغريْدُ بالدفِّ مولعا  
تبدّت لنا بالجنكِ منه عجائبُ

« خلاصة الاثر للمجيب ج ٤ ، ص ٤٠٩ »

ونرى في البيتين قوة شعور منجك بجمال المنظورات وجمال المسموعات معا  
وشدة تعلقه بجمال « الربوة » في دمشق كغيره من الدمشقيين ومن يزورون دمشق  
من خارجها وهو ينسبها الى نفسه وأهل بلده فيقول « أربوتنا » ويجعلها عين  
الارض وحاجبها أي أحسن شيء فيها • ثم ينسب تغريد بلابلها وسائر أطيارها  
بنغمات الدف والجنك (١) وهما آلتان موسيقيتان معروفتان • ويوري بالجنك  
عن مكان جميل معروف فيها • وتحمله شدة حبه للهو على أن بأسى على بعض  
مجالس لهوه الخالية في أحد القصور المنجكية في دمشق :

قصير الأمير بوادي الرقمتين سقى	رُبّاك عني من الوسمي مدرارُ
كلّم مرّ لي فيك أيامٌ هواجرها	أصائلٌ ولياليهنّ أسحارُ
حيثُ، الشيبية بكر من غضارتها	وللصباية أحلاف وأنصارُ
حيثُ الرياض تغنّيني حمائمها	بالدف والجنك والمنثور لي جارُ
حيثُ الخمائلُ أفلاكٌ بها طلعت	زهرٌ من الزهر والنّدمان أقمارُ
حيثُ المدامة رقت في زجاجتها	يديرها فاتن الأجفان سحارُ

(١) الجنك ، العود ، ومكان في دمشق يورّى به هنا .

ياقوتة" أفرغت في قشر لؤلؤة  
متوَجِّجَ الراح بالإبريق ذا قرطٍ  
يسقي وأسقيه من ثغر ومنٍ قدَحٍ  
فلاح للشرب منها النشور والنار  
مثل الهلال له الجوزاء زَّار  
الى الصباح فمِرباح ومِخسار

« الريحانة ج ١ ، ص ٢٤٥ »

وهذه الايات الرائعة لا تقلَّ جمالا عن أجمل أبيات أبي نواس في الخمر  
والساقى وهي تتصل بنفس منجك وحياته اتصالا وثيقا صادقا فراه يأسى على  
قصر آبائه وأجداده الذي كان يحب أن يبنى له ويأسى على أيام وليالي قضاها  
فيه فيشبهه هواجر أيام الحر بالاصائل لكثرة ظلالها ويشبه الليالي بالاسحار  
لجمالها ويصف تلالؤ الاضواء فيها وحسن استمتاعه بلذاتها وبرفة جمال الطبيعة  
وغناء الحمائم وطيب محادثة الندمان ، ثم هو يحنّ الى عهد شبابه العزيز الذي  
كان فيه وافر العز والتكريم ويرثي استمتاعه فيه بالخمر كأنها الياقوتة أو النور  
والنار وبالساقى الجليل الساحر ويتبهره بالقمر ويشبه زناره بالجوزاء ويصف  
تساقيه معه الخمر والريق حتى الصباح فمرة يأخذ منه ومرة يعطيه فكان كل  
منهما مرباحا ومخسارا في الوقت ذاته \*

ان هذه الايات أكثر من ذكرى لدى الشاعر ، إنها رثاء الشباب العزيز  
المرح الذي فقدهم الى الابد فهو يبكي عليه بدموع العين ودموع القلب \*

ونجد بين هذا الشاعر وبين ابن النقيب نقط تشابه وتلاق كثيرة فقد وصف  
ابن النقيب الخمر والكأس والساقى والنديم وكانت دواعيه للخمر كثيرة : الطبيعة  
الدمشقية والحانات والأديرة والجمال والفتنة والصبا والشباب والربيع والفراغ  
والغنى والمكانة الاجتماعية \*

وله قصائد خاصة بالخمر ومجالسها وهي مطبوعة بطابع ذاتي ويجمع فيها  
بين وصف الطبيعة والخمر وبين الغزل \*

وكان لابن النقيب مجالس جد الى جانب مجالس اللهو وفد وصف مجلسا له  
عند بعض أصحابه الأدباء فقال :

نحن في روضة من الآداب      سُقبتْ بالفُهوم لا بالسحاب  
ضَمْنَا مجتلى عرائس أفكاً      رَجَلَتْهَا قرائحُ الألباب  
والذئ القريض ما كان غضاً      مستَجِدّاً قريبَ عهدِ الشباب  
فاسقٍ منه شَرِبَ المتسامع كأساً      لبني العصر زائداً الإطراب  
أنا في حانة القريض فما لي      لا أرى دفتراً شهيءَ الشراب

« الديوان ص ٣٨ »

وقد أظهرنا ابن النقيب في وصف هذا المجلس على الجانب الآخر الحلو الجاد  
من حياته وشبه فيه خمر الآداب بخمر الأعناب وأبدى رأيه في الشعر الجيد وهو  
عنده ابن القريحة الذكية المبتكرة ، الغضّ الجديد الذي لم يَخْلِقْهُ القِدَمُ  
والابتذال ، الملائم لذوق عصره وأحواله .

ونراه يصف مجلساً أديباً آخر بالسرف المطلّ على مرج دمشق الأخضر  
فيقول :

يا حبّذا منزلٌ ومرتبِعٌ      طاب لنا اليومَ فيه مجتمَعٌ  
في معشرٍ لم تزل مأثرهمُ      تُتلى بأوج العُلا وتُستَمَعُ  
فهمٌ لطيب الجدود قد نزعوا      وفي رياض العلوم قد رتعوا

« الديوان ص ١٩٥ »

وفي هذه الايات الثلاثة يبين لنا ابن النقيب رأيه في الاصدقاء والندامى  
المثاليين في مجالس الجد فهم الذين يجسعون بين كرم النسب وسعة الثقافة ولا  
يكتفون بأحدهما .

وقد حبله ولعه بالغناء على نظم قصيدة طويلة يؤرخ فيها للغناء والمغنين منذ  
بدء العصر الأموي حتى آخر العصر العباسي وتكاد تكون ملحمة فنّ الغناء في  
الادب العربي . ونكتفي منها بالايات التالية على سبيل المثال :

كلّما جدّ الشجيّ ادّكاره      أزعجَ الشوقُ قلبَه واستطاره  
ليت شعري اين استقلّ عن الله      سور بنوه وكيف أخلّوا مزاره

شَرُّ وَنَالُوا طَوْعَ الْهَوَى أَوْ طَارَ  
وَاجْتَلَوْا مِنْ زَمَانِهِمْ أَبْكَارَ  
وَسَمَاعٍ وَلِذَّةٍ وَغَضَارَ  
أَوْ أَنَاخُوا فَوْرَدَةً وَبَهَارَ  
قِيَانٍ يَعْزِفْنَ خَلْفَ السِتَارِ  
وَهُنَا وَاللَّيْلِ مُرْخٍ إِزَارَ  
هَ وَكَأْسُ الطَّلَا<sup>(١)</sup> لَدَيْهِمْ مُدَارَ  
وَخِيُولُ الْهَوَى بِهِ مُسْتَطَارَ  
سَ وَمَا قَدَّعَرَاهُ فِي عَمَّارِهِ  
ظَلَّ إِذْ عَاقَرَاهُ صَفْوًا عُقَارَ  
وَقَتِيبُ بْنُ مَسْلَمٍ وَنَهَارِهِ  
« الدِّيَوَانُ ص ٢٠ »

بَعْدَ مَا رَاوَحْتَهُمْ صَفْوَةً الْعِي  
وَجَرَوْا فِي مَطَارِدِ الْأَنْسِ طَلْقًا  
بَيْنَ كَأْسٍ وَرَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ  
أَيْنَ حَلَّشُوا فَمَعَثَبَ وَمَقِيلَ  
مِنْ مَلِيكَ زَفَّتْ بِحَضْرَتِهِ الْكَأْسُ  
وَوَزِيرٍ قَدَبَاتٍ يَسْتَرْقِ اللَّذَاتِ  
وَأَمِيرٍ مَنَظَّقٍ بِنْدَامَا  
كَمْ فَتَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَمْسَى  
كَزَيْدٍ وَشَأْنُهُ مَعَ أَبِي قَيْ  
وَنَدَامَاهُ كَابِنَ جَهْدَةٍ وَالْأَخِ  
وَقَضَى لَيْلَهُ مَعَ ابْنِ زِيَادٍ

ويبدو لنا ان الشاعر قد نظم هذه القصيدة ليبيدي إعجابه بفن الغن  
وبالمغنين المشهورين لأن فن الغناء قد أخذ عليه لبّه في مجالس لهوه وفي غيره  
فأحب أن يؤرخ لهذا الفن تأريخاً يتعد به عن جفاف العلم ويمزجه بحلاوة الادب  
وطراوة العاطفة وغضارة الخيال وجمال المعاني وحسن التعبير وقدّم لنا بذلك  
وثيقة قيمة في فن الغناء العربي . ونرى وراء هذه الملحمة شيئاً فنياً نفسياً آخر لد  
الشاعر هو أن يجد لنفسه العذر أمام نفسه وأمام الناس في الاستمتاع بالغن  
والاعجاب بالمغنين والمغنيات وحب بعضهم والاستمتاع بمجالات اللهو المختلفة  
فانه كان مرموق المكانة في مجتمعه وربما استنكر بعض الناس لهوه ومرحه فأحب  
أن يخبرهم أو أن يذكرهم بأن عظماء الملوك والخلفاء قد سمعوا قبله وطربوا  
وأحبوا وعشقوا ولهوا وشربوا وثلّموا وكانوا على ذلك عظماء وبقوا كذلك .

- (١) الطلا : أصلها الطلاء بكسر الطاء وهي ما يطبخ من عصير العنب ويكن  
به عن الحمرة . والطلّى بكسر الطاء والالف المقصورة : اللذة .  
(٢) أبو قيس : فرد ليزيد بن معاوية كان يلهو به وقت شربه . وعمارة اخ  
الغريض المغني كانت من أجمل النساء وجهاً وغناء .  
(٣) مسلم بن زياد : نديم يزيد .



لقد كان الشاعر من خلال خمرياته وغنائياته يجمع في إطار واحد بين الطبيعة والغزل والخمرة جمعاً تظهر فيه وحدة ذاته ووحدة تجربته التعورية الجمالية التي تنظر الى مراتع الجمال ومنعة الحس نظرة كلبة واحدة وتجمع بينها في إطار نفسي واحد يتم فيه التآلف والتوحد ولذلك كان شعره في هذه الموضوعات عذبا بعيدا عن التصنع \*

## شعر الحشيشة

بقي الناس في هذا العهد يتناولون الحشيشة وظل الشعراء فيها مولعين بها أو ناقلين عليها وعلى من يتناولها ولعل الولع بها كان أقل مما كان عليه في العهدين السابقين ولعل النعمة عليها كانت فيه أشد \*

ومن الشعر المزري بها ما قالته زينب بنت الشيخ رضي الدين الغزي تنصح محمد بن احمد المعروف بابن أبي الجود بعدم أكل الأفيون وهو قريبها ( توفي سنة ٩٨٢ هـ ) وقد قالته في شكل مواليا :

يا ناصِر° الدين° يا ابن° الكَشِك° يا ذا الجود°  
اسمع° أقول° لك نصيحة تطرب الجلمود°

بسَّك° تعاني اللبَن° فهمَّك° هو المقصود°  
يصير° بالك° ومالك° والذكا مففود°

« الكواكب السائرة ج ٣ ، ص ٥٣ »

وقد استعملت زينب فن المواليا لتنصح قريبها بنرك الأفيون ونراها استعملت العامة في نظمها ، واستعملتها عريق في فن المواليا \*

وكان البوريني ( ٩٦٣ - ١٠٢٤ هـ ) في مبدأ أمره لا يتناول شبنا من المكيفات وقد قال لما رأى إكباب الناس على البرش وهو الأفيون :

عمّ البلاء بأكل البرش فانتفعت<sup>١</sup>      مخايلُ الناس في خُلُق وأخلاقِ  
ولو نصوّر هذا الدهرُ في رجلٍ      لأبصرته الوري في زريّ درياقِ

« خلاصة الاثر للمحبي ج ٢ ، ص ٢٥١ »

ثم ابتلي بأكله حتى ظهر في فعله وهيئته وحركته الا أنه لم يغير من ذكائه ونوادره . ذكر المحبي من لطائفه التي رآها بخطه انه سئل عن الحب هل هو بالكسر أو بالضم فقال هو بالكسر ويستحسن فيه الضم . وعن الجفن أهو بالكسر أو بالفتح فقال هو بالفتح ويستحسن فيه الكسر . ويدلّ هذا على حضور بديهته .

وكان القاضي ابن الجيعان<sup>(١)</sup> يتناول الحشيشة والخمر ، فأنشده الشهاب الخفاجي (١٠٦٩ هـ) مداعبا :

لا تبك هندا ولا تعتب بأسماءِ  
واصرف زمانك في لهوٍ وأهواءِ  
يوما يبرّش ويوما بالحشيش وبالـ  
أفيونِ يوما ويوما كأس صهباءِ

« الريحانة ج ٢ ، ص ١٨٣ »

وهذان البيتان يدلاننا على أن بعضا من عليّة القوم حينئذ كانوا مولعين بالحشيشة مع الخمر .

## شعر قهوة البن

وقد عرف هذا العهد ما يسمى ببيت القهوة ( بمعنى المقهى ) . وكانوا

(١) كان معاصرا للشهاب الخفاجي وصديقا له وهو من أسرة اشهرت في مصر ، وكان كريما حسيبا اديبا . وكان لا يحسب من عمره غير أوقات صفوه ولذته ولهوه . وقد ترجم له الخفاجي في خبايا الزوايا لوحة ١٥٦ ب ، والمحبي في خلاصة الاثر ، ج ١ ، ص ٣١٠ . « عن الريحانة ج ٢ ، ١٨٢ وحاشيتها و ص ١٨٣ » .

يذهبون اليه لشرب القهوة التي اختلف في تحريسيها حينئذ . وكان من أنصارها الشيخ أبو الفتوح الذي نظم أبا نانا في الاسادة بها . وكان من أعدائها يوسف العيناوي . وقد اختلفوا فيها بين التحريم والتحليل .

• وكان بيت القهوة يجمع بين جمال المكان وجمال الساقى والماء الجارى .

( من معجم القرن الحادى عشر ، عن مقال للاستاد تهنق جبرى من وحي قراءته لكتاب تراجم الاعيان للبورينى ، نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٤٢ ، ج ٣ ) •

كانت قهوة البن في بدء اكتشافها واستعمالها في الدور الاول من هذا العهد . لذلك نرى الفقهاء والشعراء يختلفون فيها بين التحريم والتحليل . يقول فيها علي جلبي الحمصي وهو ممن توفوا في الثلث الاخير من القرن العاشر الهجري :  
أقول لأصحابي عن القهوة اتهاؤا  
ولا تجلسوا في مجلس هي فيه

وما كان تركي شربها لكرهه  
ولكن غدت مشروب كل سفيه

قال النجم الغزالي بعد هذين البيتين ، وهذا قريب من قول أبي السعود مفتي الروم وقد سئل عن القهوة : « ما أكب أهل الفجور على تعاطيه ، لا يحسن ممن يخشى الله ويتقيه » .

« الكواكب السائرة ج ٣ ، ص ١٩٦ »

وقال أبو المواهب البكري يصف القهوة والفتاة الساقية في مجلس بيولاقي على النيل ، ويبدو لنا من خلال أبياته أن شاربها في بيت القهوة كانوا يحتفلون بشربها كالخمر :

يا يومَ بيولاقي وأُنسي به حكاك من شوال يوم الهلال  
واقبل النيل جنوبا ، وما من عارض إلا نسيم الشمال

يا عارضاً اوجب للنَّيل ما  
وقهوةٍ تنضح مسكا ، ولا  
حبابها من فوقها مانع  
نديرها هيفاء مشوقة  
كاد حجا من أقبلت نحوهُ  
بغرة أو طيرة وزعت  
تقول للشمس ، وقد أقبلت :

سلسله ، وهو طليق المجال  
بدع ، ففي الفنجان شكل الغزال  
تقارهُ ، فهو شبك السلال  
خود تثت في برود الدلال  
يذهب من رثات تلك الحجال  
أفكارنا بين الهدى والضلال  
تلتمي ، ما أنت إلا خيال

« المنتخب ج ١ ، ص ٢٢٤ »

يصف الشاعر البكري مجلس القهوة على النيل في وقت اختلف فيه الفقهاء  
في تحليلها وتحريمها ونرى أن الشاعر يستحل شربها ويشربها في محراب الطبيعة  
على النيل ويصفها ويصف فنجانها والفتاة الساقية وصفا جبلا شيقا طعى فيه  
وسم الحسناء على وصف القهوة .

وقد خمّس محمد بن أحمد بن أبي الجود ( ت ٩٨٢ هـ ) المشهور بابن  
الكشاف ، وبابن أبي الحبل ، أبيات البكري في القهوة فما قاله :

كم قلت والصدق غدا مبها أما تخاف الله حتى متى  
رغبا به فيما به قد أتى يا قهوة تذهب هم الفتى

انت لِقاري العلم نعم ١ : ياد

ويحك كم تذكرها بالجفا معاندا أهل الوفا والصفاء  
ونفعها بين الورى ما خفى شراب أهل الله فيها الشفاء

لطالب الحكمة بين العباد

با طيبها فيها هنا والمثنى وتذهب البؤس وتنفي العنا  
ومن سنا ما تحتوي أئنا نطبّخها قشرا فتأتي لنا

في نكهة المسك ولون المداد

« الكواكب السائرة ج ٣ ، ص ٥٤ »

ولابراهيم بن المبلّط ( الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ ) في قهوة البن  
محبّاذا شربها :

يقول عذولي قهوة البنّ مرّة  
فقلت على ما عابتها بسراره  
وقال فيها أيضا :

أرى قهوة البنّ في عصرنا  
وصارت لشرابها عادة  
وقد شهر عنه قوله :

يا عابئا لشراب قهوتنا التي  
أوما تراها وهي في فنجانها  
تشفي شفاء النفس من أمراضها  
تحكي سواد العين وسطّ بياضها

وذكر الغزي ( ٩٧١ - ١٠٦١ هـ ) صاحب الكواكب السائرة أن لبعضهم  
في هذا المعنى :

اشرب هنيئا قهوة البنّ التي  
سوداء في المبيض من فنجانها  
ثم قال الغزي ، وأحسن منه قولي :

اشرب من القهوة صاعين  
سوداء في يضر فجاجينها  
ولو بيذل الورق والعين  
كأنها الإنسان من عين

« الكواكب السائرة ، نجم الدين الغزي ج ٣ ، ص ٩٣ »

وتدلّ هذه المقطوعات على ولع الناس بهذا المشروب الجديد في ذلك  
الوقت .

وقد أبطل السلطان مراد المقاهي ( القهوات ) ومنع تناول ( شرب ) التبغ .

« المحبي ، خلاصة الاثر ج ٤ ، ص ٣٣٩ »

## الشعر في التدخين

وكان التدخين أمراً مستحدثاً جديداً في الدور الثاني من هذا العهد زمن ابن النقيب الدمشقي (١٠٤٨ - ١٠٨١ هـ) وقد أثار استعماله ضجة بين الناس والفقهاء واختلفوا فيه بين تحريم وتحليل ومضى من أولعوا به واعتادوا عليه يتلذذون به لا يلوون على شيء \*

قال ابن النقيب بصف النارجيلة وشدة ولعه بالتدخين :

أعددتُ للتَّبغِ وترشافه      نبعةً حُسنَ كُلتتُ بالجُمانِ  
ما قصباتُ السَّبْقِ إلَّا لها      في حلبةٍ حلَّتْ محلَّ السَّنانِ  
قد زُخرفتُ من بَعْدِ ترصيعها      ولا يلي الزخرفُ إلَّا الدُخانُ

« الديوان ص ٢٨٢ »

فهذه الأبيات الثلاثة تظهر ولع ابن النقيب بالتدخين واهتمامه بوصف النارجيلة ونوابجها وما نقش عليها من زخرفة وترصيع واقتباسه اسمي سورتين من القرآن أن هذا الزخرف والدخان ليورِّي بهما ويحلِّي كلامه \*

ومما اشتهر للكوراني<sup>(١)</sup> معاصر ابن النقيب الحلبي قوله في التبغ :

لقد عتفونا بالدخان وشربه  
فقلت : دعوا التبغ ، فالأمر أحوجا  
إلا إنَّ صِلَّ الغمِّ في غارِ صدرنا  
عصانا فدخلنا عليه ليخرجا

هكذا برّر الكوراني تناول الدخان بأنه يذهب الغم واستعمل هذا التشبيه الذي جعل فيه الغم كالثعبان الذي يدخن عليه الحاوي أو الساحر ليخرجه من وكفه \* والخيال لطيف خفيف الظل \*

(١) نجد ترجمته في خلاصة الأثر للمحبي (ج ٢ ، ٣٥٢ ، ١٠)

## الأوزان والقوالب الشعرية القديمة والمستحدثة :

تابع شعراء هذا العهد أسلافهم من شعراء الدول المتتابعة في النظم على بحور الشعر التقليدية ، والخروج عليها أحيانا الى استعمال بعض البحور المستحدثة كبحر السلسلة والقوالب الشعرية المستحدثة كالموشحات والأزجال والمكوالا والدوبيت •

ولدينا الآن أبيات" على بحر السلسلة قالها أحمد السابق الأديب ( المتوفى سنة ١١٦١ هـ ) يتغزل في أولها ويسدح النبي في آخرها • ووزن هذا البحر فعلى فعلاتن مستفعلة فاعلاتن ، مرتين •

وبعتري هذه التفعلات المستقاة من عدة بحور عدة تغيرات تعترها عادة في بحورها الاصلية ، واليك هذه الأبيات :

من غرك بالصد للحب واغراك  
نرمي سهام عن اللواظ فتاك  
يا ظبي كناسي ويا خلاصه ناسي  
كم عهدي تنسى وليس قلبي ينساك  
يا نعم جليس ويا أعجز أنيس  
لا عاش عذول على تلافى ولاك  
يا سالب لبي ويا حشاشة قلبي  
ما تكشف كربى بطيب ساعة لقياك  
لقيام مرامي وفيك زاد هيامي  
ارحم لسفامي ودع لعاذل ينهاك  
أصبحت وحالي من الصدود عجيب  
هل منك مجيب يفك عقدة أسراك

قد رُدْتُ بنحبي وما درى ببي صبحي  
لا تحرقْ قلبي فإنَّ قلبي مأواك  
أشمتْ حسودي وقد نقضتْ عهودي  
وزدتْ بصدي وبات طرقي يرعاك  
با خيرَ نبيٍّ له الفضائلُ تعنو  
قد حزتْ فخارا وقد أعزكْ مولاك  
با صفوةَ ربي عساك تجبر قلبي  
إذْ مدحك دأبي أريد وصفَ سجايك  
لا أقدرُ أُوْفي ببعضِ مديح  
في بدرٍ مَليحٍ له المحامد أفلاك

« سلك الدرر للمرادي ج ٢١، ص ١٨١ - ١٨٣ »

وهذا الوزن لا يتلاءم كثيرا مع الذوق العربي الذي ألف البحور الستة عشر التقليدية . يضاف الى ذلك عدم ترابط الايات وانقطاع الصلة المنطقية بينها الا فيما يتعلق بموضوعها الذي هو الغزل ، وهي ركيكة ضعيفة التأليف ، باهتة العاطفة مبتذلة المعاني قليلة الصور ، ضعيفة النفحة ، وتنتهي بالمديح النبوي .

ومن مظاهر الصناعة المفرقة في التكلف لدى بعض الشعراء في هذا العهد نظم القصائد المتعددة الأوزان والقوافي والقراءات . ومنها قصيدة لابن معنوق<sup>(١)</sup> (١٠٨٧ هـ) اخترنا منها :

فخر الورى حيدري عم نائله  
فجر الهدى ذو المغالي الباهرات علي

(١) هو شهاب الدين الموسوي الحويزي من أهل البصرة . كان فقيرا . له ديوان مشهور طبع مرارا في الاسكندرية والقاهرة وببروت اكثره في مدح السيد خان ابن كمال الدين الموسوي . وهو مشهور برقته . عن « تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ » .



بجم السهى فلكيات مراتبه  
 بادي السنا نرّ" يسو على زحل  
 لتُ الشرى فبسَ تهمي أنامله  
 غبنُ الندى مَورد أنهى من العسل  
 بدرُ البها أفقُ" تبدو كواكبُه  
 تسسُ الدثني صبحُ ليل الحادِ الجَلَل  
 سامي الذُرا صاعدُ" تُختسى نوازله  
 خفُ العِدا ضاربُ الهامات والقُتلِ  
 طودُ الشهى عند بيت المال صاحبه  
 سمط الثنا زينةُ الأحياد والدول

عن « د. بكرى شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي ص ٢٠٣ »  
 وانما ساعد على النظم في هذا النمط ذي القراءات الكثيرة ما نراه في ترتيب  
 القوافي بين الابيات من مزاجه ، وما في جمل الابيات المقابلة للتفعيلات من تفكك  
 ومن الدوران حول موضوع واحد . وخير ما تلخص به رأينا في هذا الفن  
 الزخرفي قول الرافعي :

« ولقد قرأنا ان شاعرا عمل قصيدة واشتغل باحصاء الوجوه التي تُنظَرُ  
 بها فبلغت في عينه مليونَ وجه . وذلك عالم من الارقام في قفر من الكلام » .

« تاريخ آداب اللغة العربية ، الرافعي ج ٣ ، ص ٢٩٠ »

وخمّس الشعراء بعض القصائد لسابقيهم أو معاصريهم . قال أحمد السابق  
 ( المتوفى سنة ١١٦١ هـ ) خمسا بيتي الشافعي :

تهاجمت الأهوال من كل جانبِ عليّ ودهري خصني بمصائب  
 وقوم رأوني ذا جفون سواكب يقولون إنّ الصبر أكرم صاحب

صدقتهم ولكن قد تقضى به عمري

فيا قومُ مَنْ لي قد أضرَّ بي العنا      ولم أدرِ يوماً أيةَ ساعةَ ألها  
هَبُوا انْ صبري صار طبعاً وديداً      اذا كنتُ ذا صبر ولم أبلغُ المثني  
وميتُ أنا من يجتني ثمرَ الصبر

« سلك الدرر للمرادي ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣ »

ولم يكتف ابن النقيب بنظم الشعر التقليدي ، فنراه ينظم مسمّطاً رباعياً مطلعُه :  
يا مؤثراً للهو طيبَ التَّعمه°      ورافعاً فيه سُجوف الحِتمه°  
كم° في تصاريِفِ القضا مِنْ حكمه°      وليس بعد الأنبياء مِنْ عصمه°  
« الديوان ص ٢٦٧ »

ونراه يعارض لسانَ الدين بن الخطيب بموشحٍ مطلعُه :  
يا ليالي السّفح من عهد الصّبا      يا سقى مغناك صوبُ الدّيم  
كم تسرّقتُ بها بين الرّثبا      خلّسا مرّت كطيف الحلّم  
في زمانٍ لذّء عيشاً وصفاً      نعمت آصاله والبكّر  
قد حلّنا فيه روضاً أثفاً      يستينا طيرُهُ المستحِر  
بأهازيجٍ مِنْ اللّحن هفاً      عندها النايُ وزاغُ الوتر  
« الديوان ص ٢٤٦ — ٢٤٧ »

وقد أورد المحبّي هذه القطعة من الزجل لأحد معاصريه على وزن « يا غائبين  
عني ما ترجعوا » :

من تعشّقوا بالهجر قلبي قلا لما قلا  
وحين على جمر الغضا لي سلا عني سلا  
وزاد على قلبي العنا والبلا  
وأسميت بلا جليس أنيس عاني وجودي عدم°  
سكران° فراق هائم° نديمي الندم°  
وقد سقاني البين° بكاسه جرّع°  
دلّني كيف أصنع°  
والعذول° بي شنع°  
وامتنع عني الذي أهوى وظهري انقسم°  
حظي مسود° فاحم° ما رأيت لي راحم° أو لسقمي آس°

أهيم° في النشواح° ومرّي في النواح° في جحيم ما تخمد° وأمسى جفني الرمد°  
من تجني قاس°

« خلاصة الاثر لمحمد المحبي ج ١ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ »

وقد أكثر شعراء هذا العصر من نظم الرباعيات وممن أكثر منها البهاء° العالمي  
( ت ١٠٣١ هـ ) ومن رباعياته :

كم بت° من المساء الى الإشراق° من فرقتكم° ومطربي أشواقى  
والهمش° منادمي وثقلني ندمي° والدمع° مدامتي وجفني الساقى  
« الريحانة ، الخفاجي ج ١ ، ص ٢١٢ »

\* \* \*

ومنها :  
يا ريح° اذا أتيت دار الاحباب° قبّل° عني ثراب تلك الأعتاب°  
إن° هم سألوك° عن البهائي فقل° قد ذاب من الشوق إليكم° قد ذاب°  
« المرجع نفسه ص ٢١٣ »

\* \* \*

ومنها :  
قم وامض الى الدير بيخت° وسعود° لا يحسن° في المدرسة اليوم° قعود°  
واشرب° قدحا وقّل° على صوت العود° العثم° مضى وليس من° بعد° يعود°

\* \* \*

ومنها ما كتبه الى بعض إخوانه بالنجف الأشرف :  
يا ريح° اذا أتيت أرض النجف° فالثيم° عني ترابها ثم قيف°  
واذكر خبري لدى عريّب° نزلوا° واديه وقص° قصتي وانصرف°  
« خلاصة الاثر ج ٣ ، ص ٤٤٠ ، وسلافة العصر ص ٢٨٩ »

ومنها :  
يا قوم الى مكة هذا انا ضيف° ذي زمزم ذي منى وهاك الخيف°  
كم اعرك° عيني لأستيقن° هل° في اليقظة ما أراه أم هذا طيف°  
« خلاصة الاثر ج ٣ ، ص ٤٤٠ وسلافة العصر ص ٢٨٩ »

ولا بن النقيب ربا عيتان وهذه إحداهما .

لله من السفح ظلال الوقف      واتبع أنرا لمادح فيه واقف  
أوقفت على جدولها طرفي مد      أطلفت به عنان داك الوقف

« الديوان ص ٢١٧ »

وجاء في ديوان ابن النقيب هذه الموالب :

لو رحت أبكي بكت لأجلي القلوب القسي  
أو يت أشكي للانت لي الصخور العسي  
أبيت والوجد في قلبي حباله رسي  
أندب مصابي وأحابي عهودي نسي

« الديوان ص ٣٠٩ »

وتتصور ان ابن النقيب نظم في هذه الفنون ليحاري شعراء عصره ويبين قدرته على النظم فيها ، هذا بالإضافة الى أن بعضها ، كالموشح والموالي ، له اتصال وثيق بالغناء الذي كان يجبه .

وكان على كل حال مقلًا فيها وأكثر عنابة بالشعر التقليدي .

**من الفنون الطفيلية على الشعر :**

**١ - التشجير :**

التشجير في اللغة يقصد به تفريع كلمة من معنى كلمة أخرى في استطراد وتسلسل ، وهكذا ...

والتشجير في الشعر أن ينظم بيت يكون للقصيدة كجذع الشجرة ، ثم يفرع على كل كلمة منه تنمة له من قافيته نفسها ، وهكذا ، من جهتي اليمنى واليسرى ، حتى يخرج منه مثل فروع الشجرة ويشترط فيها أن تكون من البحر نفسه .  
ولم يعرف تشجير الشعر الا في القرن الحادي عشر الهجري . ويسمى هذا النمط من الشعر المشجر .

وقد سبق العرب الى معرفة التشجير في النسب منذ القرن الرابع الهجري .



ويلاحظ أن التشجير لم يعرف قبل العهد العثماني ولعلّه اخترع للنقش على النحاس ونحوه في هذا العهد ابتكاراً في البيئة العربيّة بقياسه على شجرة النسب ، أو نقلاً عن النرك أو الامم الأخرى .

### ب - ومنها التطريز :

وهو أن ينسكل الشاعر من الحروف الأولى في الايات اسم علم لحبيب أو ممدوح ، كقول الامبر نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم الحسيني ، وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجري مطرزا باسم « خديجة » :

خلت خال الخد في وجنّه	نقطة العنبر في جمر الغضى
دامت الأفراح لي مذ أبصرت	مقلتي صبح محيّا قد أضا
يتسنى القلب منه لقطة	وبهذا الحظ للعين رضا
جاهل " رام سلّوا عنه إذ "	حظر الوصل وأولاني النضى
هامت العين به لما رأت	حسن وجه حين كنا بالأضا

« المصدر السابق ص ٢٢٨ - ٢٢٩ »

وقد كثر فن التطريز في العهد العثماني . ولعلّه من أثر النرك في الأدب العربي .

### ج - التاريخ الشعري :

أول من أدرج تاريخ الجبل بين أنواع البديع الشيخ عبد الغني النابلسي ( ت ١١٤٧ هـ ) في بديعته « نفحات الازهار ، ص ٤٩٥ » . وقد أكثر منه أهل القرن الثاني عشر الهجري واقتنوا فيه وكان المسلمون يؤرخون بالهجرة والمسيحيون بالميلاد . وقد رأينا قبل أنّه عرف واستعمل في العهد الفاطمي - الزنكي .

ومن أمثله افتنانهم فيه أن أحدهم أرّخ لعرس في حلب فجعل الحروف المهملة في البيت الأخير نورخ للعرس وكذلك الحروف المعجمة فيه بالإضافة الى ذكر تاريخ العرس صراحة :

خذ تواريخنا ثلاثا جمعت	لك في مفرد بيت منبئه
بصريح وحروف أعجمت	وحروف أهملت مختبئه

عسمٌ حول وسرورُ العرسِ وهو ثلاثون وألف ومئة

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

ومن أمثلة الافتتان أن أحدهم أرّخ لبناء مناره جامع البهرمه بحلب ٣٠٠ كل  
شطر من شطور خمسة أبيات ، وكان تاريخ بنائها سنة ١١١١ هـ وهالك بسا  
على سبيل المثال :

بشراه أجرى بالسرور بناءها والخير أُنمَح بالهناء بنادي

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

وبالع بعضهم في تكلف الافتتان كتهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد  
باكثير المكي الذي نظم قصيدة من خمسة وعشرين بيتاً على البحر الطويل في مدح  
الشريف علي بن بركات بن أبي ثَمِيّ اذا جمعت الحروف الاولى من التماثيل  
الاولى في كل أبياتها تكون بيتاً من بحر الهزج يؤرخ سنة نظمها ، وهكذا تكون  
الحال اذا أخذت الحروف الاولى من التماثيل الثانية والثالثة حتى الثامنة . وهكذا  
يتولد نمائية أبيات على بحر الهزج تؤرخ سنة نظمها ، فادا أخذت الكلمة الاولى  
من البيت الاول من هذه الثمانية والحروف الاولى من الشطور الاولى في السبعة  
الباقية ، وصنعت الامر نفسه في الشطور الثانية تكون شطران يؤرخان سنة  
نظمها أيضاً .

وقيل إنَّ الشاعر ابتلي بعد نظم هذه القصيدة من كثرة التفكير بعلّة لرمه  
أربعة أشهر . ولا شك في أن عمله هذا لا يمتّ للشعر أو للفن أو للذوق بأيّ  
صلة ، وانما هو من قبيل اللعب واللهو وتحطيم الرأس فيما لا غناء فيه ولا جمال .  
وبديهي أن كل ما نظم أو ينظم في التاريخ الجسلي لس له أيّ طابع فني  
جمالي ، وهو يدلّنا على نمط من ذوق العصر المتكلف . وقد أحببنا ان نورد لك  
هذه القصيدة وما يتولد عنها من أبيات ليتجلى لك كيف ينحول الفن أحانا الى  
صناعة ممجوجة نحطم الرأس ولا تثير عاطفة أو أي حسّ بديعي .  
وهذه هي :

عليّ ان بت أجني نور فربهم  
روحي لمن كان للأمال ملزمي

لا يحسب الجاهل الصب الذي درست  
حياته مل طولا من نفوذهم  
يستعذب الداء ان وقوا برؤيتهم  
يا حبذا يوم رؤيا ملتقى أدمي  
أحلى لدي من الحلوى ولوعهم  
بمر ما ألفوه طول صرمهم  
لو أن من هجرهم أمسى لقي أريست  
أسائه لم أبش يوما بشأنهم  
حتى ولو سار سهم من نبال نوى  
لملقتي كان يحلو منه سفك دمي  
منوا على مغرم حان التلاف له  
سؤاله رحمة بالوصل عن أمم  
دع عنك يا أيها الساعي اتباع هوى  
وكفف عن فرط صد زاد في تهمي  
فلو يلوح لذي نهبي جمالتهم  
حميت غيبي بمن أهدي الضنا وحيي  
يطيب موتي إن أسعد بطيفهم  
فبعده أبدأ لم أشك من ألم  
ومخلصي واعتمادي مدح من صدقت  
له المخايل في عزم وفي همم  
صعب العزائم لا يرتاح من فزع  
منع الجار من يلحظه لم يضم  
فتلك مشفقة بالعزم صيرها  
كثيرة الأمن أعفاها من النقم



عزیز حیّ غطاریف ذوي هم  
 روى علاهم عليّ المجد في الأمم  
 لعزّهم أذعنت أهل الفخام فما  
 يرى عزیز" تسامى نحو مجدهم  
 يودّ كلّ مباء لو يكون له  
 من فخرهم بعض ما سادوا بهديهم  
 من ذا يقاومهم أو من يساهمهم  
 زادوا بفخر عليّ في علوهم  
 سما وخُص بفضل ، من يطاوله  
 الى مراقبه يهوي بل وعنه حمي  
 عليّ وصف وفعل في الطعان اذا  
 ترى العدا اطرخوا هبرا على وضم  
 دراية من أييه المرتضى ورنّت  
 بدت لنا منه في وقع القنا بهم  
 أمّت يا أيها الليث الهام ومن  
 أحيت دا أمل ميّتٍ وذا أطم  
 لقد غدا يتعالى المجد حين روى  
 لعزّ عليك منسوباً بكل فم  
 صاهرن يا كامل العليا وسعدها  
 لتهنكم قد حويتم صفو كنزهم  
 نظمت وصفك درّا ضمن بهنّة  
 طراز عطف لذا أرّخ به حكّمي  
 فمن عليّ بدا فيك الهدى فزها  
 فسد أيّاً وبالفوز اللطيف دُم

وهذه هي الأبيات الثمانية التي تستخرج من الحروف الاول في تفعللات  
الفصيذة :

عليّ الحمد في الوصفِ	عليّ مسعد الصنفِ
بجديهِ سما حتّى	حوى في الوصف ما يكفي
نصوحا محسنا يجدي	بَراه الله للعُشرَف
بديع الفعل في وصفِـه	من هَون ومن عَنف
رحيبُ السوح في سلم	كريم زان باللطف
كمّي الكرّ في الهيجا	هزبرقط ما يُثَقفي
إليه يلبد الداعي	فيسمي وهو مستكفي
تري من كان والاه	ينادي وهو بالزحف

وهذا هو البيت الذي يستخرج من أبيات الهزج الثمانية ويؤرخ سنة  
نظم القصيدة :

عليّ بن بركات      عليّ جبه كهفي  
« المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩ »  
وأول من أدخل التاريخ الشعري بين فنون البديع الشيخ عبد الغني النابلسي  
يقول مؤرخاً وفاة الياس الكردي العالم الشافعي العابد الصوفي المتوفى سنة  
١١٣٨ هـ :

قد كان في بلدتنا كامل	وهو الإمام المفرد الواحد
شيخ العلوم الياس نجم الهدى	ومن هو الموجود والواجد
من بعده مات التقى أرّخوا	ومات الياس التقى الزاهد

« سلك الدرر ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ »  
وفد نظم عبد الرحمن البهلول قصيدة في مدح الشيخ عبد الغني النابلسي  
استاذهُ ، فيها مقدمة غزلية تتألف من ثمانية وأربعين بيتا ومدح يتألف من واحد  
واربعين بيتا ويتألف من مجموع الحروف الاولى في العزل بيت من الشعر ومن  
مجموع أوائل أبيات المدح بيت آخر وفي كل بيت منهما أربعة تواريخ ويذكر  
فيها اسم الشيخ • والبيتان هما :

أهديك مدحا بلغا يا سني غدا  
بحر الفتوحات باهي الفضل والمنن  
ألفاظه كنجوم فهي شرف ما  
بدا سنا بدرها أرّخه عبد غني  
« سلك الدرر للمرادي ص ٣١٠ - ٣١٨ »  
ولعبد الله الشبراوي ( ١١٧٢ هـ ) هذه الايات يرثي بها أحمد الدلنجاي  
ويؤرخ وفاته :

سألت الشعر هل لك من صديق      وقد سكن الدلنجاي لحدّه  
فصاح وخرّ مغشياً عليه      وأصبح ساكنا في القبر عنده  
فقلت لمن أراد الشعر أقصره      فقد أرّخت مات الشعر بعده

٨١ ، ٦٠١ ، ٤٤١

( ١١٣٣ ) المجموع

« الفصل ج ٢ ، ص ٢٨٢ »

برثي الشبراوي في هذه الايات صديقا له شاعرا ، ويجعل الشعر يموت بموته  
ويدفن معه ليدلنا على فضله في الشعر • وقد استعمل تاريخ الجمّل الذي كان  
شائعا في ذلك الوقت ليؤرخ سنة وفاته ووُفِّقَ الى أن يجعل الجملة الني يؤرخ  
بها مناسبة لمعاني جملة السابقة •

## النشر خلال العهد العثماني

تمهيد :

نجد في هذا العهد أنواع النشر الثلاثة التي عرفت في العهود السابقة وهي :

أ - النشر الديواني      ب - النشر العلمي التألّفي      ج - النشر الأدبي •  
ويلاحظ أن الخطابة في هذا العهد وهي نوع من النشر الادبي اقتصرت على  
الخطب الدينية أيام الجمع والاعياد وكانت تقليدية بعيدة عن الابتكار تجرّ خطب  
الأقدمين كخطب ابن نباتة السعدي وغيره ممن ألّفوا كتباً في الخطب الدينية ويتلوها  
الخطيب من ورقة أو كتاب أو يحفظها فيسردها عن ظهر قلب •

وقد قيل بأن اللغة التركية كانت وحدها لغة الدواوين الرسمية • ويضعف من هذا القول أو يخرج عليه أننا وجدنا ثرا ديوانيا بالعربية متبادلا بين سلطان تركي وأمير عربي والسلطان التركي هو الذي كان البادئ بالكتابة في العربية ؛ وذلك خلال هجوم نابليون على مصر • ونعلل هذا الذي وجدناه بما يلي :

١ - أن الكتابة الى الامراء العرب كان يجب أن تكون بالعربية التي يفهمونها •

٢ - ان العربي بقيت لغة الثقافة الاولى في العهد العثماني لانها لغة القرآن والعلوم الدينية ، وكان على العلماء والادباء الاتراك وغيرهم من الاعاجم المسلمين أن يتعلموها ليتفقهوا في دينهم • وكان الى جانبها في هذا الميدان التركية والفارسية • ولقيمة اللغة العربية الدينية كانت المدارس التركية التي أنشأها سليمان القانوني في الاناضول والفسم الاوروبي من البلاد العثمانية تعلم العربية ، وكان على رجال العلم والادارة والسياسة أن يتعلموها الى جانب التركية والفارسية ، فعرف عن غازي باشا بن شاهوار الجركسي أنه كان عارفا باللغات الثلاث « خلاصة الاثر ٣ : ٣٤٤ »<sup>(١)</sup> وكان بعض الأدباء العرب يتعلمونها ثلاثتها •

ذكر المحبي في ترجمة ابن الصائغ ( محمد بن ابراهيم الحنفي المصري ) انه كان يعرف اللغة الفارسية والتركية حق المعرفة بحيث انه اذا تكلم بهما يظن من آهلهما ، ( خلاصة الاثر • ج ٣ ، ص ٣١٧ ) • وهذا يدل على أن هاتين اللغتين قد أخذتا تزاحمان اللغة العربية خلال العهد العثماني في المجالين الديواني والأدبي •

٣ - أن التركية كانت لغة السلطان ومن حوله في الفصر من رجال الدولة • وهي لغتهم فكانت أسهل عليهم ، ولكنهم لم يكونوا يجهلون العربية وقد كان بعضهم ينظم بها أو يستشهد بما يحفظه من شعرها •

---

(١) طهر كاسب اعاجم اتقنوا العربي منهم قاضي العساكر « طاشكبري زاده » الذي يقول فيه الحمى : « لم ير نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية » ويقول فيه النجم الغزي : « لم ار روميا افصح منه باللسان العربي » ( خلاصة الاثر ج ٣ : ٢٥٦ ) •

وقد أوردنا قبل ونحن نتحدث عن حالة الشعر في العهد المملوكي الثاني بعض ما روي عن السلطان سليم فاتح مصر والشام ونضيف هنا أن السلطان أحمد بن محمد بن مراد ( ت ١٠٣٦ هـ ) كان شاعرا بالتركية مَخْلَصَه ، على قاعدة شعراء الروم ، بختي ، وهو ضرب من النظم معروف في الشعر التركي وكان ميالا الى الادب والمحاضرات وقد رويت له الايات التالية في الشعر العربي :

ظبي يصول ولا اتصال إليه	جرح الفؤاد بصارمي لحظيه
ما قام معتدلا وهزّ قوامه	الا تهتكت السطور عليه
يسقي المدامة من سلافة ريقه	ويخصنا بالغنج من جفنيه
عيناه نرجسنا وآس عذاره	ريحائنا والورد من خديه
يا شَعْرُ في بصري ولا في خدّه	إني أغار من النسيم عليه
( عجبني لسلطان يعزّ بعدله	ويجور سلطان الغرام عليه )
( لولا أخاف الله ثم جحيه	لعبدته وسجدت بين يديه )

والبيتان الأخيران مضمّنان من شعر ابن رزّيك أحد وزراء الدولة الفاطمية المعاصر لنور الدين زنكي « خلاصة الاثر ٤ : ٣٠١ و ج ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ » •

٤ - إن الناس ذوي الحاجات كانوا يكتبون شكاواهم وعرائضهم المرسلة من البلاد العربية الى القسطنطينية بالعربية حتى في زمن الاتحاديين المتعصبين للتركية المبغضين للعرب • وقد قرأ لي أحد مشايخ دمشق وهو الشيخ سعيد القواف المتوفى منذ بضع سنوات نصّ كتاب كان قد أرسله الى الباب العالي خلال الحرب العالمية الاولى يطلب فيه اعفاءه من الجندية ومعاملته معاملة غيره من علماء الدين وهو يستهله ببعض الشعر العربي • وأخبرني بأنه قد استجيب لطلبه حينئذ •

٥ - أنّ الجهل قد ساد حين انحلال الحكم العثماني ، قبل الاتحاديين ، بين الاتراك والعرب على السواء ، ولكن الامر قد اختلف زمن الاتحاديين بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أراد هؤلاء تريك العرب وغيرهم من الاجناس الداخلة تحت الحكم العثماني فتصدت لهم الجمعيات السياسية العربية مطالبة بالاصلاح وجعل اللغة العربية لغة رسيّة في البلاد ، محافظة على القومية العربية •

— أن أصل اللغة العربية قد طوّعت التركية فأدخلت فيها كثيرا من  
السامية وقد دعها في ذلك التأثير الديني والتقدم الحضاري ، على حين لا نجد  
في العربية إلا النثر اليسير من التركية .

وسرى أثر النثر الصادر عن السلطان سليم الثالث العثماني ( ١٧٨٩ —  
١٨٠٧ م ) في مستوى النثر الذي كتب به شريف مكة الى إمام اليمن بمناسبة  
عزّه بليون لمصر . وقد رأينا في كتب التراجم التي ألفت في هذا العهد مثل  
« الكواكب المسائرة في أعيان المئة العاشرة » للغزي ، و « خلاصة الاثر في أعيان  
العرب الحادي عشر » للتحجبي ، و « سلك الدرر في رجال القرن الثاني عشر »  
للبرادي ، و « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » للشوكاني ،  
و « ملحق البدر الطالع » لمحمد بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني كثيرا من  
العلماء الادباء المتوالي بنظمون الشعر ويكتبون النثر في المستوى الذي كان يكتب  
به العرب أمثالهم أو في مستوى يقاربه . باستثناء قلة من الادباء العرب اللامعين  
كالحاجي وابن النجب الدمشقي ومنجك الذين كانوا محلّقين بالإضافة الى أدباء  
عصرهم .

وقد وجدنا أن بعض النثر الذي أوردناه ، الديواني منه والعلمي والادبي ،  
من دون مستوى النثر في العهد المملوكي من حيث الأسلوب التعبيري إلا أن  
بعضه الآخر كان فيه تعابير عامية أو ركيكة أو أخوة جوية أساءت اليه .

ووجدنا من جيب المضسّون أن الافكار الدينية ، والصوفية منها بخاصة ،  
هي أعاليه على هذا النثر بالإضافة الى أن الروح الديني المسلم ظاهر ضد الغزاة  
الفرس في الكتابه الديوانية .

ورأينا التعصب المذهبي ضد المذهب الشيعي ظاهرا في نص تاريخي ، لم  
نورده في هذا المرجز ، من كتاب « الخسيس في أحوال انفس نفيس » ، وهو في  
موسم دمدم هولاء لبعداد والحديث خلال ذلك عن ابن العلقبي الشيعي ،  
وشد بعكس روح العداة التي كانت سائدة حينئذ من جراء الحروب بين الدولة

العثمانية السنية والدولة الصفوية الفارسية التسحية التي أساسها في رأينا سياسي  
وليس مذهبا •

وكان الجسع والاختد عن الافدمين هو العالب على الالب الذي كان سوده  
غالبا روح المحافظه على الاخلاق والدين وعادات السلف • ومثاله النص الذي  
سنورده وندرسه للشيخ علوان في الأعراس • وبظهر في بعض النصوص روح  
العناية بأصول الحصاره والاداب العامه كالنصوص في كتابي آداب المؤاكله وآداب  
العشره للغزي • وهي ندل على روح حضاري أصيل وذوق مصفى أدى اليها  
تسامي الروح العربي ونهذب النفوس والطباع خلال عصور طويلة • ولم نورد  
نسبنا منها هنا رغبة في الاختصار •

ويظهر في بعض النصوص روح النقد للاحوال السيئة والحكام المسيئين ،  
كما سنرى في مقامة الخفاجي التي يذم بها فاضي القسطنطينية وابنه •

وتظهر في بعض النصوص القدره على وصف الاحوال المعنوية كما سنرى في  
نص الطالوي في الشوق وفي رسالة البوريني التي أجاب بها على عتاب صديق •

ومن حبث الاسلوب نلاحظ انه كان يغلب على النصوص العلمية التحرر  
من القيود والصناعة بها فيها السجع ، والانصراف الى أداء المعاني بحرية ،  
وسهولة الالفاظ والأداء مع مراعاة الصحة ، ونستثني من ذلك النص التاريخي  
من كتاب « الخميس ... » ففيه سجع وبعض صناعة ، ولم نورده ، ونص الشيخ  
علوان المورد فقد مالت به سهولة الأداء الى مقارنة العامة ، ونلاحظ أن النصوص  
الادبية كانت تغلب عليها الصناعة ، ولكن كتابها كانوا متسكين من صناعتهم  
قادرين على أداء أفكارهم بقوة ووضوح ، وكان الخفاجي ، أحدهم ، في مستوى  
كتاب العهد المملوكي الاول •

ويغلب على النصوص التي سنوردها كلها : علميه وأدبية وديوانية ، محاكاة  
الافدمين والاختد عنهم في المعاني والصور وطرق الأداء ، وقلة الابتكار ، أو

'نعدامه . مع القدره على التوفيق بين التقليد والاخذ من القديم وبين مراعاة المقصبات والمناسبات والاحوال التي يعينون فيها<sup>(١)</sup> .

وفد يكون التزام التقليد ناجا عن عدم بدل الاحوال عن ذي قبل . وعدم حدوث ثورات سياسية اجناعية نقلت الاوضاع والمفاهيم . ففبب أساط الفكر والاداء كما هي دون تعب . لان النوس نفسها لم سغير . مع بقاوب ، في مساويات الكتاب فيما بينهم بطبيعه الامر . وسحاول ان نسنين مسايات انواع الكتابة وسانها في هذا العهد من النصوص التالية :

## أ - الكتابة الديوانية

١ - كتاب السلطان ملك الروم أي . السلطان العسائي . . . الى سربف مكة غالب بن مساعد ، بناسبة هجوم نابلبون على مصر :

« وبعد فهذا مرسومنا المبجل السرف ، وخطابنا المعظم المنف لا زال نافذا بعون الله في سائر الارزاء والاقطار ، ما دام الفلك الدوار ، أصدرناه مبنا على نظيم فرائد التحية والتسليم ، ومنصوبا على قلائد التبجيل والتكريم ، محتويا على قواعد صيانة الدين ، مؤكدا لمعاقد حباية سنن سبد المرسلين ، صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين .

« أصدرنا الى عالي جناب الامير الامجد ، المبجل الأجلّ الاوحد ، المقنفي آثار أسلافه الاشراف ، من آباءه الغرّ صناديد آل عبد مناف ، وأجداده السعيدي

---

(١) وقد ظهر في هذه العهود بعض اعلام المفكرين والادباء مثل : عبد الفادر البفدادي ( ١٠٣٠ - ١٠٩٣ ) « راجع خلاصة الانر ٢ : ٥٢ » والتهاب الخفاجي ( ت ١٠٦٩ هـ ) « خلاصة الانر ١ : ٣٣١ - ٣٤٣ » والمقري النلمساني صاحب « نفع الطيب » ( ١٠٤١ هـ ) « المختصر للمحبى ١ : ٣٠٥ » والبهاء العاملي ( ٩٥٣ هـ - ١٠٣١ هـ ) « خلاصة الانر ٣ : ٤٤٠ - ٤٥٤ » ونجم الدين العزي ( ٩٧٧ - ١٠٦١ هـ ) « خلاصة الانر ٣ : ١٩٥ - ١٩٧ » ونور الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية ( ٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ ) « خلاصة الانر ٣ : ١٢٢ - ١٢٤ » وابن سنان القرماني ( ٩٣٨ - ١٠١٩ هـ ) « خلاصة الانر ١ : ٢٠٩ - ٢١٠ » وابن أبي الرجال اليمني صاحب « مطلع البدور » ( ت ١٠٩٢ ) « خلاصة الانر ١ : ٢٢٠ » .



السير الجسيلي الاوصاف . فرع السجدة الزكية النبوية ، طراز العصاية العلوية  
المصطفوية فرّد عين الزهراء البنول المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجد ،  
حالا سريّف مكه المسرفة الشريف غالب بن مساعد<sup>(١)</sup> ، لا رالت العايه الربانية  
له ملاحظه ، والكلاية<sup>(٢)</sup> الصمدانه عليه حافظه ، والى قدوده العلواء وعسده  
الفضلاء نائب مكه المسرفة وكافة السادات الاسراف الأجلاء الميامين ومثاني المداهب  
الاربعة والعلواء والأئمة المحترمين ووجوه كافة المسلمين ، من ساكني بلد الله  
الامين ، من حاصر وباء ، وفّقهم الله الى سبيل الرساد . يحبطون علما أن طائفة  
كفار الفرائسه . جعل الله ديارهم دارسه ، وأعلامهم ناكسة ، ، قد نقضوا العهود ،  
وخانوا مواليق المعبود . وخرجوا من أطوار الحدود . وهجموا على بدوان مبصر  
وسكانها ، على حين غفلة من أهلها . فسلكوا البلاد ، وأفسدوا الكفر والفساد ،  
وخاضوا بحر الضلال والطغيان . ونحسدوا نحت رابه الشيطان . ونسكن النبي  
في أحشائهم . وإنّ الشباطين لوحون الى أوليائهم ، لا حاكم يردعهم ولا دين  
واعنقاد يجسّعونهم ، يعدون النهب عنسه . والنيسة أكسل شسة ، قد انفت  
آراؤهم ، وارتبّطت أشوارهم<sup>(٣)</sup> . على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأقطار  
عباد الله الموحدين بأن أهل الاسلام قوين<sup>(٤)</sup> ، ولهم مزيد الصلابه في الدين ،  
فاذا وصلنا أقطارهم ، وحللنا ديارهم ، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والصرب  
والقتل والنهب ، والفوي مهم ننصب له سرائك المكر والحيل حتى تطشّن  
خواطيرهم وتأمّن ضمائرهم الى أن يقعوا في أشراكنا ونعسل فيهم ما تشنا من  
مقاصدنا ونلمي بين سائر المسلمين المكاييد الخفية بالفساد ، لايقاع العداوة المبينة  
للاتحاد ، في أحوالهم وأديانهم . ولم بعلموا لعنهم الله ان الاسلام معروس في  
قلوبنا ، والإيمان ممزوج بلحسنا ودمنا ، أكرم بعد ايمان ، أضلال بعد هدى .

- 
- (١) غالب بن مساعد كان معاصرا للشوكانى . وكان حيا سنة ١٢٢٩ هـ له  
معارك كثيرة مع السعوديين في نجد بمياده عبد العزيز بن سعود .  
(٢) الكلاءة : خففت فيها الهمزه .  
(٣) الشور في مصطلحات العامة المتشوره وجمعه اشوار .  
(٤) خطأ نحوى وصوابه قوين .

كلا ورب الارض والسماء ، ربنا لا تترغ فلوبنا بعد اذ هذبنا . وخصوصا في طوائف العرب ، لنبغ فيهم أقصى مرام وأعز مطالب ، وببذل الجهد بحريج الرعايا من الاسلام عن طاعة من ولّٰى عليهم من الحكام حتى يكون لنا الصولة العظى ويصيرون الجميع<sup>(١)</sup> لنا مغنا ، فنقطع بذلك سلك نظامهم ، ويصمم عقد انتظامهم ، فتسلك حينئذ رقابهم وأموالهم فإن العرب أسرع ما يسئولى على ديارهم ، لتعرفهم في أوديتهم من أقطارهم . وعملتهم عن حزم أحوالهم فان أعظم ما يثبت جوع الاسلام ، ويفل حد سنانهم عن الانظام . هدم قبلتهم . وحرقت مساجدهم ، فادا ظفروا بأقطارهم . وهدمت كعبتهم ، ومسجد نبهم ، وبيت مقدس عزهم ، انقطع أملهم وسرف نسلهم . وملكنا ديارهم ، فإن الامور لا بدركها الا اتفاق الجمهور فنقتل جسع رجالهم ، ومن يغفل من سبيانهم فحينئذ نقتسم ديارهم ، وأموالهم ، وأملاكهم . ونحوّل بقبة الناس الى أصولنا وقواعدنا . ولساننا وديننا ، به بسحى الاسلام وقواعده وشرائعه ويندرس رسومه وآثاره من وجه الارض من سرفها وغربها وجنوبها وشمالها ، وعربها ، وعجسها .

فهذا ما اتفق رأي الفرنسيس اللعين من سوء المقاصد في المسلمين . جعل الله دائرة سوء عليهم فلا يستطيعون صرفا ولا نصرا ، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله في قوله ، ( ولا بحيق المكر السيء الا بأهله ) . فهذا حال الفرنسية ، في إلحادهم وجدالهم ، وعنادهم ، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم ، يريدون لبطفثوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، فكيف لا يكون فرضا ( على كل أحد من مسلم موحد )<sup>(٢)</sup> ، أن يشسر عن ساعد الجد ، ويبدل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد ، ويتمثل قول أصدق الفائلين . سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ، ويكون رابحا في بيعه عن الخسران ، مستبشرا ببذل نفسه في سبيل الرحمن ، لقوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن » . الى غير ذلك من الآيات

(١) لغة اكلوه البراغث والصواب حذف الواو والنون من بصيرون .

(٢) تعبير ضعيف الاحسن منه : على كل مسلم موحد .

اليُسُنات والاحاديث الصحيحة المروية عن النُفاب ، مما بحث على نصره الدين .  
ويُلمُّ سَعْدَ الموحِّدين ، فالآن يا سربف مكة . وبا سادات الاشراف وفادات  
العرب ، وحساد الدين وكماه المسلمين وغزاة الموحدين وأبطال الحروب ، الماحين  
بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب ، با رجال العارات ، ويا أركان الشريعة  
والعبادات ، ويا حفظة الدين والأمانات ، وبا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات ،  
ويا كافة اخواننا في الدين ، والذين هم لتريعة ربهم ناصرين ، البدار البدار ، الى  
طاعة الملك الغفار لمحافظة فبلتكم ، ومَحْتَدِ نَبِّكم ، منتأ الاسلام ، ومسجد  
نبيكم عليه السلام ، ومواطن مصاغفة عبادتكم من ساحه بيت الله الحرام ،  
فالغيره الغيرة والحسية الحمية ، من حولة أعداء الدين ، الذين هم عن كل  
ملّة مارقين ولكتب رسل الله مكذبين ، فتدشوا عزائكم للقائهم ، واحفظوا  
جهاتكم وسواحلكم ، ومنافذ بلدانكم ، وسارعوا الى الرباط ، الى حدود  
الكفره اللثام ، ببندر جدة وينبع وما والاها ، مما فيه صيانة المسلمين وحفظ  
أعراض الموحدين ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا تنازعوا فتفلسوا ، وفي سبيل  
الله أنفقوا وتحملوا ، وكونوا كلمتكم واحده ، وأيديكم متناصرة . ولتكن  
سيوفكم بارقة ، وسهامكم راسقة ، وأسنتكم في الطعن متلاحقة ، ومدافعكم  
صاعقة ، ونبالكم الى أفئدتهم متسابقة ، ولتفصدوا بذلك إعلاء كلمه الدين ،  
والذب عن بيت الله ومسجد رسول الله ، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله ،  
محفوظون بروحانة رسول الله ، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك ، ولا تراخ في  
حفظ تلك المسالك ، ونحن في طرف السلطنة السنية ، ننشر رايتنا العلية . فبحول  
الله وقوّته وباهر عظّمته تسلكهم عساكرنا المنصورة ، وتقطعهم سيوفنا المشهورة .  
وقد سيرنا عليهم شجعانا لا يبالون بالموت لإعلاء كلمه الدين ، وغزاة على النار  
محبة في دين الله . فنتعقب بقدره الله أدبارهم ، لعل الله يرزقنا هلاكهم ودمارهم  
فنجعلهم إن شاء الله هباء منثورا ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . فبادروا  
أيها المسلمون الى الرباط بجثّة وينبع . ومن تخلف فقد عصى الله وخالف  
أمرنا ، فإنّ ذلك أمرنا اليكم وحتمنا عليكم . « يا أيها الذين آمنوا اصبروا  
وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، واستجلبوا صالح الدعوات من

عَنْجَازِكُمْ<sup>(١)</sup> وَصَالِحِكُمْ وَأَفْصَلِكُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ . وَفَدَّ قَالَ بَعَالِي « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « الْمُؤْمِنُونَ كَالْبَنِيَانِ يَنْسُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » . « وَهَذَا يَوْمٌ بِنَفْعِ الصَّادِقِينَ صَدَقَهُمْ » . « لَا أَبْهَى الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَطْعَمُوا فَرِيضًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَمْزُقُونَ وَأَخْلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ سَوْدٌ سَوْدٌ وَتَبْيِضٌ وَجْوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَدُفِعُوا إِلَى الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظِلْمًا لِلْعَالَمِينَ . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يَوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ نَبْهًا لَا يَنْصُرُونَ ضَرْبًا عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَبِأَوَّلِهِمْ بَغْضٌ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » . فَالْبِدَارُ الْبِدَارُ إِلَى مَا كُنَّا أَمْرًاكُمْ مِنَ الرِّبَاطِ ، وَالْحَذَارُ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ . هَذَا مَا أَنْتَهَى أَمْرُنَا إِلَيْكُمْ لَا زَلَّكُمْ مُوَفَّقِينَ بِعَوْنِ اللَّهِ الْمُعِينِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

« الْبَدْرُ الطَّالِعُ لِلْهُدَى كَانِي ج ٢ ، ص ٩ - ١٥ »

(١) جمع عاجز على عجز والمعروف المؤلف جمع المذكر السالم منه والجمع عَجَزَةٌ .

### كلمة موجزة في هذه الرسالة :

بلاحظ في هذه العهود أن أهل البسن والحجاز ونجد وسائر الجزيرة العربية كانوا بسّون السلطان العسائي « ملك الروم » لانه ملك البلاد التي كانت خاضعة لهم في الاناضول وجنوب سرق أوروبا .

وقد أرسل السلطان سليم الثالث العسائي ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م ) هذا الكتاب الى الشريف غالب بن مساعد أمير مكة خلال هجوم نابليون على مصر . ولغة الكتاب هي العربية .

يبدأ السلطان في المقدمة بتعظيم نفسه ( مرسومنا لمبجل الشريف وخطابنا المعظم المنيف ) ، ثم يعظم من شأن المرسل اليه غالب بن مساعد ويشيد بنسبه الشريف . ثم يوجه خطابه الى العلاء والنرفاء وسائر المسلمين بسكة المكرمة ، ثم يسدي إليهم خبر هجوم الفرنسيين على مصر ويدعو عليهم بالهلاك : ( لا زالت ديارهم دارسة ، وأعلامهم ناكسة ) ويهاجمهم في سلوكهم وكفرهم وخروجهم عن العهود والمواثيق وبصور نواياهم من الهجوم على الضعفاء ، ومحاولة النفقة بين المسلمين ، وإثارة العرب بخاصة على حكاهم الاتراك ، والاستفادة من الفقرة بين العرب واستقلال كل منهم بواديه ، واسهدافهم هدم القبله وحرق المساجد وتحويل المسلمين عن دينهم . ثم يستجد بعرب الجزيرة العربية على تعدد إماراتها داعيا الى المساعدة والجهاد وحسن الاستعداد للدفاع عن الأماكن المقدسة والحفاظ على السواحل كبندر جدة وميناء ينبع وما والاها ، ويتفاء بالنصر ويوجه اليهم الامر بالدفاع والجهاد محذرا من عاقبة التخاذل ، ثم يستجلب صالح الدعوات من العجزة والصالحين ويستشهد بالآيات الداعية الى الجهاد والثبات والوحدة والاخوة ، والناحية عن التفرق والنقاعس ، ثم يلح على المسارعة الى الجهاد والمراقبة والحذر ، ويختم الكتاب بالدعاء لهم بالتوفيق ، وبالصلاة على النبي .

ومن خصائص هذا الكتاب اهتمام كانه بالدين وبيان ارتباط احكامه ومضموناته به وذكر قواعد صيانة الدين وتأكيد ضروره المحافظة على سنن سيّد المرسلين .

ونرى من حب الأسلوب أن الكاتب يستعمل جبلا معترضة دعائبه كثيره  
ويقتبس أحيانا هذه الجبل من القرآن . « ربنا لا ترغ فلوبنا بعد إذ هديتنا »  
ويقتبس من القرآن معاني أخرى غير الدعاء ، ونأى أحيانا بجبل جوابه برد بها  
على نوابا الفرنجه وأعمالهم : « كلاً ورب الارض والساء » . وبرعم ان الوضوح  
يغلب على أكثر الكتاب فان بعض يعابره لا يخلو من ركاقة : « فكيف لا يكون  
فرضا على كل أحد من مسلم موحد » . وهو يستعمل السجع من بداية الكتاب  
الى نهايته .

ونراه من حيث اللفظ يخفف الكلاء الى الكلاية ويسعمل التور وجمعه  
الأنوار بسعنى الرأي المشار به وهو ما نسعمله العامة وليس في اللغة الفصيحة .  
ونراه من حب الصياغة بخطى خطأ نحويا . وذلك في قوله : « بأن أهل الاسلام  
فويين » .

## ب - النشر التأليفي

### ١ - أعراس الشام للشيخ علوان :

( عن مقال للاستاذ عبد الهادي هاسم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق  
مجلد ٣٢ ج ٢ ، ص ٣٢٧ - أعراس الشام ، في أوائل القرن العاشر الهجري -  
من نصّ للشيخ علوان ( ٨٧٣ أو ٨٥٦ - ٩٣٦ هـ ) .

ترجم له في الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي  
ج ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢١٣ نشر جبرائيل جبور ، وفي مقدمة كتابه الجوهر المحبوك  
في نظم السلوك الذي طبعه سنة ١٣٢٩ هـ أحد أحفاده المرحوم عبد القادر  
العلواني . . . وهو علي بن عطية بن حسن بن محمد واشتهر بالشيخ علوان ،  
حموي المولد والنشأة والوفاة شافعي أشعري شاذلي . منصف واعظ ، له في  
حماة البوم ضريح وجامع باسمه ونروى له كرامات . له شعر جيد وثر بعضه  
مصنوع وبعضه مرسل ، وله من الكتب نحو عشرين طبع منها الجوهر المحبوك . . .  
وبيان المعاني في شرح عقيدة الشيباني ، وأكثرها في التصوف والعقيدة والفقه  
الشافعي .

من أجلّ كتبه « نسمات الاسحار في كرامات الاولاء والاخبار » في الصوف والزهد والتأديب بأدب السلف وأسلوبه فيه أسلوب الواعظ المخلص الذي يسلط لبّ القارئ دون تكلف .

أخذ الاستاذ عبد الهادي هاشم هذا النص من كتاب نسمات الاسحار المذكور . وقد كتبه الشيخ علوان شاكيّا من انتشار البدع في عصره . وأشار الاستاذ هاشم في الحاشية الى فحوى معظم الفقرات التي أعفلها لانها استطرادية لا علاقة لها بالأعراس ، وأهملناها نحن كذلك .

### النص :

وأَنواع البدع في هذا الزمان كثيرة جدا . . . . ومن أقبح البدع ما حدث في بلادنا في الاعراس ، وذلك أن الشيطان ، لعنه الله ، كما كان جالسا على الصراط المستقيم ( يريد : جالسا للناس ليضلّهم ) ، والنكاح منه : فانه من سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، أدخل على من أراد أمورا فظيعة وأحوالا شنيعة ، لا بأس بذكر بعضها ، تذكرة للعالم ، وتبصرة للجاهل ، فأولها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليك بذات الدين ، ترّبتْ يداك ، وورد عنه : اياكم وخضراء الدمن . قيل : من هي ؟ قال : المرأة الحسناء ( في منبت السوء ) ، الحديث . فاذا أراد انسان نكاحا لا تراه يسأل لا عن دينها ، ولا عن نسبها ، وانما يسأل عن جمالها وجهازها ، وهل معها قماش كثير وجهاز ثقيل ، والحامل على هذا كله التساهل في الدين ، فاذا ذكرت له امرأة متجهزة كثيرة المال أرسل اليها ، وأقبل بكليته عليها ، والحال انها مغتابة نمامة كذابة تاركة للصلاة سيئة الخلق ، وهذا فعل من هو في غاية الحق ، فإن نفّس الفاسق سم قاتل . ثم يرسل بعض الناس لحما وطعاما على رأس الحمال مكشوبا رياء وسمعة ، ليقال : هذا عشاء فلان ، ثم يوجه اليهم جماعة من الاغنياء ورؤوس الحارات الاغنياء ، ولا يلتفت الى الفقير والمسكين فإذا جرى العقد أبى أهلها أن يكتبوا عقد النكاح إلاّ على حرير ، نحو ذراع أو أكثر ، اسرافا وتبذيرا . . . فاذا قرب الدخول ، وحان الوصول ، اجتمع أهل محلة الزوج غالبهم : صغيروهم وكبيرهم ، وصحبوا معهم البغال ، وأكثروا الصخب والجدال ، وتوجّهوا الى محلة الزوجة لنقل جهازها ، فبتلقاهم أهل تلك المحلة

بالمدافعة ، والمُساقَطة والممانعة . وطلبوا منهم رؤوسا عديدة من الغنم ، وقالوا : إن لم تأتوا بها لا تملقون أخذ ما جئتم بصدد ، فيقولون لهم : إذا كان الامر كذلك ، فقوموا بواجب حقنا عليكم من المأكَل الكنيرة ... فيذهب كل قاسق منهم الى بيته وبهر زوجته ويأمرها بالقيام الى تحصيل الضيافة والطعام ، وربما تكون مشتغلة باصلاح بعض سائرها ، فيلعنها ويلعن آباءها واخوانها ، وفي الحقيقة ما لعن الا نفسه ...

وربما يكون الانسان منهم فقيرا لا يملك قوت ليله ، أو ( ليس ) عنده ما يكفي أولاده ، فيتركهم يتضاغون من الجوع ، ويحمل قوتهم في طاعة الشيطان رياء وسمعة ، نسأل الله العافية ، وربما يصنع بيضا أو لحما ، وأولاده الصغار يكون على أمهم ، فلا يدفع اليهم ما يهجعهم ، ويقول : يبقى المقل ، يعني الإناء الذي يقل في فيه ، ناقصا ، هذا عيب وفضيحة . فلا فوه الا بالله من أخلاق أهل النفاق ، يراؤون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا . فادا أكلوا السحت أخذوا في الافك واللعب ، والمداينة والكذب . هذا وأهل الزوجة قد صفوا الأثاث في الأطباق ونشروا المتاع على الدواب ورفعوا الحلي على رؤوس الحملين ، وفرحوا بما يجب الحزن عليه ، وانتشر النساء والرجال ، مختلطين في الأزقة والأسواق ، رافعين الاصوات بالزغاليط ، قاصدين المفاخرة والمكاثرة ... فاذا كان ليلة الدخول ، وقعوا في أمور ، منها الإيلام<sup>(١)</sup> بالبدعة ، والرياء والسمعة ، وذلك أن بعضهم ربما يكون فقيرا ، فيستدين ويتكلف فوق طاقته ، قاصدا بذلك تكثير الطعام وتحسينه ، لئلا يعاب عليه بتقصيره عن القدر الذي أولم به جاره ... ثم يتسرع في دعوة الغني والوجيه ، ويفعل عن الارملة والمسكين ، والفقير واليتيم ، أو يكلهم على لحس الأواني ولقط ما انتشر . وبعض الناس يدعو أكابر العلماء ، وأعيان الناس والامراء ، ويكلفهم ويحييهم ، فلا يطبقون التخلف عن الإجابة لوجوبها ، وقصده مفاخرة جيرانه ومباهاتهم ، فيقول : كان عندي الشيخ الفلاني والامير الفلاني والكبير الفلاني ، وهذا رياء مذموم .

(١) الإيلام من الوليمة .



وبعضهم قد اتخذ منه فحشاً ، وفعلت جماعة مستهزئة ، فإذا أكلوا حبسهم لغرامة اضاعاف نمن ما أكلوه . ويقول لبعض اصحابه : ناد بالناباش (٢) فيقول هذا المنادي اذا أعطاه أحد شيئاً : ناباش يا فلان . هذا وجماعة من النساء يستمعون صوت المنادي ، فإذا سئى البازلُ النقوط رفعوا أصواتهم بالزغاليط . خصوصاً اذا كان المنادى باسمه من وجوه الناس . . . فهناك تقع المفارقة والمغايرة بين الافران ويسنحود عليهم الشيطان ، ويحصل لهم العجب بفعلهم الخبيث ، فينفقون أموالهم رياء وسعة في سبيل ابليس وجنوده . ومما ينادي المنادي : أخلف الله عليك يا فلان . وهو الترفي ويكون قد بذل نصفاً ليغري غيره . وفي الحديث النهي عن هذا . . . ليت شعري كيف يخلف الله على من بذل ماله على هذا الوجه . . . فإذا انقضت الوليمة بوجهوا الى الحمام . وقد صحبوا معهم نسعا مستكترا ، فإذا خرجوا أوفدوه بين يدي العروس متسببين بالمجوس ، من اظهار تعار البار ، على انه بكمبهم مصباحان أو ثلاثة ، ثم نهلتوا تهليلاً باللهو واللعب والغفلة وتسطيع حروف الهيلة واخراجها عن محلها . كما يُفعل بين يدي بعض الفقهاء عند ختم مجالس البخاري ، كما شاهدته وفعلته . وأسأل الله النوبة والمغفرة ، فإنّ ما أظهر فقهاء الزمان من البدع أنهم اذا ختم أحدهم مجلس قراءته أفرغت عليه خلعة ثيابه عارية . رهناً على ما تأخر له عند صاحب القراءة من الدراهم ، ورياء ومنافسة للمآثم ، هذا والساء مختلطون بالرجال في مجلسه . . . وبالجملة إيقاد الشمع اسراف ، لم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم ، ولم يُنفَل عن أحد من أصحابه ، ثم المصيبة العظيمة والداهية الدهماء ، أنّ نساء المحلة وغيرها يجنسن في دار . في الثياب والزينة والخصاب بالحناء والنحلي بالذهب ، بين أيديهنّ السوسع موقده ، والوجوه باديه والزينة ظاهرة ، لا حجاب ولا جلباب ، فيدخل الزوج للجملا ، بل للعمى والظلام ، فيتلفئنه بالنسج والزغلطة . وهن سافرات عن وجوههن ، مبديات لزينتهنّ ، فعضده امرأتان من أفاربه : واحد عن يسره وأخرى عن نساله ، فيدخل على

---

(٢) كلمه فارسيه للمعجب أو الثناء مثل مرحى بالعربيّه واهل دمتى يقولون اليوم سوباش .

النساء الأجانب . وربما يدخل معه شبانا بالغين من الاقارب كأخيه البالغ ومن في معناه . فلا حول ولا قوة الا بالله . فهناك يجلس على مكان رفيع ، فتتقدم كل امرأة اليه ، وتلصق اندراهم بين عينيهِ ، ورائحة الطيب منها فائحة ، وعينها محدقة إليه لامحة ، وزينتها بادية لائحة ، فان كان ممن يزعم أنه متدين غصّ بصره ، وإلا فتش عينيهِ وارسل نظره ، الله عليكم ، هل يحلّ هذا الفعل القبيح في دين الاسلام ؟ أو ثقيل مثل هذا عن سيد الانام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ ثم تخرج العروس الملعونة ، هي وماشطتها الشريكة لها في اللعن على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإته لعن النامصة والمتنمصة ، والنامصة بالصاد المهملة هي التي تزيل الشعر من الوجه وهي المسمّاة بالماشطة ، والمتنمصة هي التي تطلب فعل ذلك ، وهذا الفعل حرام ، إلا اذا نبتت لحية أو شوارب ، فلا نجس ازالتها بل يستحب . والنهي إنما هو في الحواجب ، ومعلوم أن الماشطة تنتفح حواجب العروس ، فتشتركان في اللعنة ، لارتكابهما ما نهى عنه . وأما تحشير الوجه والخضاب بالسواد وتطريف الأصابع فحرام على الخليّة ، وعلى غيرها بغير اذن الزوج ، كما نقله الدميري . وكذلك الوشم حرام فعله ، وملعون فاعله وطلابه ، لفوله صلى الله عليه وسلم : لعن الله الواشمات والمستوشحات ، وهو ان تغرز ابره أو مسلة أو نحوها في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك ، حتى يسيل الدم ، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل ونحوه فيخضر ... وهي مسألة عامة الوقوع ، خصوصا في الفلاحين وأهل البوادي رجالهم ونسائهم . وبالجسلة تخرج العروس في شيء يقال له الشربوش ، والذي يظهر لي ، والعلم عند الله تعالى ، أنه وبافي معناه مما ظهر في زماننا ، ويلبسه النساء على رؤوسهن ويسبونه المتقنزع ، مما أخبر صلى الله عليه وسلم بوقوعه ... رجعنا الى ما كنا بصددّه ، فاذا خرجت وامثلت بين يدي الزوج ، فام لها ، وكشف شيئا يقال له الجلاية ، عن وجهها ، واخذت تتقصّف وتكسر في حركتها وتعتّل ، وكلّما دارت مرّة لصق الزوج ومن معه . كأخيه البالغ والمثاق ، اللذين يحرم عليهما النظر اليها في حال المهنة والرنانة ، فضلا عن حال الزينة والنضارة ، الدراهم على جبهتها وعلى خديها . ثم نذهب الماشطة بها الى بيت . وتخلع عنها تلك

الهيئة ، وتفرغ عليها نياها غير تلك الثياب . وتلبسوا عباة كعبانة القاضي والنقيه والتجدي ، وتسك سيفا مسلولا معها . فتأني الى الزوج تباخذ السيف منها ، ويضربها ببطنه على رأسها ثلاث ضربات ، وكل هذا فعل مذموم ملعون فاعله ، ... وأعظم من هذا انه اذا دخل البيت : قامت أم الزوج . فتشحت رجلها مع صدغي الباب ، أي عضادتيه ، ولا تمكن الزوجين من الدخول إلا بعد انحنائهما من تحت رجلها ، فإذا استقرّا في البيت نطلع النساء الأجانب عليهما من الكؤوب ، وجلسن يرقبن أحوالهما الى الصبح . فإن لم يسمع لهما صوت ، طرقت الباب عليهما ، وحرّكن عزمهما . هذا وفد عكسّن الزوجة المسانعة . وحرّضنها على عدم المضاجعة ، وألبسها سروالا عمدن عليه كذا وكذا عقدة . وماذا عسى أن أصف من الاحوال الخبيثة الشنيعة ، المبينة للدين والشرعية ؟! والعجب كل العجب من بعض العلماء كيف يعلم هذه الامور ولا ينكرها ، ولا يبرهن على السنة ولا يشهرها ، بل ربما يبعث زوجته لحضور هذا المجلس الأليم . الموحب للوزر العظيم ...

وبعض الناس يقدم بدعة فييحة جدا ، ويصنع لعترسه مرسحا . وفيه منكرات كثيرة من إضاعة الاموال ، فإنه يحتاج فيه الى بذل مال كثير في شراء الزيت وأجره المغنين ، وينفق فيه اختلاط الرجال بالنساء ، وساع الدف المصنح والغناء ، والمحش والبذاءة والخنا ، وتشبه الرجال بالنسوة ، وكثرة الضحك الناشئة عن الغفلة والقسوة ، وترك الصلوات والاستهزاء بالدين ، والتسحر الزائد بسحاكاة كلام العلماء والخطباء ، وكنف العورة ، وأشياء نسال الله العافية منها بمنته وكرمه ، مما يفضي الى الكفر ، فربما يلبس المضحك زي التثاير . ويستهيء بلباس العلماء الاخيار ، ومن استهزا بالدين وأهله كفر . وأنواع الكفر كثيرة لا تكاد تحصر ... واختلفوا أيضا فيما لو حصر جماعة وجلس أحدهم على مرتفع ، تنبها بالمذكّر أو العالم أو القاضي ، فسألوه المسائل وضحكوا ، وضربوا بالمخراق ، قال بعضهم : بكفروا . وكذا لو تشبه بالمعلم . وأخذ ختبه ، وجلس القوم حوله كالصبيان ، وضحكوا أو استهزؤوا به . وهاتان المسألتان ونظائرهما يتفقان في المراسح كثيرا . وفي هذا القدر كفاية .

### كلمة في النص :

لهذا النص قيمة أدبية كبيرة فهو بصور بعض الاحوال الدينية وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية في القرن العاشر ويقدم لنا صورة نجهلها عن ذلك العصر .

وكانه شيخ متصوف صادق العقيدة متمم يريد المحافظة على أوامر الدين كما كانت مطبقة زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو انساني الشعور يعطف على الفقراء ويرى أنهم أولى بالإطعام والإكرام في الحفلات من الأغنياء القادرين . ويظهر أنه كان بطبعه حريصا يكره التبذير فهو يبدى كرهه واشتزازه منه في عدة مناسبات .

ويظهر من النص ان أهل القرن العاشر الهجري الذي كتب خلاله هذا النص كانوا أكثر حرصا على العمل بالعادات المتبعة منهم على تطبيق أوامر الشرع الحنيف نصا وروحا كما كانت زمن النبي الكريم وكما يريد الشيخ علوان ، ومن هنا كان هذا النقد الشديد من الشيخ لمجسعه في مناسبة هي أبهج مناسبة في حياة الزوج والزوجة وأسرتهما .

والشيخ يتحدث في نصه هذا حديث المصلح الديني الاجتاعي الذي لا يجاري عصره قيد شعرة وينوخي المثل الاعلى الديني الخلقي كما براه هو ، وينفذ العلماء الذين يسكون على عادات عصره النبي يعدوها منكرات ويعسد في ياز، تحريسا على الاحاديث النبوية .

وأكثر ما أثار اهتمامنا في هذا النص حديثه عن 'سح' ( المسرح بلغتنا اليوم ) وبسبب من هذا الحديث الموجز ، أنه كان يقام أحيانا في بيت العرس ، ويكلف نقات طائلة . ويعي فيه المغنون والمهم فيه أكثر من الغناء هو قيام حباغة باضحاك الناس عن طريق النسب - الذي لا يسيه هو تشيلا وانما بيسي سسخرا - وذلك بتقليد الكمار أو العلماء أو القضاة أو المعلمين فأخذ أحدهم دور المعلم أو القاضي وبأخذ الآخرون دور التلاميذ أو المتحاكين والشهود وتضحكون الناس بذلك . وهو يعدّه بدعة ومنكرا ؛ ولكن حدثه عنه يدل على أن عصره

قد عرفه كما عُرف في أوروبا حينئذ ، ومن الحق أن نقول إن بوادر تمثيلية قد ظهرت منذ القرن السادس الهجري في البلاد العربية وتعدّ إرهابا بالمرسح . ومنها خيال الظل - وقره كوز الذي شاع في العهد العثماني - ولكنها في نصّ الشيخ علوان قد بدت لنا في زي قريب من النشيل الذي نعرفه اليوم .

وقد رأينا الشيخ علوان ينقد صنع المرسح وتفقته العالية واختلاط الرجال والنساء فيه والضحك واللهو بتقليد الكمار أو المعلمين أو العلماء أو القضاة .

ويصف الكاتب عادات عصره في الزواج وصفا دقيقا يرفقه بنقدها الديني الخلقي . وما ينقده :

أ - انهماك الزوج حين اختيار الزوجة بالمال أكثر من اهتمامه بالدين والخلق .

ب - العناية بالمظاهر والتباهي بالغنى والترف كارسال الطعام واللحم وكتابة عقد الزواج على الحرير وتقديم أهل الزوج رؤوس الغنم وإقامة أهل الزوجة الولائم الفخمة ، ونقد الرياء والنفاق وتحمل ما فوق الطاقة ، وحوار طرفي الزوج والزوجة وجدالهما حول ما هو مقرّر معروف بن الناس وبينها . وعادة الشاباش ( النقوط ) وخداع من ساء بالشرقيّ في التظاهر بهبه المال الكثير لخداع الآخرين ، ونقد حمل الشموع في الطريق الى الحمام ومنه الى البيت ، والهيللة والصياح في الطرقات أثناء الزفة ، ونقد عادة الختم الني نراه يستغفر الله منها لأنّه فعلها كغيره .

ج - نقد ظهور النساء سافرات متبرّجات أمام الزوج وبعض أربائه الرجال في ليلة العرس ، ونقد تخفيف الحواجب والوشم اللذين بخالفان الشرع ، وهو يبيّن خلال ذلك حكم الشرع في تحريم تحبير الخدين والخضاب بالسواد وتطريف الاصابع ، على الخلّبة ، وعلى المتزوجة بعبر إذن زوجها .

د - نقد الشربوش ( وكان بسى أبضا المفترع وهو لباس للمرأة حينئذ كالطربوش ) لعدم استعماله زمن الرسول ، ونقد عادة تغيير العروس ثيابها ،

وليسيا العمامة كالرجل . وحملها السيف الى الزوج لضربها به صفحا عدة مرات ،  
 ثم — نفذ مرور الزوج والزوجة من بين رجلي أمه الى غرفتهما ليلة  
 الزفاف .

و — نفذ تطلع النساء الى رؤية ما يجري بين الزوج والزوجة في غرفتهما ،  
 و نفذ تعلبسها مناعته للحصول على بعض طلباتها منه .

ونلاحظ على نفذ الشيخ علوان أنه جدي صارم لا يسمح بأي نوع من  
 اللهو والتسلية ، وذلك إن أطلقه بعض الناس فإن أكثر الناس لا يطبقونه . فلا بد  
 من استجسام النص ببعض الضحك واللهو كما يقول الجاحظ . ونلاحظ أن  
 تفسيره لبعض العادات كعادة الشاباش ليس صحيحا فهذه العادة ليست لأخذ  
 من الطعام من المدعوين وإنما هي دين اجتماعي على الزوج لأصدقائه واصدقاء  
 أسرته يستعين به على نفقات العرس ويردّه اليهم حين ينزوج أحد أبنائهم . ولا  
 يزال هذه العادة قائمة الى اليوم معروفة بأنها دين . ويسجل في بعض القرى  
 كل ما يقدمه المدعوون لبركة اليهم في مناسبات مشابهة .

ونلاحظ على النص أنه حيّ جذاب بعنى بالتفاصيل ، ولكنه أحيانا قبل  
 الوهم ح ضعيف التراكيب كقوله في أوله « ودلت أن الشيطان لعنه الله كما كان  
 حاشا على الصراط المستقيم ، والنكاح منه » فهو يريد أن الشيطان يقعد للناس  
 على الصراط المستقيم ليضلهم عنه وإن النكاح سنة من سنن الصراط المستقيم  
 ( عارف الزنى ) .

وفي النص بعض الخطأ النحوي واللغوي كالتغليب مكان الزغارب والعريس  
 مكان العروس للرجل . ويحييهم مكان يحييهم . وكقوله : « فال بعضهم :  
 بكفروا » . والصواب بكفرون وقد أورد الكلبة بصيغها العامية . وأسلوبه  
 في جملته طلق حر ، ولكنه قد بلغا الى السجع حين يجد أمامه مجالا له كقوله :  
 « ورائحه الطيب منها فاتحه ، وعبها محدفة اليه لامحه ، وزينها باديه  
 لائحة .... » .

## ج - النثر الادبي

مثال من نشر المقامات :

مقامة للخفاجي في ذم قاض بالقسطنطينية وابنه :

» ... فقلت في وصفه مقامة ، هذه صورتها :

صورة المقامة :

» اللهم اني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، وألوذ بك يا نور النور اذا دجت ظلمات الحوادث . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، ويتبين كل منقوص حتى يفر منه أبوه وأخوه .

فإنه مما صب من المصائب ، أن حمل على كاهل الدهرية المعائب ، نسخة القبائح ، مسوده الفحش والفضائح ، جريده العيوب ، مثال السيئات والذنوب ، إكسير الفساد ، وشاتة الأعداء والحساد . أنموذج الهموم ، أظلم من ليل المرض والغموم ، قحط الرجال ، قائد جيش الدجال ، قبيح الفعل والقول . اذا اعتذر عن إساءته غسل الغائط بالبول ، لئيم غير مكرم . أجور من قاضي سدوم ، فصداوته هجو الزمان ، وإظهاره لعداوة الأحرار والاعيان . فلو لم يخسف بأهاليه ، لما ارتفعت أسافله على أعاليه .

كالبحر ترسب في أسافله درر وتعلو فوقه جيقة<sup>(١)</sup>  
جعل في بستان مزر بكل ، اذا أثمرت البساتين حنظل . إن لاح انسان جهل فهو لعينه ، أو ابليس تلبس فذاك أستاذه وقرينه . فلو عاين أحمد<sup>(٢)</sup> خداعه لحيّاه وأنشد :

فلما نظرت الى عقله رأيت الشهي كلّها في الخصى  
ريقه الزقوم ، وأنفاسه السوم فهو لعين الدهر فدى ، لا ينطق بغير فحش وأذى ، الجهل رداؤه ، والجذام حليته وبهاؤه . والجنون مجنة له من الاعداء ،

(١) البيت لابن الرومي .

(٢) برید انا الطب المتنبی .

فذاثة المكروهة عينُ السوداء • ليس في خلقه من الحكم والاعراض ، إلا أن تقف الاطباء على ما جهل من الأمراض •

ونتضح به دقائق الشريح : ويكثر رائه من الاستغاثة والتسبيح • تخرف منه الجسد ، فكله عيون تنظر من الحسد ، عرضه دنس مشقق ، ووجهه كقرطاس الرماد مخرق ، أقبح من عسر بعد يسر ، لا يعرف أنه إنسان إلا أنه في خسر • كلته مثنى الا فاه فاسنثه بخلا ، وكلته بلاء لو سئل عنه ابليس قال بلى • يغلب سلاح الوفاة في المبارزة ، وبطن ان الرشود مباحة لانها تسي جائزة • ويزعم لنفوذ أمره في الانام ، أن القول ما قالت جذام لا ما قالت حدام ، أشأم من طوبس ، وأنفل في السع من لبس ، ومعنى يحمل لحية التيس •

يا عين الشوم ، وخليفة البوم ، وسلكه الزمان ، ونجاسة الديوان • ألم يدّر من صدرك ، ولم يخش عجزك وبجرك ، ان زوال الدول باصطناع السفّل •

ومن يكن الغراب له دليلا يمرّ به على جيف الكلاب

يا خيبة الامل ، ومجمع السفّل ، ونتيجة السقم ، وذنء اليتّم والعقم ، وعدوّ الادب ، وأسود القلب ، اما اسنحى زمان حلّ في صدره الخصى ، وأصبح لقدر العلم والمعالى مَرخصا ، مادر " لديه حاتم ، والحجّاج أعدل حاكم •

لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاختصى • قربّه أقبح الحرمان ، وبعده ألدّ من وصل الحور الحسان • قد نجّس الارض نجاسة لا يطهرّها الطوفان ، قرّ عين أبي جهل فهو ينسد له بكل لسان :

نعلای أظهر منه والكلب أظهر مني

لا يهتدي الى صواب ، حتى ينسب الغراب ، أو يستضيء سلطان بشهاب ، سفيه الذمّ حلبة فيه ، وكلّ اناء يرشح بسا فيه • أسجد من هدّه في خلونه ، خير بأن بجني العصا لسائر خدمته • نحوى كم نصب وجرّ • وداوم على مذاكرة متسقة من الذكر • رئيس لبس له صيت وسعة ، لم بيت الا وفي



دهليزه شمعة • أنف بالعُجْبُ في السماء ، واست من الأُبْنَة في الماء • كأنه  
 فرعون الا انه ، من جانب الوجعاء ، ذو الأوتاد ، كذاب فانظر وجهه وسواده ،  
 كأنما ألبس الدين به حِدادَه • عار على السلف والخلف ، أكذب ما يكون  
 اذا حلف ، حُرّاقَة فساد ، فدح شرر شره فساد ، فإن كان أصله النار فهذا  
 الخلف رماد • مفلس من دينه وعقله ، يقول ابلبس انما تركت السجود لآدم ،  
 لأنّه من نسله • اقبح من النّقم ، وأسوأ من زوال النعم • أزنّى من ظلمة ،  
 وأمرئ من غُستة على غُستة • لم يزل يبيدي بانتقاصه الأفاضل غرضاً ، لأنّه من قوم ( في  
 قلوبهم مَرَضٌ " فرادهم الله مَرَضاً ) • لا خير فيه إلا أنّه لا يأثم له مُغتتاب ، بل  
 يحمّد ويُجَازى بجزيل الثواب • لم يُثَلَّب ، وهو بهُجر القول مُغرّم صب ،  
 ومن ذا يَعَضُّ الكلب إذا عضّه الكلب •

إِنْ تهجّه تهجّ مَنْ في الأرض قاطبةً  
 لأنّه من مياه الخلق قد جُمعا

فإنّ كان ذمّ الناس جُلّ مثناه ، فما الناس إلّاّ هو لا سواه • لم تُبقّه  
 لصحه مراجه السنون ، وإتّما ذلك لأنّه عافته المنون •

وقد رفع عن هذه الامه الماسخ فما باله عاد ممسوخا • وتناهى السسخ  
 للشرع فما باله عاد بصدارا . . .  
 قاض لم يدر حُجّة فما آجوجه إلى الصلّ • وجودّه علط في صحف الدهر  
 مفنقر الى المحو والحك •

نور به الماتوية الكلام ، على أنّ متوجد النسرّ هو الظلام ، والناسخيّ  
 البيان على أنّ روح الحيوان حل في الإنسان ، فلو لم بنفرض نسل آدم ، لما  
 حكّم هذا القرد في العالم •

فإنّ لقبّوه بالرئيس سفاهةً  
 فإنّ الخصي ندعى رئيساً من الأعضاء

واذا كان من الدين ، إعلانُ النصيحة للمسلمين فعليك بالرأي الأسد :  
فَرَّ من المَجْذوم فرارك من الأسد ، لأثَّه محروم مجدوم ، ليس فيه من صفات  
العلماء إلاَّ أنَّ لحمه مسموم . حمى الله مزاج العصر من ساري مَرَضه ،  
وصان جوهر هذا الدهر من عَرَضه ، وأثار بالزوال كُسوفه ، وصرف بيد  
نَقَّاد المنية زُيوفه . والسلام .

« الريحانة ج ٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٩ »

### كلمة موجزة في هذا النص :

يتناول الخفاجي خصمه القاضي في هذه المقامة تناول الحافد الناقم فلا يترك  
عيباً من العيوب دون أن يلصقه به . فهو من حيث الأوصافُ الجسدية قبيح مجذوم  
ومن حيث الأوصاف الخلقية حقير لثيم زنيهم متعدد الآباء مصاب بالأُبْنَة ، يسيء  
إلى الدهر أنه موجود فيه وإلى الحكم أنه يتصدره وقد ورث حقارته لابنه .  
والكاتب يُلحّ على الصفات السيئة فه فستعمل جبلاً كثيرة مرادفة أو  
متقاربة المعنى ويستعين بالشعر ينزهه أو يستشهد به ويأتي بكثير من الأمثال  
والأقوال الماثورة العربية يُوَالِي بنها لِيَتَبَّتْ في الأذهان مخازيه .  
ويعتمد الصور البيانية يشخص بها مساوئه ويمعن في الصناعة البديعية من  
جناس وطباق وسجع . . .

وندرك من قراءتنا هذه المفامه سعه ثقافته الادبيه ومدى غزارته اللغوية  
ولكنها خالية من الخيال القصصي تعتمد أشد الاعتماد على التصوير البياني .

والكاتب شديد السخرية قاسي النقمة يجعل مَهْجُوّه أضحوكة ولا يكتفي  
بفن التصوير البياني ، بل يضف إلى ذلك الالفاظ البذيئة والمعاني الفاحشة فبحطّ  
من شأن خصمه ، بل يحطّ من شأن العصر الذي سمح له ولابنه بأن يتصدرا  
قاضيين بين الناس في عاصمة الدولة .

وهذا الأسلوب القاسي لا يعطينا صورة مشرقة مرضية عن خلق الكاتب ،  
بل صورة مخيمة تتخلله معها شتاً فحاشاً بذيء اللسان فاقد الرحمة .

وهذه بعض النظرات التفصيلية في النص مع شواهد منه تؤيدها .

١ - يستعيز الخفاجي بالله من القاضي المذموم دون ان يُصرّح باسمه وذلك للنشويق ، ويكثر من الجمل المرادفة في هذا السبيل لهذه الغاية •

٢ - يبالغ في التشنيع عليه حتى يبلغ درجة الإفحاش في الهجاء : « اذا اعتذر عن اساءته يغسل الغائط بالبول » ، ويصمه بأقبح الصفات الخلقية الشاذة جاريا فيها مجرى الرمز حيناً : « لم يبت الا وفي دهليزه سمعة » « كأنه فرعون الا انه من جانب الوجعاء ذو الاوتاد » ، ومجرى التصريح حيناً آخر : « واست من الأبنة في الماء » • ويستخدم بعض صور التحقير أحيانا أخرى : « معنى لحيه التيس » • أو التورية : « قاض لم يدر حجة » « فما أحوجه الى الصك » • أو الكناية « لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاخصى .... » •

٣ - وفد يستخدم لتحقيره الأمثال القديمة « أشأم من طويس » « أثقل في السمع من ليس » وشعر السابقين : « لم تبقه لصحة مزاجه السنون ، وانما ذلك لانه عافته المنون » فهو ينظر الى قول المتنبي :

ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهم

إلاّ وفي يده من تنها عودُ

وفد يأتي لذلك بشعر نرجّح أنه من نظمه كقوله : ويجعل أبا جهل ينشد :

« نعلاي أطهرُ منه والكلبُ أطهرُ مني »

أو قوله :

« إنّه تهجّه بهجّ مَنْ في الارض فاطبه

لأنّه من مياه الخلق قد جُمِعَا »

ففد جعله ضعيف السب مجهول الاب ينسي الى الناس جميعا لسوء أخلاق أمه •

٤ — وقد يستعبد لذلك من التاريخ ، كإشارته إلى قاضي سدوم لجعل المهجوة شؤماً على الناس وعلى الدولة . أو من الأديان كقوله : « نور به المانوية » الكلام على أن موجد التره هو الظلام » وذلك لسواد لون المهجو . وكقوله : « والتناسخي البيان على أن روح الحيوان تحل في الإنسان » وذلك ليخلع عليه صفة الحيوانية ، أو من الحديث النبوي كقوله : « لأنه محروم مجذوم \*\*\* » فهو مقتبس من الحديث : ( فرّ من المجذوم فرارك من الأسد ) .

٥ — ونظن أنه جاء في هجائه بسعنى جديد قديم هو قوله : « فان كان دم الناس جلّ مناه ، فما الناس الا هو لا سواء » فقد جعله من نسل الناس جميعا ، ولكنه ربما نظر في ذلك الى قول ابن الرومي في أحد مهجويّه : « واحد الأم خليفة الآباء » .

٦ — لا يكتفي بهجائه ، بل يهجو معه ابنه : « رماد من نار » ، ولا خير فيه الا أن مغتابه لا يأثم بل يثاب » .

٧ — يحاكي في مقامته هذه ابن زيدون في رسالته الهزليه .

### مثال من الوصف المعنوي :

كتب الطالوي<sup>(١)</sup> الى صديق رسالة في التسو وبيان فرحته بوصول رساله منه اليه منها :

« أمّا الشوقُ ففد اشتعل ضراما وكاد عذابه أن يكون غراما حتى قال فم الجعن بلسان الدمع ( يا نارُ كوني بردا وسلاما ) ، ( فإني ألقى اليّ كتاب كريم ) فاح منه شميم عرار نجد . وما بعد العشيّة من تسميم ، فتمتعت بما هو أحلى من الوصل بعد الهجر ومن الأمن بعد الخوف ، ومن البرء بعد السقم ، ولم أدر أطيّف منام ، أو زائر أحلام ، أم فُربّ نوى بعد البعاد ، أم حبيب يأتني بلا مبعاد » .

« خلاصة الاترجح ٢ : ١٧٣ — ١٨٠ »

(١) ولد الطالوي سنة ٩٥٠ هـ وتوفي سنة ١٠١٤ هـ وكان قبيل وفاته يقلب في كنبه ويقول :

أقلبها حفظا لها وصالة فإلى شعري من يعلتها بعدي

## كلمة في النص

يبدى الكاتب في هذا النص شوقه الى صديق وصل اليه منه كتاب هنر به ولكنه أثار عاطفة الشوق فيه .

ولغة الكاتب في هذا النص شعرية لانه شاعر مجيد في عصره قبل أن يكون كاتباً وهو يقتبس كثيراً من القرآن : وكاد عذابه يكون ( غراماً ) ( يا نار كوني برداً وسلاماً ) ( فاني ألي اليّ كتاب كريم ) \* ثم هو ينثر بعض أبيات الشعر كهذا البيت :

تمتّع من تميم عرار نجد فسا بعد العنيّة من عرار  
نم هو يضمن بعض الكلام المأثور لأدباء قبله :

« أحلى من الوصل بعد الهجر ، ومن الأمن بعد الخوف ، ومن البرء بعد السقم » \* ويشبه في ذلك أمراً معنوياً بأمور معنوية ثم انه يعتد السجع والصناعة البيانية والبديعية له أسلوباً ، ويُجسّم المعنويات : « أما التوفى فقد اتنعل ضراماً ، ويُشخص أجزاء الجسم » حتى قال فم الجفن بلسان الدمع » \*

ومن طباقاته الجميلة : الوصل بعد الهجر والأمن بعد الخوف وبهذه الطباق يزيد من إبراز المعنى الذي يريده وهو كثرة فرحه بوصول كتاب صديقه اليه \*

ويُحسن تأليف ذلك كله في انسجام جميل ولفظ عذب وأداء لطيف بحسب تعجب الفارسي ودلّ على موهبة أدبية أصيلة في نفسه ونفاخه واسعة تمدّه بالمعاني والصور والاقتباسات المناسبة \*

## مثال من الرسائل الاخوانية - جواب البوريني (١) على صديق يعابه :

(١) البوريني ( ٩٦٣ - ١٠٢٤ هـ ) : هو الشيخ حسن بن محمد بن محمد الصفوري الاصل الدمشقي الملقب بدر الدين البوريني انى عليه كثير من المؤرخين والادباء ووصف بانه مرد وفنه في الفنون كلها . عرف بكثرة الحفظ في العلوم والآداب وكان حسن الذاكرة . له تأليف كثيرة في التاريخ والادب من اشهرها شرح ديوان ابن الفارض ، وله ديوان شعر . رحل من دمشق حين حصل فيها فحط الى بيت المقدس مع ابيه ثم غادر الى دمشق . واحد العلم والادب عن فضلاء عصره كشيخ =

من رسائل البوريني هذه الرسالة أجاب بها على رسالة صديق يعاتبه ويذكره  
تراضع الكاس في أيام الإيناس :

مضت الشيبية والحبية فانبرى دمعان في الأجمان يزدحمان  
ما أنصفني الحادثات رمينني بسود عَيْنٍ وليس لي فلبان  
وردت رسالتك الأمره بالطيش ، المحسنة للانطلاق الى نهب طيب العيش ،  
فقلت لها أهلا وسهلا ومرحبا بلطف حبيب زار عن غير موعد .

على أنها وردت رامزه الى اغفله عن الاخوان متيرة الى نسيان الاحبة  
والخلان فكلا والله ما تبعت في نسيان الاحبة الهوى ، وبالله إني صاحبكم وأما ضل  
صاحبكم وما غوى :

تجشوني ذنوبا ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت  
ومع ذلك :

فلو كان هذا موضع العب لا شتمني  
فؤادي ولكن للعتاب مواضع  
ولئن حصل في مدة الأجل انصاح لتعلن بفول الصلاح :

= الاسلام البدر الفري وابي الفداء اسماعيل النابلسي ومحمد بن المنقار . . وساد  
على اهل عصره ودرس في عدة مدارس وفي الجامع الاموي وجامع السليمانية ، وتعلم  
اللغة الفارسية ، كبيرا ، من الحافظ الحسين التبريري المعروف بابن الكربلاي . وفي  
ذلك يقول :

تعلمت لفظ الاعجمي وانني من العرب العرباء لا اترككم  
وما كان قصدي غير صون حديثكم اذا صرت من شوقي به اترنم  
وان كنت بين المعجمين فمُعرب وان كنت بين المعربين فمعجم  
فاغدو بأشواقني اليكم مرجما وسرّكم في خاطري لس يسعلم  
وتعلم في آخر الامر التركيّه ولم نجدّها احادته الفارسية .  
« عن خلاصة الاثر ج ٢ : ٥١ - ٩٢ »

لزمتم بيني كلزوم البناء للمعمل والحرف على الأصل

واستوحشت نفسي حتى لفتد تنمير لو أمكن من ظلي

وهذا مجمل يعبر تفصيله وحكم يصعب تعليقه . وأما ما أشرتكم إليه بما قال أبو نؤاس والعمل بقوله من ارتضاع الكاس فمقبول لو كانت منازل الشباب أهله ، وأوفان الهوى لصفاء العيـن قابلة ، ولكن بعد نزول الشيب ، والإنذار من عالم الغيب . لا مجال لمصافحة الدنان ، ولو أنها بستانفة الصقاج والسنان :

صحا القلب عن سلمى وأفصر باطله

وعشري أفراس الصبا ورواحله

نعم قد جئت في أيام الشباب بيدان الصبا ، فما عثر طرفي في قضاء وطري ولا كبا :

ولقد نهزت مع الغواض بدلوهم

وأست سرح الطرف حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بسبابه

فإذا غصارة كل ذلك أشام

وأما الآن فإتني أقول :

فما سافني ذكرى حبيب ومنزل

ولا راقني للساجعات نرشم

ولا أطرب الحادي بنرجيع لحنه

ولا صاح من نثر الرياض منسّم

ولا يحلج ببالك أن هذا باللسان . من غير مطابقه الجنان ، فإتني أقسم بالوفا والكرم ، والبيت والحرم ، أن ظاهر هذا الأمر ، وباطنه سيان ، ولو اطلعت على الصمير لازددت علما على ما نطق به اللسان ، ولو كنت مائلا

الى ما أشرتَ إليه ، وعوّلتَ في عباراتك عليه ، ما كنتُ أجِدُ مثلك من نديم ،  
كفءٍ كريم ، وخطره سليم ، يفهم الكلام بالإشارة ، ويستغني عن مفهوم  
العبارة :

إنْ كان لا بدّ من عيش ومن سَمَرٍ  
فحيثُ آمَنُ مِن خلّتي ويأمنني

نَعَمْ إنْ مالت نفسك إلى مجاذبة أطراف الآداب ، والمحادثة عمّا مضى  
من وقائع الأحباب ، فانك واللهِ أعزّ الأخوان ، وإنسانُ عين الخِلانِ ، ما رأينا  
منك سوى ما يَسُرُّ القلوب ، ويكون عينَ المقصود والمطلوب ، فأنت المقصود  
يقول الشاعر :

برُوحِي من نادمتُه فوجدته  
أرقّ من الشكوى وأصفى من الدمع  
يوافقني في الجِدِّ والهزلِ دائماً  
فينظرُ مِن عيني ويسعُ مِن سَمْعِي

هذا هو الجواب مع الاختصار وعند مثلكم يُقبَلُ الاعتذار » .

« عن خلاصة الأثر للسحبي ج ٢ ، ص ٥١ - ٦٢ »

#### كلمة في هذا النص :

هذا النص بديع صادق العاطفة يدلّ على تجربة حقيقية ويصف إقلاع الكاتب  
عن طيش الصبا ، بعد أن رتع فيه ، وتوبته عن اللهو والشرب . وهو يعتذر فيه  
لصديق أرسل إليه يعابه على هجره رفاقَ اللهو ناسباً انقطاعه عنهم إلى الغدر ،  
ويبيّن له أن توبته توبة صحيحة ، وأنه يقول ما يحس به في قلبه وما يصمّم عليه  
من عدم الرجوع إلى الضلال والغي .

ويرقّ لصديقه مع قوة تصميّمه على التوبة ، فيقول له : لو آتّه لا يزال يلهو  
لما اختار غيره لرفقته صديقاً كريماً . فإن رأى هذا الصديق أن يكون رفقاً منادماً



له في العلوم والآداب : دون اللهو والشراب . كان في ذلك سروره وسعادته .  
ويتوقع ان صديقاً مثل صديقه يقبل عذره ويقنع بجوابه .

هذا هو ملخص المفسون . وأما الشكل فقد جسع فيه الكاتب بين التزم  
والشعر ، وثر الشعر ، واقتبس من القرآن ، وضمن أفعال بعض الاقدمين والتزم  
الصناعة البديعة مع السهولة وحسن الانسجام وأجاد التعبير عن المعاني المناسبة  
وأحسن اختيار الصور المعبرة .

وبدا لنا الكاتب الشاعر غزير الأدب واسع الثقافة جواد القريحة لبق التناول ،  
لم يسنجب لنداء صديقه في نهب الملهذات ؛ ولكنه صدّه عنه برفق ونصحه بلطف  
وإناس . ودل بذلك كَلِّه على أنه يعيش حقاً تجربته الجديدة المناسبة لسنّه  
ولشعوره باقتراب أجله ، وانه لا ينافق في ذلك ولا يوارب .

وكان سهل الأداء مأنوس الالفاظ لطيف الروح . وفد استهلّ رسالته  
الجوازية بيتين من الشعر جاء فيهما بمعنى بديع هو أن قلبه لا يقوى على فراق  
حبيبين في آن واحد : الحبيبة والشبيبة .

وقد التزم السجع وأولى الصناعة اهتماما كبيرا ولكنه لم يجتر على المعنى  
وجمال الأداء ، وقوة التأثير .



## خاتمة : تجمل خصائص النثر خلال العهد العثماني بعد دراسة النصوص السابقة :

عرفت في العهد العثماني أنواع النثر الثلاثة : الديواني ، والعلمي التألفي ، والنثر الأدبي . واقتصرت الخطابة على الخطب الدينية المنقولة أو المحفوظة عن الأقدمين .

وكان النثر الديواني أقلّ مقدارا وحظًا من النوعين الآخرين فقد كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية الأولى وكانت العربية إلى جانبها يكتب بها العرب أو يكتب بها إلى العرب .

وكان الاتراك يتعلّمون العربية لأنها لغة الدين والثقافة وقسم كبير من الادب ، الى جانب التركية والفارسية . وكان كثير من الادباء العرب ينعلّمون اللغات الثلاث .

وقد كتب كثير من علماء الترك والاعاجم وأدبائهم بالعربية نصوصا أدبية ، منها مقامات ، ونظموا شعرا . ولم يظهر البعض للعرب وللثقافة العربية لدى بعض الأتراك إلاّ في أواخر العهد العثماني زمن الاتحاديين حين نشأت فكرة القوميات ونعصب هؤلاء لقوميتهم وحاولوا محو القوميات الاخرى .

وقد غلبت الثقافة والافكار الدينية في هذا العهد على غيرها من أنواع العلوم والمعارف ، وسادت الروح الصوفية بين الناس جميعا ، ولم يكن أحد من المسلمين تقريبا لا ينتسب الى طريقة من الطرق الصوفية السائدة .

وكان التعصب المذهبي بين السنة والشيعة واضحا بعثه وأذكاه الحرب التي كانت متواصلة بين الاتراك والفرس وتعصب الفريقين لمذهبيهما ذلك التعصب الذي خلقته السياسة .

وقد التزم الكتاب ، في أنواع الكتابة الثلاثة التقليد ، لجمود الحياة نفسها وعدم حدوث ثورات على الواقع السياسي والاجتماعي السيء إلا ثورات موقّنة تشبّ كالبرق ثم لا تلبث أن تنطفئ . والثورة الوحيدة على الواقع الديني

الاجتماعي التي قامت واستمرت برغم ما قام في وجهها من عذاب هي الثغرة الوهاية الإصلاحية . وبؤسنا أننا لم نؤثّر حقاً من "الحديث" في هذا الزمن ما كان لها من دور في الاحياء .

وكان لدى العرب إحساس مبهم بوجودهم القومي فكان أمراء الجزيرة العربية وسكانها يسون السلطان العثماني ملك الروم . لا ملث المسنين . ولا ملث الترك والعرب ، ولكنهم كانوا روسيا وعسلا تابعين له .

وقد رأينا التقليد والصناعة يغلبان على النصوص الدبوانية . ولكن أصحابها كانوا فادرين على التعبير عن المعاني التي كانوا يريدونها مع عدم خلّو كتابتهم من الخطأ اللغوي والنحوي ومن بعض الركاكة ، وقد تفاووا في مقدرتهم الكناية ولو اطلعنا على ما كتبه الشوكاني المؤلف الاديب في جواب إمام البين على السلطان وأمير مكة لرأينا أنه أصبح لغة أقوى أسلوباً من كاتب رسالة السلطان .

وكان التقليد والجمع غالبين على التأليف ، على أننا رأينا لدى بعض المؤلفين كالشيخ علوان الحموي ، نقداً اجتماعياً ينطلق فيه من روحه الصوفي الانساني المحافظ . وقد عرفنا من نصّه في النقد ان التمثيل كان معروفاً في زمنه وربما كان قد عرف قبله بقليل في أواخر العهد المملوكي الثاني وقد رأينا في زمنه رأبه الديني الذي يقوم على أنه حرام ، ويسّيه تمسخرًا ، ويصف كذب كان يعرض بعض شؤون الحياة عرضاً ساخراً . وفي هذا العصر نرى كذلك عبد الوهاب الشعراني الصوفي ينقد الحكام وظلمهم وخروجهم على الشرع نقداً لطيفاً تستمر فيه رسالة التصوف البناء الهادفة الى اصلاح النفوس التي تصور الجانب الخير المشرق منه .

ونرى كذلك اهتمام بعض المؤلفين كالغزي بتربية الناس على مراعاة الآداب العامة في المؤاكلة والعشرة ، استمراراً في الروح الحضارية العربية . ورأينا كيف نقد الخفاجي بعض الحكام والقضاة وصوّر بدء تفهقر المستوى العلمي والادبي في زمنه بسبب تولية الأمور غير أربابها الاكفاء .

وظهر لنا أن الغالب على الاسلوب في التأليف العلمي هو التحرر من الصناعة . إلا في مقدمات الكتب ، والاهتمام بوضوح المعاني وسهولة الأداء . وقد تبلغ

السهولة في الأداء والالفاظ حدّاً يقرب الكلام معه من العامة كسا رأينا في نصّ  
الشيخ علوان .

وفد غلب التقليد والصناعة على النصوص الأدبية ولكنّ كتابها كانوا يراعون  
الجمال والقوة في أدائها فقد رأينا أنّ مستوى مقامات الحجاجي جيّد ، ولكنّها  
لم تكن تساوي مقامات الهمذاني والحريري من حيث مستوى الفنّ القصصي  
والتشويق . على أنّا رأينا يحسن استخدامها سلاحا في مهاجمة خصومه ونقد  
الحكام والأوضاع السباسبية والعلمية والاجتماعية السائدة .

ونرى الكتاب في هذا العهد يهتمّون الى جانب كتابة الرسائل والمقامات  
بوصف الأشياء الصغيرة ، كوصف الشمعة للخفاجي في كتابه الريحانة ، ويسرجون  
بين النثر والشعر في الكتابة ويقتبسون معانيهم وصوّرهم من سابقهم ، ولكنهم  
يستطيعون التعبير عن أحوالهم النفسية والاجتماعية .

ورأيناهم يجيدون التعبير عن المعنويات كوصف الشوق والشعور بالفرح  
لدى الطالوي ، وكالاغترار والجواب على العتب والتعبير عن مشاعر الشيخوخة  
والتوبة لدى البوريني . وكلاهما قد جمع في كتابته بين النثر والشعر .

وقد رأينا في كتابات هؤلاء الأدباء جميع ألوان البديع من تورية وجناس  
ومطابق واقتباس ونضمن أشرنا إليها في أماكنها حين أوردنا نصوصهم .

وننتهي من هذه الخلاصة إلى القول بأنّ نثر العهد قد ضاهى بعضه  
ولا سيما الأدبي منه نصوص السابقين في عهود الدون المتابعة وضعف بعض منه  
ولم يسلم من الخطأ كبعض الكتابة الديوانية والتأليفية ، وانتقل بعضه الآخر  
من مجال الابتكار الى مجال الحفظ عن الأقدمين ، كالخطابة . وننتهي كذلك  
إلى أنّ ما حسن منه قد خفّف من قتمام الصورة التي كانت تنطبع في أذهاننا عن  
هذا العهد .

## من المراجع

### ١ - من الكتب المعاصرة :

- خطط الشام لمحمد كرد علي
- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان
- الفن ومذاهبه في التر العربي لشوفي ضيف
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوفي ضيف
- عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم
- تاريخ الأدب العربي في العراق لعباس غزالي
- الحياة العفلة في عصر الحروب الصليبية بصبر والشام لأحمد أحمد بدوي
- الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بصبر والشام لأحمد أحمد بدوي
- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي لعبد اللطيف حمزة
- أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة
- المجمل في التاريخ المصري لحسن ابراهيم حسن واخوانه
- بلاد مصر والشام من الفتح العشاني الى حملة نابليون لعبد الكريم رافق
- دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر عصر سلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح
- عاشور \*
- دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين لمحمد كامل حسين
- أدب مصر الفاطمية لمحمد كامل حسين
- الأدب في بلاد الشام لعمر موسى باشا
- ابن نباتة لعمر موسى باشا
- ابن النقيب لعمر موسى باشا
- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين

الأدب في عصور الانحدار لجودة الركابي  
 الحروب الصليبية وآثرها في الأدب العربي في مصر والشام لسبد كلاني  
 الأدب في العصر الأيوبي للدكتور محمد زغلول سلام  
 الادب في العصر المملوكي بجزءيه للدكتور محمد زغلول سلام  
 الادب الصوفي في مصر للدكتور علي صافي حسين  
 صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود ابراهيم  
 الادب العامي في مصر لمحمد صادق الجمال

### ب - من الكتب القديمة :

#### ١ - موسوعات وتراجم وطبقات وكتب تاريخ وخطط وآثار :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاخرة لجمال الدين بن محاسن ، يوسف بن  
 تغري بردي \*  
 صبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي  
 مقدمة ابن خلدون وكتابه العبر  
 دراسة مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري  
 الموسوعة الاسلامية ، الترجمة العربية ، لبروكلمان  
 وفئات الأعيان لابن خلكان  
 مسالك الابصار في مسالك الأبصار لابن فضل الله شهاب الدين  
 دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية والانكليزية  
 نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري  
 معجم الأدباء لياقوت الحموي  
 بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ٩٣٠ هـ : ( شهد فتح السلطان سليم  
 لمصر )

حسن المحاصره في أخبار مصر والقاهره للسبوطي ٩١١ هـ  
الضوء اللامع في أعيان الفرد التاسع لتسلس الدين السخاوي ٩٠٢ هـ  
حفنة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارع ، والبقاع المباركات لتسلس الدين  
السخاوي ٩٠٢ هـ

البدر الطالع بحاسن من بعد الفرد السابع للفاضل محمد بن علي الشويكاني  
المتوفي ١٢٥٠ هـ

ملحق البدر الطالع لمحمد بن زبارة الحسني اليسري  
السلوك لمعرفة دول الملوك للسفريني ٨٤٥ هـ : نشره د. محمد مصطفى زياده  
مفترج الكروب في أخبار بني أبوب لابن واصل المتوفى ٦٩٧ هـ  
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الغزنوية والأبوية لأبي سامة ٦٦٥ هـ وهو  
مستقى من رسائل القاضي الفاضل وعلاء الدين الاصفهاني وابن شداد  
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه لابن شداد ٦٣٢ هـ  
الافاده والاعتبار في الامور المشاهده والحوادث المعانيه لعبد اللطيف البعدادي  
المتوفى ٦٣٩ هـ ١٢٣٤ م

المبج القسي في الفتح القدسي للعلاء الكاتب ٥٩٧ هـ  
تاريخ دولة آل سلجوق للعلاء الكاتب ٥٩٧ هـ  
تاريخ ابن المراء ٨٠٧ هـ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين  
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة لابن القوطي ( كمال الدين  
أبي الفضل ، عبد الرزاق ٧٣٣ هـ ، تحقيق مصطفى جواد )  
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة ( مصطفى بن عبد الله  
وشهر بابن جلي ١٠٦٧ هـ

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان سن ٤٩٥ - ٦٥٤ هـ لسبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ  
الغصون الياقة في محاسن شعراء المئة السابعة : ابن سعيد الاندلسي المتوفى ٦٨٥ هـ

بغية الوعاده في طبقات اللغويين والنحاة : السيوطي ٩١١ هـ  
 أمراء دمشق في الاسلام للصلاح الصفدي ٧٦٤ هـ  
 فضاء دمشق لابن طولون ( شمس الدين ، عاش في القرن التاسع )  
 الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي  
 خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمجبي ( محمد أمين بن فضل الله  
 المعروف بالمجبي الدمشقي ) ١١١١ هـ  
 سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمراي ( أبي الفضل محمد خليل  
 الدمشقي ) ١٢٠٦ هـ  
 الكامل لابن الأثير ( عز الدين ) طبع القاهرة ١٣٠٣ هـ ( المؤلف من القرن السادس  
 وأوائل السابع )  
 طرق الأصحاب في معرفة الأنساب ( السلطان الملك الأشرف عر بن يوسف )  
 تحقيق لك . وسترسين مطبعة الترقى بدمشق ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م  
 ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة توفي ٨٥٢ هـ  
 النعمي : الدارس في تاريخ المدارس توفي ٩٢٧ هـ  
 ابن الوردي تنسمة المختصر في اخبار البشر ، توفي ٧٤٩ هـ  
 ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، توفي ٦٦٨ هـ  
 السبكي ٧٧١ هـ ( ناج الدين ) طبقات الشافعية الكبرى  
 ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات توفي ٧٦٤ هـ  
 الصفدي ( ٧٦٤ هـ ) الوافي بالوفيات : نشر جماعة المستشرقين الالمانية ١٩٣٩  
 البداية والنهاية لابن كثير ٧٧٤ مطول في التاريخ العام  
 المقرئزي ٨٤٥ : السلوك لمعرفة دول الملوك  
 الخطط : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار  
 اغانة الامة بكشف الغمة  
 حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر ( الهجري ) لعبد الرزاق البيطار



## ٢ - ادب وتراجم ادبية وفنون ادبية :

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر : تحقيق شوقي ضيف

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام : تحقيق شكري فيصل

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء العراق : تحقيق جميل سعيد ومحمد بهجة الأتري

المقري ١٠٤١ : نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب

أزهار الرياض في اخبار عياض

ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات

الصفدي : جنان الجناس في علم البديع

الميداني : مجمع الأمثال

النواجي : حلبة الكميت في وصف الخمر وأحوالها وتوفي ٨٥٩ هـ أو ٨٤٩ هـ

ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا لشهاب الدين الخفاجي ( ت ١٠٦٩ هـ )

نقشة الريحانة ورشحة طلاء الحانة لمحمد أمين المحبّي ( ت ١١١١ هـ )

سلافة العصر في محاسن شعراء كل مصر لابن معصوم ( علي صدر الدين اليمني ت ١٠٠٩ هـ )

## ٣ - كتب في تراجم اشخاص أو في موضوعات خاصة :

العماد الأصفهاني لمظفر سلطان

تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة

الاعتبار ، ولباب الألباب ، والمنازل والديار ، والبديع في نقد الشعر : لأسامة بن منقذ

رسائل ابن الأثير : تحقيق أنيس المقدسي

ثمرات الأوراق لابن حجة الحسوي

حسن النوسل الى صناعة الترسل للشهاب محسود

مامات الوهراني ومقاماته ورسائله

كنسف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم  
والقول النفيس في تفليس ابليس لابن غانم  
حياة شيخ الاسلام ابن تيمبة للشيخ بهجة البيطار  
رحلة ابن جبير

تليس ابليس لابن الجوزي  
فصوص الحكم لابن عربي تحقيق أبي العلاء عميني  
آداب العترة وذكر الصحبة والأخوة لبدر الدين محمد الغزي  
آداب المؤكلة لبدر الدين محمد الغزي

#### ٤ - من الدواوين :

دواوين : الحلبي والبهاء زهير ، وابن نباتة ، وابن النقيب الدمشقي ، وابن مطروح  
وأسامة بن منقذ والشاب الظريف وابن عني وفتيان الشاغوري والتلعفري  
وابن الساعاتي والتurf الأنصاري وابن عربي وعرقلة الكلبي ...

#### ٥ - من الكتب الدينية :

اختصار علوم الحديث : الحافظ بن كثير ٧٧٤ هـ  
الانقاف في علوم القرآن : السيوطي  
زاد المعاد في هدى خير العباد : ابن القيم الجوزي ٧٥١ هـ  
أعلام الموقعين عن رب العالمين : ابن القيم الجوزي ٧٥١ هـ  
النهاية في غريب الحديث والأثر لمحمد بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير مجدد  
الدين المحدث المتوفى ٦٠٦ هـ

#### ٦ - من كتب اللغة والنحو :

( الخفاجي ١٠٦٩ هـ ) : شفاء الغليل فبا في كلام العرب من الدخيل ( شهاب الدين  
أحمد بن محمد )  
المزهر في اللغة للسيوطي  
مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري  
لسان العرب لابن منظور  
القاموس المحيط للفيروز ابادي  
تهذيب الايضاح للقزويني ( جلال الدن محمد بن عبد  
الرحمن ٧٣٩ )

٧ - من المراجع في لغات أجنبية :

Rikabi Jawdat · La Poésie profane sous les Ayyüvides et-ses principaux  
representants.

R. Dozi : Dictionnaire détaillée des noms des vêtements chez les arabes.  
Amésterdam 1845.

Hartwig Derenbourg : Ousama Ibn Mounkedh. 2 Vol. Paris  
Ernest Leroux Editeur 1889.

Encyclopédie de l'Islam : Version Française . Leide 1913 - . 4 Vol.  
Supelement. 1. Vol.

Stevenson : The Gusades in the East.

Stanly — Laine — Poole : Saladin and the faul of the Kingdom of  
Jerusalem

The Grusades in the Later Middle Ages ( London, 1938 ).

Stanly — Laine — Poole : History of Egyptian, The Middle Ages  
( London, 1892 )

الدكتور عزيز عطية سوريال

The Story of Cairo ( London, 1912 ).

Caston Wiet · Précis de l'histoire de l'Egypte. 4 Vol.

Histoire de la nation Egyptienne . 7 Vol. IV, l'Egypte Arabe.

## محتويات الجزء الثاني

٣	النشر .
٣	مكانته وموضوعاته
٣	الخطابة .
٨	مثال من الخطب الدينية ذات الطابع النضالي : خطبة ابن الركي .
١١	كلمة في هذه الخطبة .
١٥	الخطب الحريية .
١٧	الكتابة السلطانية .
١٧	ديوان الإنشاء .
١٩	ثقافة الكتاب .
٢١	النثر الديواني .
٢٢	العهود والتقاليد والتواقيع .
٢٢	العهود والتقاليد .
٢٧	التوقيع .
٢٨	الرسائل .
٣٢	رسالتان بين تيمور وبرقوق .
٣٨	النثر الذاتي والوجداني :
٣٨	الرسائل .
٤٨	المقامة .
٥٢	خيال الظل .
٥٤	بابة طيف الخيال .
٥٦	فنّ المقامات الادبية .
٥٧	مميزات النثر .
٦٠	خصائص الكتابة في هذه الحقبة .
٦٢	من الموسوعات : صبح الاعشى للقلقشندي .
٦٢	عصر الفلفشندي والموسوعات .

- ٦٥ ترجمة القلقشندي .
- ٧٠ مصادر القلقشندي في تأليف صبح الاعشى .
- ٧١ كثرة الاهتمام بصبح الاعشى .
- ٧٢ لم بهم به نحن ؟
- ٧٣ موضوعاته واهميته .
- ٧٥ ما حمله على تأليفه .
- ٧٦ مميزات كتابه في رأيه .
- ٧٧ نصوص ديوانية مختلفة منه .
- ٧٧ نص فيما يحاح إليه الكاتب على سبيل الإجمال .
- ٧٩ كلمه فيه .
- ٨٠ نص في بيعه خليفة بعد عزل آخر من صياغة القلقشندي .
- ٨٦ كلمه فيه .
- ٨٩ نسخه تمليد بكفالة السلطنة من انشاء الشهاب محمود .
- ٩٣ كلمة في هذا النص .
- ٩٥ نصان من صبح الاعشى في الإنشاء الوصفي :
- ٩٥ نص لابن نبانه يصف فيه ريادة النيل ريادة مفرطة
- ٩٧ كلمه فيه .
- ٩٨ نص من الحائمه وهو في المناور .
- ١٠٠ ملاحظة خانمة .
- ١٠١ الحياة العامة في ظل الدولة العثمانية .
- ١٠٧ حال الشعر في العصر العثماني ومدى الاهتمام به .
- ١١٤ شعر النضال في العهد العثماني ومنه المدح البطولي .
- ١١٨ آيات محتارة من قصيدة لعبد الرحمن البهلول
- ١٢١ ملاحظات على القصيدة .
- ١٢٣ المديح النبوى .
- ١٢٤ المدح الداتى التفليدي .
- ١٢٨ الرساء .
- ١٣٤ الفضل .
- ١٤٧ الشعر في الحمر والحشيشه والفناء وغيرهما .
- ١٤٧ في الخمر .
- ١٥٥ في الحشيشه .

- ١٥٦ . شعر عيسو ابن .
- ١٦٠ . التسعر في التدخين .
- ١٦١ . الأوراق والعوالق التسعير العدة والمستحدثة .
- ١٦٦ من المنون الطعيلة على التسعر :
- ١٦٦ . الشجير .
- ١٦٨ . انطيرير .
- ١٦٨ . الساربع التسعري .
- ١٧٣ . النشر خلال العهد العثماني :
- ١٧٣ . تمهيد .
- ١٧٨ . الكناه الديوانييه :
- ١٧٨ . رسالة السلطان العثماني الى شريف مكة حين غرو العريسيين مصر .
- ١٨٣ . كلمه موجزه فيها .
- ١٨٤ . النثر السالفي :
- ١٨٤ . اعراض استام للشيخ علوان : التمهيد ثم النص .
- ١٩٠ . له في النص .
- ١٩٣ . النثر الادبي
- ١٩٣ . مثال من نشر المقامات : معامة للخفاجي في ذم قاص بالاسططننة وابنه
- ١٩٦ . كلمه موجزة فيها .
- ١٩٨ . مثال من الوصف المعنوي : رسالة للطاوي في الشوق
- ١٩٩ . كلمه فيها .
- ١٩٩ . مثال من الرسائل الاخوانية : جواب البور . الى صديق يعابه
- ٢٠٢ . كلمه فيه .
- ٢٠٤ . حاتم في خسانات النشر خلال العهد العثماني
- ٢٠٧ . المراجع



قصت محوك الأعادي فرد الله ما أملوه عنك وعنا  
وتولت تلك الخيول ولم يثـ من عليها بأنها ليس تشنى  
لا تخص الشآم منك التهاني كل صقع وكل قطريها

« ابن سناء الملك في صلاح الدين  
حين حرد القدس »

مطبعة ابن خلدون - دمشق

